فلسفة الروح

١

أصل الانسان وسر الوجود

تأليف

باسمة كيال

منشورات

دار ومكتبة الهلال

ص.ب: ١٥/٥٠٠٣ بيروت

أصل الإنسان وسر الوجود

الطبعة الاولى ١٩٨١
الطبعة الثانية ١٩٨٢

الادارة العامة - بيروت شارع المقداد - بناية فرحات وحجازي
ص.ب: ٥٠٠٣/١٥

كلمــة لا بد منها

الروح والجسد هذا الموضوع العرفاني الخطير الذي تعالجه السيدة باسمة كيــال باسلــوب موضوعي عقــلاني مبني على مرتكزات علمية ناضجة قد حير عقول العلماء والفلاسفــة ، والحكماء ، منذ وجود الانسان على هذا الكوكب • وهم لا يزالون حتى عصرنا الحاضر فيه بين أخذ ورد ونقاش وجدل • وربما لن تنسجم الأفكار ، وتتفق الآراء حتى نهاية الوجود والموجودات •

والروح التي تسللت الى الجسد الانساني فواكبت سلوكه ، وانفعالاته ، واستجاباته خلال فترة وجوده في عالم الكون والفساد ليست سوى جزء من الروح الكلية التي أوجدت الموجودات ، وأبدعت كافة المبدعات العلوية والسفلية ، تشتاق الى العودة الى الكل الذي انبثقت منه لتبلغ كمالها ومثاليتها • ولن يتحقق لها هذا الانصهار في البوتقة الكلية الا اذا عرفت ذاتها ، وتيسر لها الانتقال من القوة الى الفعل عن طريق الافادة والتعليم ،واكتساب الأخلاق الفاضلة،التي تتجوهر مع جوهرها الروحاني السرمدي•

وليس الجسد الانساني الذي يحمل بين جنبيه الروح سوى

قميص بال عفن يخلعه الانسان عندما يرتقي في معارفه العقلية ، وعلومه الحقانية الى مصاف الحكماء ، والأنبياء ، والأولياء ، والزهاد والمتصوفين • والجسد يراه الحكماء الربانيون ليس سوى المظهر الخارجي الذي به يتعارف الناس الى حين ، ولا صلة له بالروح وتعريفها ، ولا هو ملك لها ، بــل هو ملك للتراب والهواء والماء والنار ، كونه من هذه العناصر تكوّن وتشكل ، واليها يعود بعد الفترة المحددة التي يقضيهــا في عالم الكون والفساد •

وما دمنا وصلنا الى هذا الحد لا بد لنا من القول أن الروح هي التي تهب الانسان طابعــه العقلي ، ومنــاقبه الخلقية ، باعتبارها جوهرة قدسية تشع بقواها الروحية فتضيء للجسد الفان دروب السعادة ، والهناء ، والسؤدد ، والمجد ، اذا ما كان ذلك الانسان واعيا مدركا قد توصل الى معرفة ماهية ذاته •

وربما تساءل المرء عن ماهية هذه الذات الواجب الغوص في أعماقها لمعرفة كنهها وجوهرها الحقاني الذي ينير الطريق الى الأسس العرفانية ، والمرتكزات العقلانية ، ليرتشف من رحيقها ومضات الكمال والمثالية •

والذات عندما تبلغ كمالها وتصبح صورة تمامية يكون بها انتقالها الى رتبة سماوية ، اذا استكملت قواها ، وصحت أدواتها، واعتدلت أقسامها ، واستوى نظامها وبلغت ما أعد لها ، وان كانت بخلاف ذلك وبالعكس منه ، بقيت مقارنة للكون تارة ، وللفساد أخرى ، حتى يكون الغالب عليها أحد الأمرين ، اما السعادة الكاملة ، واما الشقاوة الشاملة لها ، اذا تغطى عنها نورها ، وأظلم جوهرها ، وخفيت عنها مناقبها الخيرة ، واشتغلت

بلذاتها ، وانهمكت في تناول نهماتها ، من أكلها وشربها ، وما يكون به صلاح جسدها ، وقوام قالبها ، وعمارة مسكنها الفاني ، وغفلتها من عالمها الروحاني ، ومحلها النوراني ، فتصير بأعمالها الرديئة ، وأخلاقها السيئة من أهل النار ، وسكان دار البوار ، بما كسبت ، وتحيط بها سيئات ما عملت ، وما ربك بظلام للعبيد ·

وليس بقاء النفس في الجسم المدة المقدرة لها الا لكي تعمل وتفعل لتتم لها صورة تنتفع بها ، اذا فارقت هذا العالم الفاني ، والمحل الجسماني ، فان فاتها ذلك انعكست في المنقلب ، وعادت الى سوء الطلب،وقالت : « يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله ، وقالوا « يا ريتنا نرد » فنعمل غير الذي كنا نعمل · وهيهات ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون » ولا يمكن النفس من الوصول الى العالم الروحاني ، والمحل النوراني الا بعد مفارقة هذا المكان الدنيوي والقالب الجسماني ، والنفس الطائعة اذا أكملت طاعتها ، وبلغت نهايتها وانتهت الى غايتها في الصورة الانسانية ، واستحقت بأعمالها الزكية ، وما كسبته من أفعالها صورة ملكية ، والنقلة الى رتبة سماوية ، لانتقاش العلوم والمعارف في جوهرها ، واكتساب الفضائل المحمودة ، واقتنت العلوم الفاضلة من المحسوسة والمعقولة من أصناف العلوم في الأعلى والاسفل والادق ، والاجل ، والأدون ، والاكمل وعرفت الطرفين ، وبانت لها المنزلتان ، وأعربت عن الاشياء بقوة النطق، وطرحتها في طرق التعاليم ، فيتصل بها الوحي والالهام بحسب قوتها ، وما في وسعها وطاقتها ، فتستخرج بعلمها آراء وتستنبط بذهنها مذاهب ·

ان المواضيع الماورائية التي أوردتها المؤلفة ليست سوى أفكار عقلانية تدعو للتحلي بمكارم الأخلاق ، وتعزز الايمان بقدرة الباري سبحانه وتعالى وحكمته ، كونه المبدع الخالق الموجد لكافة الموجودات ، فمن الضرورة بمكان توحيد هذا المبدع وتجريده من كافة الصفات التي تتصف بها موجوداته ومبدعاته، باعتباره أسمى وأرفع منها لأنه موجدها ، ومنظمها ، ومرتبها ٠

ومتى كان البرهان على بدء الخليقة ، والتكوين البشري ، مستمدا من الايمان المطلق بالله وبعدالة ناموسه الخلقي ، فان البرهان اذا كان عقليا منطلقا مما يحس به المرء ويحققه بنفسه يكون أحرص على التمسك بايمانه بالله وبقدرته العجيبة ٠

واذا كان الحكماء والفلاسفة يعتمدون في حكمتهم وفلسفتهم على المنطق الفلسفي ، فان البرهان الايماني التسليمي ينسجم مع متطلبات كل مؤمن يحاول أن يدعم ايمانه ويعززه بالمحبة والاخاء بين جميع الاجناس والمذاهب والأديان ٠

وفي عرفي أن انسان هذا القرن الذي راح يربط بين أفكاره الموروثة والمكتسبة وبين الاكتشافات الحديثة من اختراعات وعلوم وفلسفة ، قد يحاول أن يغوص في أعماق المعتقدات الدينية الماورائية ، عسى أن يجد فيها الخلاص من دوامة القلق التي يدور في فلكها ، فلا أقل من أن يستمد معرفته ، ليتمكن من سلوك طريقه العرفاني الذي يقوده الى السعادة والهناء في العالم الروحاني المؤثر في عالمنا المادي الزائل ٠ وللمعرفة دورها الفعال في تقدير قيمة الانسان ، واحترام مشاعره البناءة ،

وعقله الناهد الى الوصول الى جوهر الحقيقة ، والارتقاء بذاته الفاعلة الى الكل الذي انبثق منه ٠

والتطور نحو الأسمى والأكمل مرتبط بقوة الايمان ومعرفة النفس التي تقود الى معرفة الله ، والعمل بموجب ارشاداته وتعاليمه الخيرة الكفيلة بنجاح الحياة ذاتها ٠

في كتاب السيدة باسمة كيال آراء وأفكار قيمة تساعد القارىء على فهم بعض المرتكزات الفلسفية المتعلقة ببدء الخليقة وتطور الجنس البشري ، يستحق الدراسة بدقة وتأمل لاعتماده على آراء كثيرة ومتنوعة حملت في طياتها العديد من المعتقدات لدى كافة الفرق ، والمذاهب ، والأديان ٠

بيروت ١٩٧٩/١٢/٢٠

الدكتور مصطفى غالب

مقدمة

قصتي مع الروح قصة ، تمتد في جذورها الى اليوم الذي عرفت به نفسي بعد أن انجرفت في تيار الالحاد وغصت في الأوحال حتى قمة رأسي ، لسنوات عديدة كنت خلالها واقعة تحت سيطرة عوامل عديدة تنطلق برمتها من انفعالات جسدية دنيوية لا تمت بأية صلة الى واقعي الروحاني ٠

فالروح هذه الجوهرة الحقانية الخالدة قد عرفتها ، وسبرت أعماقها بعد أن تأكدت أن الجسد ليس سوى قميصا ممزقا يجب طرحه وابعاده لتحلق الروح متفاعلة مع عالمها الأبدي ٠ وطالما أن تلك الجوهرة السماوية تتحكم بكافة انفعالاتنا واستجاباتنا الجسدية ، فلماذا لا نحاول بقدر ما يهبنا الباري سبحانه وتعالى من تأييد علوي ، وقوى فاعلة ، البحث بدقة وتروي عن ماهية تلك الجوهرة في ضوء امكاناتنا العقلية ، وتجاربنا الروحية الناهدة الى الكمال والمثالية ؟

فالنفس عندما تدخل في الجسد المخصص لها بأمر الكل الذي انبثقت منه ، تكون كالورقة البيضاء المعدة للكتابة لم يكتب في

حناياها أي سطر ، لذلك لا بد لنا ما دمنا على استعداد لتلقي الافادة والتعليم ، من قبول الافادة عن طريق معلم عارف لنستطيع نقل أنفسنا من حد القيام بالقوة الى حد القيام بالفعل ، حيث نبلغ الكمال والمثالية ، ونقلع عن كل ما يسود معالم تلك الورقة بالشهوات الدنيوية ، والافعال السيئة التي تجعلنا دائما وأبدا ندور في دوامة من الخوف والقلق وعدم الاستقرار ·

وما دامت الحالة على ما هي عليه من عدم الاستقرار لا بد لنا من البحث عن الدلالات الواجب اتباعها لنلقي ضوء مشع على المسالك الروحية الواجب اتباعها في الآفاق والأنفس · والغرض المقصود اليه فيها ، والمطلوب منها ، هو سبر المعاني الكامنة خلف الايمان بالحقيقة ، والتسليم بقول أصحاب التأييد عن الله ، كما قال سبحانه « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » وليست المعرفة الروحانية سوى فائدة علوية ، ودرجة ايمانية ، والهام ابداعي يتسلل بخفة الى النفس العارفة لينور منطلقاتها العقلانية ، ويصهرها في بوتقة اليقين الكامل الذي لا يتزعزع ، وبدافع وجداني ينطلق من الاعماق ، تسيطر على النفس انفعالات الصفاء ، وتجنب الخيانة ، واداء الأمانة ، والبعد عن المعصية ، وقول الحق ولزوم الصدق ، ومعرفة الله حق معرفته ، وطاعته ، وعبادته ، والتقرب اليه بما يرضيه من الاعمال الزكية ، والاخلاق الرضية ، والآراء الحميدة ، والاعتقادات الجيدة ·

ومعرفة القضايا الماورائية ، والرموزات الحكمية ، المكمنة للأمور الظاهرة ، ليست سوى موضوعات تنبعث من أعماق

حقائق موجبات الحكمة الالهية ، والقدرة الابداعية ، لا بد لنا من الاعتماد عليها ، وسبر أعماقها لنتوصل الى معرفتها بأوضح دلالة ، وأعمق عبارة ، مبرهنين عن شوقنا العنيف الى ما يطرق وجداننا ، وينبعث في ضمائرنا ، من صلاح يجب أن ينبعث في عقولنا ، لنعرف ذواتنا ، وما في هذه الذات من علوم ومعارف ، كلها خير وجود علوي سرمدي يمدنـا الله بـه لنواصل سيرنا التصاعدي في طريق الحق ٠ وبعد أن عرفت ذاتي ، وأدركت ماهية هذا الكائن العاقل الذي يتفاعل في وجداني وضميري ، قررت أن أهب جسدي ونفسي الى العلم والمعرفة والايمان بالمبدع الحق الذي أبدعنا وصورنـا لنكون عناصر فاعلة في المجتمـع الانساني ، نعطيه ما يستحقه من خير ، ونبعده بقدر الامكان عن الشرور ، والظلم ، والاضطهاد ، مدفوعين الى ذلك بوجدان نقي نكيفه حسب صلتنا الوثيقة بالله وباخوتنا في الانسانية ٠ وما دمنا نفكر بما يحيط بنا من موجودات علوية وسفلية ، لا بد لنا من التقصي بروية واتزان عن العلل والاسباب التي تبعث في أعماقنا الاطمئنان والاقتناع بأن لكل موجود من هذه الموجودات علة فاعلة كانت السبب في وجوده وترتيبه وتنظيمه بهذه الدقة المتناهية ٠

ومتى وفقنا الى معرفة العلة الأولى وجدنا الطريق الى تغيير اتجاهنا العقلي ، وتفكيرنا المنطقي ، ونجونا من الكثير ممـا نعانيه من متاعب وويلات ، تجعلنا على الدوام نتخبط في أتون المادية والالحاد ، وتقودنا الى التردي في هاوية الجمود الفكري ، والبوار العقلي ٠

ولعل اختياري لهذا الموضوع الشائك الخطر يوفر لي الربط

بين حقائق العقلانيات ، وحقائق العلوم الأخرى ، ويضيء لنا الجوانب الخفية من جوهر المعرفة الروحية التي لا غنى للانسان عنها لتتكون لديه فكرة الاقتناع الكامل السليم ، الذي يؤهله للصعود الوجداني حيث سيتبوأ المكان اللائق به في خضم المسالك التوحيدية والتجريدية •

والنتيجة التي خرجت منها من خلال بحوثي في اطار الروح قد أوصلتني الى أن الانسان هذا الكائن الحي الذي ملأ الدنيا وشغل العالم باكتشافاته واختراعاته وابتكاراته التي فاقت حد التصور ، ليس سوى روح تشع بأنوارها القدسية ، وملكاتها العقلانية على الكون فتضيء معالمه ، وتنور ظلماته ، خارقة بفاعليتها وقدرتها جميع السجف والأستار • أما الجسد الترابي فليس سوى رداء بال تحبس فيه الروح الى فترة معينة قدرها الله ، فلا يجوز لنا والحالة هذه أن نسمي الشخص بالرداء الذي يرتديه ولو كان هذا الرداء من أفخر الأنواع ، وكيف يكون موقفنا وهذا الرداء من التراب ؟

ونحن ننكر أن القول بأن الانسان روح لا جسد ، لا جسد له روح ، أقرب الى الحقيقة والواقع ، لأن الروح هي التي تكوّن الطابع العقلي والوجداني للشخصية الانسانية ، كونها صانعة الجسد وجوهره ، كما هي صانعة مصيرها في حدود نواميس الوجود •

ولما كنت قد اقتنعت عقليا معتمدة على الأدلة والبراهين بأن الروح ليست من نفس المعدن الذي تركب منه الجسد المادي المعرض للفناء والبوار بعد مفارقة الروح ، فقد صممت على

الغوص في أعماق هذه الجوهرة السماويـة لدراسـة معالمها ، ومعرفة صلتها بالحقائق العرفانية الثابتة التي عالجها العلماء الربانيون والحكماء الحقانيون ، وأكدوا بأن على الانسان أن يتطلع بشوق ونهم الى الروح الكلية والعلة الأولى التي كانت السبب في وجود الأرواح الجزئية التي انبثقت منها نتيجة الخطأ أو السهو الذي ارتكب في العالم الروحاني ٠

وفي اعتقادي أن الروح اذا كانت خيرة مؤمنة عارفة غير قابلة للفناء كما يفنى الجسد الذي ارتبط فيها لفترة ما حسب ارادة الباري سبحانه وتعالى ، وليس اعتقادي هذا مبني على التسليم بصحة الخلود فقط ، انما يعتمد على أسمى ما يربط الانسان بربه و بوجدانه و بعقله ، و بفهمه لهذه الأمور نتيجة دراسة عميقة هادئة مرتبطة بين حقائق الخلود والعقل والاعتقاد ، و بين حقائق العلوم الماورائية التي تكشف عن دقائق العلوم الكونية ٠

ولعل الوصول الى جوهر العلوم الماورائية ، ومعرفة ظواهرها ودلالاتها ، يصور لنا الاطار الحقاني الموضوعي النفسي من شوائب الجمود والتعصب ، بل النقي من كل ما يشين تقدير فاعلية المبدع الحق الذي أوجد هذه العوالم العلوية والسفلية بقدرته الخارقة العجيبة ٠

ومن حق العقل الحكيم اذا ما حاول التردد في الاقتناع أن يبحث وينقب عن أسانيده في بحوث جادة مثابرة ، وأن يدقق في مدى صلة نتائج هذه البحوث بحقائق الآراء الماورائية التي يبحث عنها لحقيقة جوهرية مرتبطة بالانسان وسعادته أو شقائه وعذابه ٠

واذا كانت أزلية الوجود من المعطيات الحكمية الفلسفية ، حتى ولو كانت مرتبطة بالأمور المادية على نحو ما ، فان أزلية الروح الانسانية ليست على نفس الدرجة من الثبوت ومن الوضوح • فالشخصية الانسانية غير الذات الانسانية من ناحية أن الشخصية خاضعة لناموس التطور • فهي تتطور يوما بعد يوم ، وفي التطور فناؤها وبقاؤها معا • فهي تفنى عن طريق التطور عندما تتخلى تدريجيا عن بعض أوجه ضعفها وقصورها، وتكتسب تدريجيا ملكات وفضائل متجددة على الدوام اذا عرفت كيف تستخدم حريتها في الاختيار ، وكيف تشق طريقها في الاتجاه الصحيح للتطور ، وهو اتجاه نحو انكار الذات • وهذا الاتجاه في التطور نحو الأحسن والأكمل هو الذي يكفل للذات بقاءها • وهو الذي يتحقق عن طريق حياة المادة كما يتحقق أيضا بعد التخلي عن المادة بعد الموت ، وهي في حقيقتها تحول الحياة من صيغة معينة الى صيغة أخرى أرق منها وأرقى • وهذا التحول هو الذي نسميه الخلود • ولا يتأتى الاقتناع بالخلود عن طريق الايمان المطلق فحسب بل عن طريق التجريب والاطلاع ومعرفة حقائق ما يتفاعل في أعماق العقل الانساني • ومما لا شك فيه أن كلمة خلود تعني الأزلية والسرمد ، والابتعاد تماما عن المكان والزمان ، والارتقاء بالنفس الى عالمها العلوي لتستحم في خضم الحياة الروحية الأزلية ، التي تمدها بالتأييد وتنقلها من الكثافة الى اللطافة ، حيث المثالية والكمال المطلق • ومن الملاحظ أن الاعتقاد بسرمدية الروح ليس من الأمور المحدثة ، بل هو قديم قدم الانسان ، الذي تصارعت أفكاره منذ وجوده ناهدة الى الكشف عن ما يحيط به من وجود وموجودات

علوية وسفلية ، تارة عن طريق الاعتقاد ، والتقليد ، وأخرى عن طريق الالهام والفلسفة والتحليل • لكن قلما كان وصوله اليها عن طريق البحث الخاضع لاسلوب النقد والاستنتاج الذي يتعلق بالأشياء المادية وما وراء المادة •

ولقد اعتمدت في تأليف هذا الكتاب الروحاني على جميع الآراء والافكار التي عالجت بدء الخليقة والتكوين النوعي لأبناء البشرية ، وحاولت بقدر الطاقة أن أناقش بعض الآراء التي لا تتفق مع عقيدتي الواضحة الصريحة بوجود الخالق الصانع الذي كوّن هذا الكون الفسيح بما فيه من مخلوقات وكواكب وأفلاك •

وكان من الطبيعي أن أعتمد على آراء الحكماء والفلاسفة الذين عالجوا في مصنفاتهم القضايا الماورائية على أسس فلسفية عميقة منبثقة من الكتب السماوية والآراء العقلانية التي أطلقها الرسل والأنبياء،ضاربة بعرض الحائط ببعض الأفكار الفلسفية الالحادية كونها لا تنسجم مع مذهبي وعقيدتي الاسلامية الخالصة في الأمور الماورائية •

ومما دعاني الى التأمل والحذر الشديد شعوري بأن بعض المتزمتون الذين ينبروا في كل مناسبة للدفاع عن القضايا الماورائية باسم الغيرة على الدين ، بدون أن يفكروا بأن أمثال هذه البحوث هي التي تنور الأذهان ، وتقوي دعائم الايمان المطلق بوجود خالق له الفضل الاول والاخير على كافة المخلوقات التي أبدعها وكونها بقدرته الخارقة • واذا كنت قد أخذت بآراء بعض الفلاسفة والحكماء من جماعة أهل الحق ، لكون أفكارهم

العقلانية تنسجم مع واقع الايمان والحقيقة ، وفي ضوء شعاعها العرفاني يمكننا أن نصل الى الطريق القويم ، الموصل الى الباري سبحانه وتعالى ، وأن ننقل أنفسنا القائمة بالقوة الى القيام بالفعل ، حيث السعادة والهناء والخلود في جنات الله الواسعة ٠

ولا يسعني في هذه المناسبة الا أن أقدم جزيل الشكر والامتنان لفضيلة الدكتور مصطفى غالب معلمي ومفيدي ومنور طريقي الحقاني ، جزاه الله عني كل خير ، وسدد خطاه لما فيه الخير والفلاح ، وأضيف شكرا خاصا للأستاذ أحمد مغنية صاحب « دار الهلال » لما يقدمه من خدمات أدبية وعلمية لرفع المستوى الفكري في البلاد العربية والاسلامية ٠

بيروت في ١٠/١/١٩٨٠

باسمة كيال

ماهية الروح والجسد

منذ البدء •• ومنذ وجود الانسان الأول على ظهر البسيطة تتصارع أفكاره وتتكوكب معارفه ناهدة الى كشف ما يحيط به من وجود وموجودات علوية وسفلية تشمخ بخيلاء ، وتضفي على الكون آية من الروعة والجمال •

أقول : منذ البدء يبحث الانسان بشوق ونهم عن الحقائق الكونية لمعرفة الأسرار والخفايا الكامنة وراء الأمور الغامضة ، والمشاكل المبهمة لاشباع غريـزة التساؤل ، وحب المعرفة ، والطموح الفكري ، على ضرورة وجود مبدع عظيم ، ومنظم كبير ، قد أبدع بقدرته السامية كل ما يحيط بالانسان مـن مصنوعات توفر له السعادة والرخاء والعيش الكريم في أجواء تعبق بالايمان الذي يقرب نفسه ووجوده من المبدع المصور ، والموجد لموجوداته الذي عجز العقل البشري عن ادراك ماهية انفعالاتها ، وتفاعلاتها مع بعضها البعض • ولم يخفف مـن غلوائه مجهول مطلسم ، أو لغز مسحور ، فكان شعاره أن يحترق في ذاته ليستمد منها وقودا أزليا يدفع به صعدا الى الأعلى ،

فيتمثل الامثل من خلال الممثول ، ويتجسد المعنى من خلال التبصر بالشكل !!

اذا لا بد لهذا الانسان مهما بلغ من التقدم والرقي من الاعتراف بفضل هذا المبدع والمصور عليه ، كونه علة لوجوده ، ومسببا لرقيه وشموخه، يتطلع دائما وأبدا نحو موجده ومبدعه · أخذ العقل منذ ذاك ، يفلسف ويناقش ، عندها كان على الانسان أن يتمثل خلقا جديدا ! ولن يكون هذا الاعتراف بمفهومي كانسانة يتفاعل في أعماقها الايمان المنقطع النظير بوجود الخالق المبدع التي تدل عليه موجوداته ومبدعاته ، تلك المبدعات والموجودات التي يقف الانسان عاجزا عن ادراك ماهيتها وعللها ومعلولاتها ··· لقد أدركت ادراكا حقانيا أن مفتاح الكنوز المرصودة ، وسفينة المعرفة الحقة ، هي النفوس الانسانية عندما تلتقي بالضياء العقلي ، والنور السرمدي ، مما تستلهمه في كل أمورها ، وتعبد له الانسان في شغف ووله شديدين ، وتجاوزت تطلعاته الأسباب الى المسببات ، وتخطى عقله المعلول الى العلة · وقاسى حربا مريرة لم تنته بعد ، وهو كلما أحرز انتصارا ، أو تقدم خطوة شعر بالحاجة الملحة الى المزيد ، الى حيث لا تنتهي الحياة · وتبقى الحرب مستمرة بين الانسان والحقيقة ، ويظل الانسان جنديا مغوارا لا يعرف التراجع ، وملاحا لا يعرف الهزيمة ·

وما عتم أن أخذ الانسان يمد نشاطاته عبر الأكوان والموجودات ، ويحكم ربط الحلقات بعضها مع بعض في سلسلة روحانية علمانية ، لتكون سلما لعقله المتوثب الطموح الى الماورائيات · فغاص في أعماق عالم النفس ، فتشعبت دروبه ،

وتعددت وسائله بتعدد احتياجاته ، فاذا الطرق عديدة كثيرة ، وتبقى الغاية واحـدة ، وهي الوصول الى جوهر الحقيقة • وهيهات أن تهب الحقيقة رأسها هدية على طبق من فضة !!•

ومع دوامة الفكر الوثـاب المتفاعل تشع شموس ، وتتلألأ كواكب ونجوم ، فمن كان اشعاعه اكتسابا غيبه الظلام الحالك ، ومن كان ذاتيا في أنواره طغت عليه الشموس الالهية السرمدية، ويبقى له فضل الاكتشاف والاقدام تطلعا الى العلا ؟ والشموس كثيرة ، بمقدوره أن يصير شمسا لا تغيب ، فمن أي هذه الشموس أنطلق يا ترى وقلبي يغمره الوميض الحقاني الناهد الى الكمال والسرمد ؟•

سر الانسان :

الانسان هذا الكائن العجيب الذي يجسد سرا خفيا من أعقد الأسرار المحيطة في الوجود والموجودات ، والتي تشغل تفكيرنا العقلاني منذ وجود الخليقة ، وقف وجوده وتفكيره على معرفة نفسه وما تنطوي عليه من انفعالات ذاتية ، يتطلع اليها بشغف عقله العامر بشتى صور الفكر والشعور والاستجابا تالعرفانية وما قد يحققه في حياته من شتى أنواع الفشل أو النجاح • فان هذا الانسان قد يفشل في حياته المادية ، ولكن قد يكون هذا الفشل الظاهر هو بعينه أروع صور النجاح الروحي وأدعاها للاعتزاز وللتقدير • وعلى العكس من ذلك قد ينجح في حياته المادية فيجمع الى السلطان الكثير والثراء الوفير ، ومع ذلك قد يكون هذا النجاح هو بعينه فشله الذريع في حياة الروح ، وفشل حياة الروح فيه • وهي حياة لا تأبه بسلطان ولا ثراء فيه •

ومع ذلك فلا ينبغي أن يفوتنا أن حكم الانسان على الانسان مشوب دائما بالقرائن المضللة · ولا شيء يفسد العقل في تقديره للناس أو للاعمال مثل القرائن ، أيا كان مصدرها · فكلها شراك تضلل الانسان في حكمه على نفسه وعلى الآخرين · بما في ذلك الانتماء الى أي جنس أو وطن أو أسرة أو دين ··· أو حتى الانتماء الى مؤهلات علمية معينة ! فمواهب الانسان وقدراته الحقيقية شيء أعمق بكثير من ذلك كله · ولذا كثيرا ما نجد الانسان القليل الحظ من التعليم أصدق تقديرا للأمور ممن قد نتصور أنه من أعلم العلماء ، أو من أذكى الأذكياء ، وعندها نعجز عن التعليل فنقول : بل هي الفطرة السلمية أساس كل تقدير سليم ، ولكن ما هي هذه الفطرة ؟ وكيف تجيء ؟ ولماذا قد تصيب عند الجاهل وتخيب عند العالم ؟ أليس في ذلك كله لغز ضخم يثير الانتباه ؟·

وأيا كان حكم هذا الانسان على نفسه ، أو حكم الناس عليه، وأيا كان موضعه من النجاح أو الفشل ، ومن نضج الفكرة أو سلامة الفطرة ، فان العلم عاجز في النهاية عجزا تاما عن أن يتفهم فهما صحيحا كيف جاء الى هذا الوجود ، وكيف نما ، وكيف يتطور ، ومن أين جاء ، والى أين يعود ، وكيف يفكر ، وكيف يتخبط في فكره وفي شعوره الى آخر الحدود ، ومع ذلك تحنو الطبيعة عليه حنوا عجيبا حينا وتقسو أحيانا ـ كيما يصبح في نهاية المطاف هو السيد الآمر فيها لا العبد المسود · فهل هذا الانسان ابن للبيئة أم للميراث ؟ ان أية دراسة موضوعية تكشف أنه ابن للبيئة وللميراث الى حد ما ، ولكنه قبل ذلك كله هو ابن للطبيعة الخالدة لأنه يخفي بين جوانحه تاريخا حافلا عريقا ،

ويبرز من بين خصائصه ألغازا لا عداد لها، وأحداثا رهيبة تعرض لها في ماضيه السحيق تركت آثار بصماتها في كل ملامحه ومقومات فكره وشعوره • وأن أي محلل نفساني مدقق يتحرى تاريخ أي انسان منذ ولادته يجد أن هذا التاريخ القصير لا يكاد يفسر شيئا على الاطلاق مما يلمسه فيه من مقومات الفكر أو الشعور التي فطر عليها هذا الانسان • وأن أي دارس لتاريخ الشخصيات التي « صنعت التاريخ » كما يقال أحيانا يأخذه العجب مما في الانسان من متناقضات قد تجمع بين العبقرية والتفاهة ، وبين الحكمة والحماقة ، وبين الحق والخرافة ، وبين المجد والهوان ، في وقت واحد في شخصية واحدة ، بحيث يمكن القول بأن أية شخصية قد صنع لها التاريخ كل شيء ، وما صنعت هي للتاريخ شيئا على الاطلاق ، وان بني البشر كلهم من صنع هذا التاريخ العريق الحافل بالأضداد ، والذي تعد محاولة استكشافه ضربا من المحال ، لأنه يمتد للوراء الى ما لا نهاية بحكم قانون ارتباط النتائج بأسبابها الأولى ارتباطا ليست له بداءة معرفة ولا نهاية ، هذا القانون العتيد الذي لا يفلت من سلطانه شيء في الوجود ، ولو كان عصفورا ، أو فراشة ، أو سمكة في قاع البحار ، أو ذرة من جماد لا تدركها الابصار • ووراء لغز الانسان يتخفى في مهارة بالغة عقله ، وهو مستودع الفكر فيه والشعور ، هذا العقل الذي عجز أي عقل أن يعرف كنهه ، أو يتصدى لفهمه ، لأن عقل الانسان أسمى منه بكثير ، وصنع بكيفية تتعالى بغير ما ريب عن مستوى ادراكه للأمور ، ولا عجب لأن هذا العقل هو جوهر الانسان ، أو هو الانسان الحقيقي المفكر ، الشاعر ، المؤمل ، الباحث في ألغاز الحياة ،

المتطلع الى امتدادها ، المعاني لمتاعبها ومخاوفها ، المقتحم لاهوالها الجسام ، وكأن كل المطلوب من الانسان في النهاية هو أن يعرف كيف يعيش الانسان في نطاق فكره المحدود محاولا أن يتسامى به عن عالم القيود والحدود الى عالم آخر أسمى منه عن طريق تحدي ما قد يكتنفه من أحراش وآجام ، وتجرع ما يحيط به آثام وآلام ٠

ومع ذلك يظهر هذا الانسان في الطبيعة كما لو كان هو وحده مستودع الفكر والشعور ، والحياة كلها ليست أكثر من فكر وشعور اذا ما عرفا كيف يتكاملان ويتجاوبان معا كانا علة هذا الوجود وأصل الحياة فيه ٠٠٠ فهل هذا الانسان أعظم من كل منابع الوجود الذي يحيط به ؟ وهل هذا الانسان نفسه الكائن التافه الذي يتعلق بالمادة في كل صورها الى أقصى حدود التعلق ، فلا تتعلق به المادة أبدا بل تنبذه نبذ النواة ، فينهار في طرفة عين أو في ومضة برق كما ينهار عصفور أو فراشة ، ويذهب هباء منثورا كما تذهب سائر أوهام الحياة وأحلامها ٠٠٠ ويقال فيه مات رحمه الله ٠٠٠ ولم تبق منه الا ذكرى الأوهام التي عاش فيها والاحلام التي عاشت فيه !٠٠٠

أم هذا الانسان هو على النقيض من ذلك روحه الخالدة المتطورة التي تسمو على المادة ، وتتأبى عليها راضية أو مكرهة، فلا تبدو المادة الا وهما من أوهامها وطيفا عابرا بين أطياف أحلامها ؟!

ومع ذلك فهي تتعلق بالمادة — في شتى صورها — كل التعلق حتى الموت ، ومع انها في غنى عنها في أية صورة من صورها

بسبب هذا الموت نفسه !! وهذه هي الروح التي يقول الروحيون أنها حية خالدة ، بل هي أم الحياة وبنت الخلود ، وانها هي التي تنتقل بفكر الانسان وشعوره عبر الفضاء من حياة الى حياة ، وعبر الموت من فناء الى فناء ، كأن الكون كله ملك يمينه ما شاءت له ارادة الله في التردد بين الأرض والسماء ، وبين الحياة الدافقة وما قد يبدو لنا كأنه النهاية والفناء !!

وهذا الانسان لا يعرفه علم الروح ملاكا ولا شيطانا ، بل مجرد قلب له بعض مشاعر الانسان النبيلة ، وله في نفس الوقت كل نزواته . بل قد يكون أقرب الى الوصولي النزق الذي امتلأت مشاعره آثاما ، ومع ذلك فان علم الروح يتقبله على علاته ، وعن فهم مستنير لطبيعة الضعف في الانسان ، ناظرا اليه نظرة الطبيب المتفاني الى المريض المعاني يريد أن يتحسس مواطن الداء حتى يحسن وصف الدواء . فهو يريد أن يداوي في حنان لا يعاقب في ضغينة ، كما يريد أن يأخذ بيد كل نفس قلقة الى حيث ترتاح تدريجيا من أسباب القلق المدمر والشقاء .

وهذه النفس القلقة ، المثقلة بالنزوات والاخطاء ، هي نفس كل انسان ! فهي تنتمي الى كل جنس ولون ، والى كل مذهب ودين ، والى كل عصر وجيل ، والى كل مستوى في الفكر والشعور ، ومع ذلك يتقبلها علم الروح على علاتها ، بلا ادعاء ، لأنه يتقبلها أملا في معونة يقدمها بسخاء لا جريا وراء دينونة يدينهـا في غباء ... وهذا هو شأن المحبة العظمى التي يتمناها كل زوجي أصيل ناموسا للحياة بين بني البشر أجمعين ، وادعين ومتحابين . ولكن الفرد في النهاية هو موضع عناية كل قانون طبيعي ، وعن

طريق الحفاظ على الجزء ، تحافظ الطبيعة على الكل ، وتنميه وترعاه •

علة وجود الانسان ـ والتولد الذاتي :

اذا ما أردنا أن نبحث في علة وجود الانسان هذا الكائن الحي لا بد لنا من تقصي علل كافة المخلوقات المحيطة به ومعلولاتها ، باعتبار أن معرفة العلل والمعلولات من أصعب العلوم العرفانية التي لا يصل اليها الانسان ، ولا يضطلع عليهـا الا اذا كان مرتاضا بالعلوم الالهية ، والحكمة الربانية ، المأخوذة عن الحكماء الالهيين ، وخلفاء الأنبياء ، والمرسلين تقليـدا ، وايمـانا ، وتسليما •

وقبل أن نستعرض كافة الآراء العلمية والدينية ،والعرفانية المتعلقة بهذا الموضوع نرى من واجبنا أن نقدم بعض الآراء التي قالها الماديون حول التولد الذاتي نقتبسها من مقدمـة الدكتور اسماعيل مظهر الذي عقدها في ترجمته لكتاب أصل الأنواع « لداروين » (١) قال : « بأن الحياة هي الحياة » بأقل مما ملأوا به بطون المجلدات من بحث صناعات مقدماتـه في نتائجه ، وضاعت نتائجه ازاء هذه الحقيقة الغامضة ! قالوا منشؤها الماء ثم الهواء ، ومن غاب عنهم أنها نشأت من التراب ، فقالوا أصل الحياة من التراب وتدرجوا الى القول بأنها نتيجة اختلاط العناصر : وأي عناصر تلك التي تبدع الحياة ؟ لا جرم تكون سرا أبعد عن متناول العقل من الحياة ذاتها • قالوا بالتولد

(١) تشارلز داروين : اصل الانواع ص ٢٦ •

الذاتي ، ولم يثبتوه بتجربة ، اللهم الا فروضا ما أنزل الله بها من سلطان • وما زالت هذه الفكرة تنتقل من جيل الى جيل حتى أراد « وليم طمسن » أن يخرج بالعالم من ظلمات الجهل ، فقال بأن الحياة هبطت الى الارض من السماء ، حملتها النيازك والشهب ، ومن ثم تكاثرت فيها • خرج بنا اذ ذاك من ظلمات جهل بسيط الى حلكة جهل وتركيب ، لأن الحياة سواء أنشأت في السماء أم في الارض ، فذلك لا يوصلنا الى معرفة أصلها ونشأتها • تلك شاكلة البحث في أصل الحياة • والظن الغالب أن الفكر الانساني سيقف عند هذا الحد بن البحث أجيالا طوالا •

أمعن كثيرا من العلماء في القول بالتولد الذاتي ، وعقد للأستاذين « شيفر وباستيان » لواء الزعامة عليهم حتى قالوا بأن الانسان اذا استطاع أن يبرهن على التولد الذاتي في الاجسام التي لا حياة فيها تيسر له أن يبرهن عليه في الاجسام الحية ، ولبثوا على قولهم حينا من الدهر حتى قام « روسبل وولاس » وهو من زعماء النشوء والارتقاء ، ونقض لهم ذلك الرأي اذ قال بأن نواة الخلية الحية ليست شيئا كيمويا عويص التركيب ، ومن المستطاع تركيبها ثانية اذا حللت ، ولكنها لا تكون نراة حية ، اذ تكون قد فقدت بين التحليل والتركيب ، سرا هو سرالحياة • فما هو ذلك السر ؟ لا جرم أن الانسان سائر من طريق العلم الى الاعتراف بالعجز • فكلما كشف لنا عن سر من أسرا هذا الكون الفسيح وجده محوطا بكثير من الاسرار الأخر التي يعجز الفكر الانساني أزمانا طوالا دون معرفة كنهها ، وتدرج الانسانية في كشف المغمضات حتى تنتهي الى حد تتكاثف عنده ظلمات تلك الأسرار ، واذ ذاك يقف الفكر معترفا بالعجز ••

و « التوالد الذاتي » رأي ظهر في أواسط القرن الماضي نتيجة لسلسلة بحوث منظومة قام بها فحول من العلماء في القرن الثامن عشر ، أو « قرن المادية » كما يقولون • وقد يتبادر الى أذهان الناس أن التولد الذاتي لزام للنشوء والارتقاء متابعة لرأي بعض الكاتبين ! ولكن الحقيقة على نقيض ذلك ـ فان التطور لا يبحث الا فيما بعد أصل الحياة من ذلك نشوء بعض الصور من بعض على مر الزمان ، وبتأثير نواميس طبيعية قد نعرف بعضها وقد يغيب عنا البعض الآخر • أما القول بالتولد الذاتي فقد أتى من رأي شاع في القرن الثامن عشر هو القول بقدم العالم • واليك لمحة من ذلك نتابع بعدها البحث في أصل الحياة •

القول بقدم العالم تدرج الباحثون منه الى انكار علة أولى واجبة الوجود بذاتها • ولأجل أن يؤيدوا مذهبهم أرادوا أن يطبقوه على عالم الحياة فقالوا بالتولد الذاتي اعتباطا ، ولا نقطع بأن التولد الذاتي قد يظل طوال الدهور رأيا غير مثبت ، اذ من الجائز أن يكون رأيا صريحا ، تغيب عنا في الزمان الحاضر مهيئات اثباته ، ولكن ما يحقق لنا القطع به هو أن اثبات التولد الذاتي أو تغيبه لا يترتب عليه مطلقا القول بانكار « علة أولى » لأننا لو فرضنا أن الحياة قد نشأت من اختلاط بعض العناصر الأولية مقرونـــة بمهيئات أخر ، فذلك لا يستوجب نفي تلك القوة المدبرة التي استطاعت بوساطتها تلك العناصر من الدوران في سلسلة من التغييرات والتطورات حتى بلغت حدا عنده ، انبتت فيها الحياة ، تلك السلسلة الدورية التي لا يمكن ايضاحها بأية طريقة كيموية أو آلية •• ولنأت الآن على بعض الاخطاء التي تدرج فيها العقل البشري الى القول بقدم العالم وانكار العلة

الأولى · وكان « لا فوازييه » أول من نبه الأفكار الى البحث في خصائص المادة اذ صرح باعتقاده في قدمها سنة ١٧٨٩ متبعا في ذلك من سبقه من قدماء ومحدثين ، وكان رأيه أن المادة التي تملأ هذا الكون غير قابلة للتغير ــ رأي صريح لا سبيل الى التورط الى الشك أو التريب فيه بحال وسواء أكانت المادة التي نحسها بحواسنا مادة مركبة من جواهر فردة ، أم كانت قوة تشكلت في جواهر فردة تكونت من تيارات كهربائيـة متعددة يدعونهـا « الكترونات » على رأي الباحثين في أوائل هذا القرن ، فذلك لا ينافي القول ببقـاء الكميـة المحددة في العـالم على كلتـا الحالتين ··· تبع ذلك القول بأن الأجسام لا تتغير الا بالصورة ، لأن انحلال جسم الى سائل أو كلاهما الى غاز ، اذا طرأ عليه تغيير في حال من هذه الحالات الى غيرها بتأثير السنن الطبيعية فذلك التغاير لا ينقص من كمها شيئا ، ولا يلحق الا صورتها دون جوهرها ، ولا يدل من جهة أخرى على خلقها من العـدم المطلق ، ثم قال بأن هذه السنة ذاتها هي علة التكوين ، كما أنها علة التحليل ، فهو في ذلك على رأي كثير من القدماء القائلين بأن المادة قديمة بالنوع ، حادثة بالصورة · لأن تغيير المركبات ليس دليلا على حدوث التغيير في الجوهر ذاته بالفعل ، وان لحق التغيير الشكل الظاهر · فتغير قطعة الفحم عند احتراقها ليس الا تحولا الى موادها الأصلية التي منها تكونت ، لأن مادة الكربون التي يتكون منها الفحم ، اذ تمتزج بأوكسجين الهواء ، لا يقوم تحليلها أو تمازجها دليـلا على تغيير أو ازدياد كميتهـا أو نقصانها ··· نشط الباحثون بعد ذلك الى الفحص عن أمر القوة ، فأبانوا أن مقدار القوة التي تحدث الظواهر الطبيعية

محدودة ، وكما أن المركبات في المادة قـد تستحيل بالتركيب والتحليل الى عدة صور بعضها يباين بعض ، كذلك القوى بعضها يستحيل الى بعض • فالحرارة مثلا قد تستحيل الى قوة جرمية أي خاصة بحركة الأجرام • وهذه تستحيل الى ضوء أو صوت ، ومن ثم تتحول الى كهرباء •

من هنا تدرج الباحثون الى اثبات بقاء القوة وقدمها وعدم تغيير مقدارها : فاستبان أن مقدار الكهرباء التي تتولد من قوة من القوى ، تكون مناسبة دائما لمقدار تلك القوة ـ وكان « روبير ماير » أول من كشف عن هذه الحقيقة سنة ١٨٤٢ ومن ثم طبقها « هيرمان هلهولتز » وهو من أكبر الباحثين في علـم وظائف الاعضاء سنة ١٨٤٧ ، على كل فرع من فروع العلوم الطبيعية التي كانت ذائعة لذلك العهد ، ومن ثم حاول فلاسفة القرن التاسع عشر تطبيقها على حالات الحياة ، ليتدرجوا منها الى القول بأن الحياة « قوة » أو مجموع قوى تؤثر في المـادة الصامتة تأثير بقية القوى الأخرى ، لينفوا القول بأن الحياة قوة من وراء الطبيعة ، أو أن لها علة مدبرة صدرت عنها • والعلاّمة « ارنست هيكل » على هذا الاعتقاد ، فهو مقتنع تمام الاقتناع بما للقول بارتباط المبدأين من الشأن والخطر • وهو على ما يقول به الكيمويون من أن بحوث « لا فوازييه » في قدم المادة وأزليتها ، قد أصبحت العمدة في علم الكيمياء الحديث • وكان « سبينوزا » يقطع بهذا المبدأ عينه • فهو القائل بأن كل الموجودات التي تقع عليها حواسنا ، وكل الصور المادية التي نراها ، تطورات طبيعية تتطورها المادة بتأثير القوة المنبثة فيها• كذلك الكيفيات التي تتكيف بها الموجودات ، ليست في الحقيقة

الا صورا مادية باعتبارها ذات حجم تشغل من الفراغ مكانا ، وأنها ليست من خصائص الموجودات ذاتها • من هنا يتعين القول أيضا بأن القوة المتحركـة والقابليـة ، مبدآن طبيعيان غير منفصلين ، وأنهما والمادة صنوان لا يفترقان ، فاذا سألتهم عن ماهية تلك القابلية وحقيقة ذلك الاستعداد ، أو عن القوة التي بثتها في الطبيعة بنسب متكافئة لا يسودها الخلل ولا ينالهـا الضلال ، كأن للطبيعة عينا تنظر بها ، أعادوا على سمعك قولهم بتحوير في الألفاظ وبعد عن الحقيقة ، لئلا يتورطوا الى القول بأن هناك قوة ترجع اليها كل القوى ــ تلك هي العلة الأولى •

لقد اختلفت المذاهب وتباينت المبادىء وطرأت على هذا المبدأ تغايرات شتى في أواخر القرن الماضي ، كانت مثـارا للمناقشات العلمية الحارة التي لم ير تاريخ العلم أمثالها الا قليلا ، وما نشأت بين الماديين والعليين ــ الذين يقولون بعلة أولى ــ الا لأن الفئة الأولى قد أنكرت تلك القوة التي تعود اليها كل القوى ، رغم اتفاقهم حينذاك على أن لكل من القوى المفردة خصائص تنفرد بها ، كالجاذبيـة وقوتي الجذب والدفـع ، والكهرباء والحرارة والضوء ، وما اليها من القوى الأخرى ، وان هذه ليست الا كيفيات تتكيف بها قوى أصلية ، وعلى هذه القوة الاصلية التي لم يعرف لها الماديون أصلا ، ويدعوهـا العليون العلة الأولى ، قام الاختلاف بينهم قبيل أواخر القرن التاسع عشر ، واشتد بهم الحرج ، وضاق الباحثون بما وسعت معارفهم ذرعا •••

قالت الفئة الأولى بأن هذه القوة الأصلية هي حركة الجواهر الفردة في الفضاء حركة مستمرة بشكل خاص • ومن هنا كانت

الجواهر الفردة ذاتها ليست الا ذرات صغارا من المادة تتحرك في الفضاء حركة زوبعية في مكان معين وعلى بعد معلوم ، وكان أول من قال بهذا الرأي الفيلسوف الأشهر « اسحاق نيوتن » مستكشف قانون الجاذبية ، فقد ذكر في كتابه (الفلسفة الطبيعية والمبادىء الرياضية) سنة ١٦٨٧ أن الجاذبية العامة التي تتجاذب بها الاجسام هي التي تتسلط على جاذبية الثقل دائما ، وأن مقدار الجاذبية التي تكون بين دقيقتين من دقائق المادة هي بنسبة جرميها ، وبعكس نسبة مرجع البعد بينهما • رغم كل ما وصفه هذا الفيلسوف الكبير من المبادىء القيمة ، وما المبادىء القيمة ، وما أيدها به من البراهين الدامغة ، لم يأت عمله تاما • فان كل ما أتى به « نيوتن » من المبادىء لم يوضح لنا خصائص هـذه القوى ، ولا مصادرها ولا أوصافها ، وان كانت قد أوضحت لنا مقدار نتائجها ، ومبلغ تأثيراتها ••• وظلت هذه الآراء متنقلة من جيل الى جيل ، وسيظل الرأي على خلاف بين هاتين الفئتين أجيالا عديدة لا نقدرها ، رغم ما أتى به « كارل فوغت » سنة ١٨٩١ من الآراء ، وما تقلبت فيه الافكار منذ ذلك الحين حتى هذا الزمان •

وينحصر الرأي في أصل الحياة الآن في ثلاثة آراء كبرى أولها : ما وصفه « أغاسيز » في كتابه (تصنيف العضويات) سنة ١٨٥٨ اذ قال بأن محل نوع من الأنواع خلق بفعل خاص من أفعال القوة الخالقة • وكان العلامة « باستور » مستكشف جراثيم الأمراض ، على ذلك الرأي ، وقر رأيهم على « أن كل حي لا بد أن يتولد من حي مثله » وثانيهما : ما وصفه « هيرمان آبيرهارد ريختر » قال بأن الفراغ الذي نراه مملوءا بجراثيم الصـور

الحية ، كالجواهر الفردة التي تتكون منها المادة الصماء ، كلاهما في تجدد مستمر ولا يتولاهما العدم • وبنى قاعدته في أصل الحياة على « أن كل حي أبدي ولا يتولد الا من خلية » •

وثالثهما : رأي القائلين بالتولد الذاتي ــ الذي يقول به الدكتور « باستيان » في انكلترا ، والاستاذ « هيكل » في المانيا ، ولقد خص الاستاذ « هيكل » القول بالتولد الذاتي في سبع مسائل نوردها اتماما لفائدة البحث قال :

أولا : الحياة العضوية محصورة في المادة الحية الأولى : أي البروتو بلازم وهي تركيب كيماوي غرواني ، الزلال والماء أكبر العناصر التي تتركب منها شأنا •

ثانيا : حركات هذه المادة الحية التي نطلق عليها اسم « الحياة العضوية » طبيعية كيموية صرفة لا أثر لقوى أخرى فيها ، ولا وجود لها الا في حيز محدود الحرارة ينحصر بين حدي الجليد والغليان •

ثالثا : اذا فاقت درجة الحرارة هذين الحدين ، فقد تبقى الصور العضوية حافظة لحياتها الطبيعية واذ ذلك تسمى حياتها ، « الحياة الكامنة » أو « الحياة بالقوة » ولكنها لا تستطيع البقاء على ذلك زمانا طويلا •

رابعا : اذا كانت الارض كبقية الاجرام الأخرى قد انفصلت عن الشمس ولبثت في حالة الانصهار أزمانا طويلة محتفظة بدرجة من الحرارة تعد درجاتها بالآلاف ، فان المادة الحية ــ البروتو بلازم ــ لا يمكن أن تكون قد لبثت كل هذه العصور

محتفظة بصورتها ، فالحياة اذن ليست أزلية كما هـو الرأي السائد ٠

خامسا : المادة الزلالية التي تولدت منها الحياة لم تحدث في الأرض الا بعد أن نزلت حرارتها عن درجة الغليان ٠

سادسا : التراكيب الكيموية التي تكونت منها المادة الزلالية التي حدثت منها الحياة ، تدرجت في النشوء والتركيب بحسب الحالة التي كانت الارض عليها خلال الازمان الأولى ، حتى بلغت مرتبة البروتو بلازم ٠

سابعا : « الموتيرة » أول العضويات الحية تكوينا ، فكانت مختلطة الصور والتركيب ، ومن ثم أخذت بالارتقاء ٠

هذا هو مثال الرأي المادي ، والقائلون بعلة أولى ، يقولون بأن بذرة الحياة الأولى لا تتكون من تلك العناصر الصماء ، والماديون القائلون بالتولد الذاتي لم يثبتوه بتجربة تحقـق نظريتهم ٠

داروين وأصل الأنواع :

من المفروض قبل أن نقدم بعض الآراء الدينية والحقانية المتعلقة بالنشوء ، نرى لزاما علينا وحتى يكون البحث مستفيضا كاملا من كافة جوانبه أن نتعرض لأفكار داروين الذي يزعم بأنه قد عثر على مفتاح ذلك السر بعد مطالعات ودراسات عديدة استمرت فترة طويلة من الوقت لما كتبه « مالتوس » عن التعداد وتكاثر السكان ، وكان ذلك في خريف سنة ١٨٣٦ حيث ظهر له

من هذه الكتابات أن تزايد الأفراد غير المحدود يقتضي حدوث التنافس على وسائل البقاء ، وأن نجاح جانب المتنافسين يعني خيبة الآخرين ، وهذا يعني الانقراض ٠

ويلاحظ « داروين » (أن الانتخاب) أي انتخاب المتفوقين في معركة التنافس يعود الى كونهم أكثر تكيفا مع الوسائل التي يفرضها التنافس ، ويسأل داروين اذا كان التحول العضوي قد يحدث في ظل الطبيعة الصرفة حدوثه في ظل الايلاف ٠

اذا فالتكاثر غير المحدود كما يرى داروين يقتضي تنافس الضروب المختلفة ، وان ذلك التنافس لا بد أن ينتهي بانتخاب الاكثر تكيفا مع مختلف حالات الحياة (١) ٠

ومن هذا المنطلق طلع داروين بنظريـــة انتخاب التحولات النافعة التي تولدها الاسباب الطبيعية عن طريق علل به ظاهرة التكيف التي أظهر عجزه سابقا عن تعليلها ٠

ويذهب داروين الى أن الانتخاب الطبيعي انما يقوم أساسا على مقومة التكيف ٠ اذ لا فرق عنده مطلقا بين قولنا أن الفرد الناجح في معركة التنافس هو الأصلح للبقاء ٠٠٠ أو قولنا هو الاكثر تكيفا مع البيئة ٠ ومن الملاحظ أن داروين يعترف في

---

(١) اذا كان داروين قد اعتمد في افكاره على انتخاب الاكثر انسجاما او تكيفا مع مختلف حالات الحياة ، يكون قد خالف عقليا وعرفانيا ما تقول به الاراء والمذاهب السماوية من ناحية ، ومن ناحية اخرى اراء الفلاسفة والحكماء الذين ردوا كافة الامور الابداعية الى قدرة الخالق المبدع ، المصور ، علة العلل ، واسباب وجود كافة الموجودات العلوية والسفلية.

مذكراته الأولى التي صور منها نظريته أنه أغفل النظر في مشكلة من أدق المشكلات الهامة ، لم يوفق الى تعليل ظواهرها الا بعد فترة طويلة من الزمن ، ولنستمع اليه ماذا يقول : « ان هذه المشكلة هي نزوع الكائنات الحية المنحدرة في سلالة معينة أن تنحرف صفاتها اذا ما بدأت بالتكيف ، أما تعليل ذلك على ما أعتقد فهو أن أنسال الصور المتغلبة الآخذة في التزايد والتي تكيفت فعلا ، تنزع أن تتهيأ وتتكيف مع كثير من الأقاليم الشديدة التباين في نظام الطبيعة » .

يستدل من هذا الاهتمام الداروينى بتعليل هذه الظاهرة التي يعقد على تعليلها وأهميتها الكبرى الى جانب تلك السنة الاحيائية سنة الانتخاب الطبيعي انما يدل على ما تكوكب في عقلية داروين من نزعة علمية تميل بكنهها وماهيتها الى الالحاد . كونه جعلها مفتاحا لأبواب النشوء التي فتحها على مصراعيها . ومهما يكن من أمر ، فان نظرية أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي تتضمن بالضرورة ظاهرة انحراف الصورة المنتخبة عن صفات أصولها لأن الفرد الذي يغوص في التحول ، لا بد من أن ينحرف عن جوهر نوعه ، وأثبتت نظرية داروين التي نوه بها عن تكييف الاحياء للبيئة ولم يثبت كيف تأصلت ، أي أصل الانواع في الواقع والحقيقة لا تعطينا الدليل الواقعي عن أصل الانسان ووجوده ، لذلك نكتفي بهذا القدر خشية التطويل والوقوع في أخطاء كثيرا ما تضل الباحثين . وننتقل الى آراء بعض المذاهب القديمة حول النشوء تتميما للبحث .

يبدو من خلال تصفحنا لما كتب حول المذاهب القديمة في النشوء أن الافكار النشوئية المتعلقة بالارتقاء ، قديمة يعود

تاريخها الى آلاف من السنين ، ونلاحظ أثر تلك الافكار في بعض الآراء الدينية التي صنفها حكماء بابل ، وأشور ، ومصر ، حيث ذهبوا الى أن الكواكب واشتراك بعضها مع بعض كان السبب في نشوء الكائنات الحية على الارض • وأن هذه الكائنات قد وجدت بالتدريج بتأثير الكواكب السيارة في عناصر الارض حيث تعاقبت الأحياء منها •

والجدير بالملاحظة أنهم يرون في خلق الانسان معجزة من المعاجز اذ يقولون بأنه في التكوين لم يكن الا كتلة لزجة من المادة لا شكل لها ولا صورة ، انما كانت نفخة من الحياة نفخها الخالق فيها • ومن ثم أثرت الطبيعة في تلك المادة فتغلبت في أطوار من النشوء بلغت في نهايتها الصورة البشرية • ويعتقدون بأن الدور الكامل يتراوح ما بين سبعة آلاف سنة يختص كل كوكب من الكواكب السيارة في التأثير ألف سنة منها بنفسه ، ثم يشترك معه في ستة آلاف التي يكمل بها الدور الستة الكواكب السيارة الباقية الأخرى ، لكل منها ألف سنة وهكذا على مر العصور وتتالي الأجيال • وأن اشتراك كل كوكب من الكواكب صاحب الدور ينتج تأثيرا خاصا بهما وأن ذلك هو السبب في اختلاف صور الأحياء وتباين الانواع • هذه هي المعتقدات القديمة وتلك صورتها التي ظلت طوال العصور مؤثرة في عقل الانسان وأحاسيسه ، ولا تزال رواسبها حتى عصرنا الحالي تلعب دورا فعالا في عقول بعض أبناء البشرية الذين لا يزالون يعيشون حسب الطرق البدائية المعروفة •

أما حكماء اليونان فكانوا أول من سبر غور حقيقة الاكوان بأفكارهم الفلسفية وحكمتهم الروحية ، ولقد قدم هؤلاء الحكماء

من مبادىء التحول الشيء الكثير ، ولكن مع مزيد الأسف ما ضاع من أفكارهم العقلانية قد أفقدهم الكثير من الآراء العرفانية • ومع هذا ظلت أفكارهم حول نشوء الحياة في الارض وتطورها آية في الروعة ، ولا بد من الاستماع الى ما قاله أحد حكمائهم « ألكسندر ماندر » الذي ولد سنة ٦١٠ ق•م : « إن نشأة المخلوقات الحية منسوب الى تأثير الشمس في الارض ، وتميز العناصر المتجانسة بالحركة الدائمة ، وان كانت في البدء طينية ورطبة أكثر ما هي الآن ، فلما وقع فعل الشمس فارت العناصر الرطبة في جوفها ، وخرجت منها على شكل فقاقيع فتولدت الحيوانات الأولى ، غير أنها كانت كثيفة ذات صور قبيحة غير منتظمة • وكانت مغطاة بقشرة غليظة تمنعها عن التحرك والتناسل وحفظ الذات ، فكان لا بد من نشوء مخلوقات جديدة ، أو ازدياد فعل الشمس في الارض لتوليد حيوانات منتظمة يمكنها أن تحفظ نفسها وتزيد نوعها ، أما الانسان فظهر بعد الحيوانات كلها ، ولم يخل من التقلبات التي طرأت عليها ، فخلق أول الامر شنيع الصورة ، ناقص التركيب ، وأخذ يتقلب الى أن حصل على صورته الحاضرة » •

ولما ظهرت الأديان السماوية بأفكارها المتعلقة بالتكوين ، جاءت بعيدة عما ذهب اليه الفلاسفة والحكماء بهذا الشأن ، فاذا ما تصفحنا الآراء اليهودية في هذا المجال حيث نراها تذهب الى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق في البدء السماوات والارض ، وكانت الارض خربة وخالية • وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرّف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور • ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ،

ودعا الله النور نهارا ، والظلمة دعاها ليلا • وكان صباح وكان مساء يوما واحدا • وقال الله ليكن جلد في وسط المياه • وليكون فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد ، وكان كذلك ودعا الله الجلد سماء • وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا • وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك ، ودعا الله اليابسة أرضا • ومجتمع المياه دعاه بحارا ورأى الله ذلك أنه حسن • وقال الله لتنبت الارض عشبا وبقلا يبزر بزرا وشجرا ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه بذره فيه على الأرض • وكان كذلك فأخرجت الارض عشبا وبقلا يبزر كجنسه وشجرا يعمل ثمرا بذره فيه كجنسه • ورأى الله ذلك أنه حسن • وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا • وقال الله لتكن أنورا في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين • وتكون أنوارا في جلد السماء لتنير على الارض ، فعمل الله النورين العظيمين • النور الاكبر لحكم النهار ، والنور الاصغر لحكم الليل • والنجوم جعلها الله في جلد السماء لتنير على الارض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة • ورأى الله ذلك بأنه حسن وكان مساء وكان صباح يوما رابعا • وقال الله لتفضي المياه زحافات ذات نفس حية وليطر الطير فوق الارض على وجه جلد السماء ، فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الانفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها • وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن • وباركها الله قائلا اثمري واكثري واملأي المياه في البحار • وليكثر الطير على الارض وكان مساء وكان

صباح يوما خامسا • وقال الله لتخرج الارض ذوات أنفس حية كجنسها ، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك ، فعمل الله وحوش الارض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الارض كأجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن • وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا • فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الارض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الارض ، فخلق الله الانسان على صورته • على صورة الله خلقه • ذكرا وأنثى خلقهم • وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الارض وأخضعوها • هذا هو التكوين عند اليهودية استيقناه من كتابهم المقدس (١) » •

أما ما تقول به المسيحية فهو يتفق مع ما تذهب اليه اليهودية ، ولكن ترد نشوء الجنس البشري الى الخطيئة وهبوط آدم وحواء الى العالم الارضي حيث تم تزاوجهما وأنجبا البنين والبنات •

بدء الخليقة عند الاسلام :

لا نرغب في التوسع بالآراء الاسلامية حول بدء الخليقة خشية التطويل ، بل نكتفي بتقديم لمحة خاطفة لنظرتهم المنبعثة من صميم القرآن الكريم • فهم يرون كما يرى أصحاب الأديان السماوية الأخرى ، بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم وأسكنه الجنة وعهد اليه أن لا يقرب شجرة عرّفه بها ونهاه عن أكلها ، ثم خلق من ضلعه زوجته حواء • فعاشا في الجنة حتى سول لهما

(١) التوراة — التكوين عند اليهودية ص ٢ — ٥ .

الشيطان أن ياكلا من أثمار تلك الشجرة التي نهيا عن أكلها ٠ فهبطا الى العالم الارضي جزاء ما اقترفت أيديهما من مخالفة صريحة لأوامره تعالى ، فتزوجا وأنجبا البنين والبنات ، ويستدلون على هذه الرواية ببعض الآيات الكريمة ، كقوله تعالى « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا » ٠ أما تفسيرهم لكيفية وجود الانسان الاول فيعتمد أيضا على قوله سبحانه وتعالى « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج » وقوله تعالى « فلينظر الانسان مما خلق ، خلق من ماء دافق » ٠

وسنستعرض في الفصول القادمة الآراء الفلسفية الاسلامية تعميما للفائدة وتبيانا لما تضمنته الأفكار العقلانية الاسلامية من آراء غاية في الدقة والعرفان ٠

خلق العالم المتنوع من الروح الواحدة عند الهنود :

نلاحظ ونحن نغوص في أعماق الافكار الهندية (١) المتعلقة بخلق العالم المتنوع من الروح الواحدة أنهم يرون أنه في البدء كان هذا العالم هو الروح لوحدها في شكل الشخص ٠ واذا التفتت حولها لم تجد شيئا آخر سواها ٠ قال أولا : « أنا أكون » وعندئذ وجد اسم « أنا » وحتى اليوم ، عندما يتكلم الشخص يقول أولا « هو أنا » ٠

كان الشخص خائفا ٠ ومن يكن لوحده يخاف ، عندئذ فكر هذا الواحد لنفسه ، اذ لا يوجد شيء سواي مما أخاف ؟ » ٠

---

(١) الفكر الفلسفي الهندي : الدكتور سرفبالي راداكريشيئنا ص ١٢٧ــ١٢٨

وهكذا انقضى خوفه ، أن الخوف لا ينشأ الا من وجود شخص آخر • لكنه لم يكن مبتهجا ، ولا يبتهج من يكون لوحده • ورغب في شخص آخر ، فأراد أن تنقسم ذاته الى قسمين ، ومن ذلك الحين وجد الزوج والزوجة • ان ما أقوله لكم هو الحقيقة « المرء لوحده نصف » هكذا يملىء الفراغ بزوجة تزوج بها • ومن ذلك الحين نتجت الكائنات البشرية • هي جولت نفسها الى أشكال الحيوانات المختلفة ، وفعل فعلها ••• هكذا خلق الكل • « أنا ، حقا ، هذه الخليقة لأنني بعثتها من نفسي » لقد عرف هذا ، ومن ذلك الحين وجدت الخليقة • كان هذا العالم عندئذ غير مميز ، فأصبح مميزا بالاسم وبالشكل وكما يقول المثل « له اسم كذا ، وشكل كذا » •

دخل الى العالم واختبأ فيه كما يختبىء السيف في غمده أو النار في الوعاء • لا أحد يراه ، واذا رؤي فيكون ناقصا • عندما يتنفس يصبح نفسا بالاسم ، وعندما يتكلم يصبح صوتا وعندما يرى يصبح عينا،وعندما يسمع يصبح أذنا،وعندما يفكر يصبح عقلا ، وهذه هي مجرد أسماء لأعماله • ومن يعبد واحدة من هذه ـ لا يعرف شيئا لأنه يكون ناقصا بواحدة أو بأخرى •

يلزم أن يعبد الانسان بفكره وبايمانه أنه روح واحدة ، لأن كل هذه الاعمال تصبح واحدة ، وهذا الشيء وذاته ، هذه الروح ، هي أثر لهذا كله ، لأنه يعرف الكل بها •

ان من يعرف هذا يجد الشهرة والمجد •

في البدء كان هذا العالم براهمان • عرف ذاته فقط : « أنا

هو براهمان » . هكذا أصبح الكل . من كان من الآلهة عالما بهذا ، يصبح هو ، وهكذا يصبح الرؤي والناس .

وكل من يعرف « أنا أكون براهمان » يصير هذا الكل ، حتى الآلهة ذاتها ليس لها القوة أن تمنع صيرورته وذلك لأنه يصبح روحها . في البدء كان هذا العالم براهمان ... واحد فقط ، لم يتطور . ومع ذلك خلق شكلا ساميا لحكام السماء ، اندرا ، فارونا ، سوما ، الخ .. لم يكن قـد تطور بعد خلق (فيس) العامة . أي تلك الأجناس من الآلهة الذين يذكرون بالاعداد الى فاسوس ، الى رود راسا ، الى آديتيساس ، الى نشيفداس ، الى ماروتس . لم يكن قد تطور بعد ، خلق طبقة سوداء ، بوشان . هذه الارض هي بوشان لأنها تطعم كل شيء ، لم يكن قد تطور بعد . خلق شكلا أفضل هو القانون (أهارما) لا شيء أعلى من القانون .

في البدء كان هذا العالم الروح ... واحد فقط . تمنى : « لو كان لي زوجة ، اذن لولدت . لو كانت لي ثروة ، لقدمت الأضاحي » . واذا لم يحصل على احدى هاتين الافنتين ، أعتقد أنه غير كامل . وأما كماله فيعتبر كما يلي : عقله هو ذاته ، صوته هو زوجته ، نفسه هو نسله ، عينه هي ثروته الارضية .. لأنه بعينه يجد ، اذن هي ثروته السماوية لأنه بأذنه يسمعها جسده هو عمله ، لأنه بجسده يتم العمل ...

استمرار وصف براهمان بانه مصدر العالم :

جارجيا (صاحب رؤى) قال : « الشخص الذي يوجد هناك

بعيدا في الشمس ··· في القمر ، في البرق ··· ويوجد هنا في الفراغ ·· في الريح ·· في النار ·· في الماء ·· في المرآة ·

الصوت هنا هو الذي يستمر بعد أن يذهب الواحد ··· الشخص الذي هو في كل أنحاء الارض ··· الذي يشمل الظل ·· الذي يوجد في الجسد ·· هو من أعبده ·· هو براهمان !··· قال أحاثا شاترو : « كما يمكن أن تخرج العنكبوت بخيطها ، وكما تلتمع الشرارات الصغيرة من النار ، هكذا تنطلق من هذه الروح الطاقات الحيوية ، وكل العوالم،وكل الآلهة والكائنات »·

شكل براهمان :

براهمان شكلان · له شكل ولا شكل له · الفاني والخالد ، الثابت والمتحرك · القريب والبعيد ·

الهندوس والروح :

ولما كان أتباع الديانة الهندوسية يعلمون أكثر من غيرهم عن الروح وعالم الروح (١) ، وعن امكان اللقاء بين عالمي الروح والمادة لا بد لنا من ايراد بعض آراء علماء الهندوس حول الروح باعتبارهم من أقدم المفكرين الذين تحدثوا عن هذه المشكلة · تعتبر الديانة الفيدية من أقدم الديانات في العالم باعتبارها الصورة الفطرية الأولى للدين الهندوسي المأخوذ عن كتب الاله (فيدا) الاربعة المكتوبة باللغة السنسكريتية والمنسوبة الى وحي نزل من السماء على براهما · وهذه هي

---

(١) مفصل الانسان روح لا جسد : الدكتور رؤوف عبيد ج١ صفحة ٦٥

ساماورح وياجور وأتارفا • وتشرح الفيدات طبيعــة براهما الاله الخالق الذي هو « اثما » أو النفس الخالدة في الانسان ، وتصور الكون كنسيج متطور من كيان الله ، كما تجعل امتزاج الفرد مع الله صورة لامتزاج النفس مع الروح والفيدنتـا تلخص الفيدات الاربعة ، وقد أعجبت كثيرا من مفكري الغرب وفلاسفته • وقد وصفها المؤرخ فكتور كوسان قائلا : « اننـا حينما نطالع بامعان فلسفة الشرق ـ وخصوصا الهندية منها ـ فاننا نقف على كثير من الحقائق العويصة التي تكرهنا على أن ننحني اجلالا للفلسفة الشرقية ••• » كما يقول فيها فريدريك شليجل الفيلسوف الرومانتيكي الالماني : « أن أسمى فلسفة أوروبية وهي مثالية التفكير كما وصفها فلاسفة الاغريق تبدو ـ حتى قورنت بالحياة والنشاط الزاخرين للفلسفة الشرقية المثالية ـ كبصيص ضوء ضئيل مقابل فيض كامل مــن ضوء الشمس ••• » •

وهي مؤسسة على عقيدة خلود الروح ، والعودة الى التجسد أو رجعة الروح ، والايمان بالــه واحد ، وبالسماء التي تصعد اليها الارواح الصالحة فيتلقاها « ياما » الذي يرفعها الى الجنة حيث تنعم بكل اللذائذ الارضية التي تكون قد اكتملت وأصبحت أبدية • وقد وصف أحد ، هذه الكتب السماء الفيدية بأنهـا « المقام المقدس والمقر النهائي للآلهة الخالدة ، وموطن الضوء الخالد الذي هو الاصل والقاعدة في كل ما هو كائن • وحيث تتحقق الرغبات بمجرد أن تنشأ » • وهذا الوصف هو تقريبا ما تصف به الكتب الروحية الحديثة عالم الأثير • مع أن كتب فيدا هذه تتجاوز في قدمها حتى تاريخ الفراعنة الاقدمين ، مما

يحمل على الاعتقاد بأن وسطاء الهندوس قد تلقوها بدورهم عن طريق الالهام من أرواح راقية تقيم في عالم الأثير بحسب الوصف الحديث ٠

والديانة البرهمية غاصة بالحقائق الصحيحة الكثيرة عن الروح في حياتها الارضية والسماوية وبالنصائح الخلقية التي يؤدي اتباعها الى خلاص الروح في حياتيهما معا ، والى استحقاق النعيم في عالم الملكوت ٠ كما تؤمن بأن الروح الانسانية نعمة الهية ، وأن الموت يعطي الروح جسدا شفافا نورانيا ينتقل الى الملأ الأعلى ، وأن هذا الجسد وان كان ماديا في مظهره الا أنه من طبيعة غير ترابية ، بل أرقى من أجسادنا الفانية ، وفي علم الروح الحديث ما يتفق مع هذه المعاني أيضا ٠ وتؤمن المذاهب السائدة في البوذية بوجود جنات حول جبل « ميرو » الذي سفحه من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة ، ومقسم الى عدة طبقات ، في كل طبقة أهلها من الصالحين على حسب درجاتهم ، وفوقها جنات أخرى كثيرة حتى تنتهي الى جنة علوية في السماء يحيا فيها الأبرار في سعادة مطلقة ٠

وفي هذا المقام كتب المشرع الهندي الكبير مانو يقول : « ان أرواح آبائنا الاقدمين تصبح على حالة لا تراها أعين الناس ، فيما خلا بعض البراهمة الذين يدعون للاحتفال بعيد الاموات ٠ وهذه الارواح لا تتبعهم أينما ذهبوا ، وهي على حالة هوائية وتجلس بجانبهم اذا جلسوا ٠

وقال مؤلف هندي آخر وهو من الاقدمين أيضا : « أن الأرواح التي لم تأت من الاعمال الا الخير والبر ، مثل أرواح

العباد الأطهار ، والزهاد الاخيار تكشف خاصية مكالمة الأرواح التي سبقتها الى العالم الآخر • وهذا دليل لتلك الارواح على أن دورهم في العودة للتجسد قد تم وانقضى » •

واعتقاد كهنة الأديان الهندية على اعداد أشخاص يسمونهم الفقراء ليتصلوا بواسطتهم بأرواح الموتى ، ويحدثوا بهم أكبر المشاهدات في التنويم المغناطيسي • نقل لوين جاكيو في كتابه عن « الاتصال بالروح في العالم كله » نظرية الهنود عن الارواح السائحة في الفضاء بعد موت أجسادها ، « وينتج من مطالعة أبحاث ذلك المؤلف أن أسرار مسألة الاتصال بالأرواح ما كانت لتودع الا لمن يقضي أربعين سنة في بيوت العبادة تحت الأنظمة القاسية والاختبارات الدقيقة • وتلك الأسرار كانت موزعة على ثلاث فرق من أولئك الرجال كما يلي :

الفرقة الأولى : كلها من البراهمة أصحاب العبادات العامية ، وكهنة الهياكل المكلفين بقيادة العامة • وتعليم هذه الفرقة مقصور على شرح الثلاثة كتب الأولى للفيدا ، وكيفية رئاسة الطقوس الدينية وأداء القرابين • وبراهمة هذه الفرقة يخالطون الأمة ويعاشرون أفرادها ، فهم قادتهم الاقربون ورؤساؤهم الأدنون •

الفرقة الثانية : تحتوي على طردة الشياطين من الأجسام ، والعرافين للمستقبل ، وأصحاب النبوءات ، والمتصلين بالأرواح • وهؤلاء عليهم احداث بعض خوارق الطبيعة ، ويسمح لهم بقراءة وشرح « الآثار فافيدا » وهي مجموعة رقيات سحرية •

الفرقة الثالثة : من البراهمة ليس لها اختلاط بهذا العالم

الانساني ، وليس لها شغل في هذه الحياة الا درس قوى هـذا العالم المادي كله ، واذا ظهر أفرادها للناس ، فلا يكون ذلك الا لأمر جلل ، وخطب فادح ، ولا يتراؤن لهم الا عن بعد » ٠

الاغريق والرومان والروح :

طالما استعرضنا بعض الآراء الهندوسية حول الروح نرى لزاما علينا أن نستعرض الافكار الاغريقية والرومانية حول الروح ٠ كون هؤلاء قد اهتموا اهتماما خاصا بالقضايا الروحية وتحدث آكبر فلاسفتهـم وشعرائهم ومؤرخيهم عـن الأرواح كحقيقة واقعة لا غموض فيها ، وخاصة سقراط وأرسطوطاليس وأفلاطون وسوفوكليس وهيرمـيروس ويوربيـديز وفرجيـل وبلوتـارك وهـيرودوث وبطليمـوس وهـوراس ويوسفوس وماكزيموس أوف ثيروتاليس وغيرهم ٠

ومن الملاحظ أن مذهب الأورفية والفيثاغورية كانتا في طليعة المؤمنات بخلود النفس ، وتريا أنها جوهر الهي يسكن في الجسد، اي أن النفس قد سجنت في الجسد ، لذا لا بد لها أن تقضـي العقوبة قبل أن تغادر الجسد ٠ وكان سقراط يعتقد بخلود النفس لذا فانه عندما حكم عليه بالموت ، صرح لبعض أتباعه قائلا : نعم اني أعترف لولا اعتقادي أني سوف أذهب أولا صوب آلهة أخرى حليمة ورحيمة ، ثم بعد ذلك نحو رجال ماتوا هم أفضل من رجال هذه الحياة الدنيا ٠ لكان من الخطأ الفاحش أن لا تثق نفسي ضد الموت ٠ ومما يروى عن سقراط أنه يعتقد بأن الفيلسوف الحق هو ذلك الذي لا يشغله عن التفكير في الموت شاغل ، اذ أن الموت هو وسيلة تحرير الفكر وأن النفس لن

تستطيع أن تدرك شيئا على حقيقته الا اذا قطعت كل صلة تصلها بالجسد فهو عائقها عن المعرفة الحقة وهو عاجز عن تفهم معاني العدل والخير والجمال • اذ طالما بقيت لنا أجسادنا ، وظلت نفوسنا مختلطة شديد الاختلاط بذلك الشيء الرديء فاننا لن ندرك موضوع رغبتنا ادراكا كافيا وأن هذا الموضوع لهو الحقيقة • وكان سقراط يعتقد أن لكل روح روحا تحفظها وتلهمها ما قد ينفعها في دنياها ، وعليه فمن الجائز أن يخاطب الأحياء الأرواح أثناء وجودهم في هذا العالم ، ولم يكن سقراط الفيلسوف اليوناني الوحيد الذي تحدث عن الروح وانفعالاتها وماهيتها بالنسبة الى الجسد ، انما تحدث أيضا هيرودث ، فوصف ما يحدث للروح بعد مفارقتها الجسد ، ثم تحدث عن وحي الآلهة الأخرى • وجاء بعد سقراط « أفلاطون » فوقف تفكيره الفلسفي لاثبات نظريات سقراط حول خلود النفس ، ولنستمع اليه كيف يبرهن عن الضدين فيقول : أن صلة الحياة بالموت لشديدة الشبه بتلك العلاقة التي توجد بين اليقظة والنوم ، فكما أن المرء ينتقل من اليقظة الى النوم ، ومن النوم الى اليقظة ، كذلك ينتقل من الحياة الى الموت ، ومن الموت الى الحياة • والانتقال من أحد الضدين الى الآخر أمر لا بد منه اذ لو كان الانتقال في اتجاه واحد فقط لاختل التوازن في الطبيعة • ويترتب على ذلك أنه من الواجب أن تظل نفوس الموت حية في مكان خاص حتى تكون منبعا ومبدءا لكل حياة جديدة • ولو لم يكن هناك انتقال من الموت الى الحياة لانتهى كل ما في الوجود الى العدم ، كما هي الحال تماما لو استقر المرء في نومه الى ما لا نهاية •

وكذلك تحدث أرسطو عن العقل وذهب الى أن في العقل شيئا

خالدا مستقلا عن الجسد وبالاضافة الى هذا الرأي كان يؤكد على وجود عالم عقلي مغاير لعالم الحس والمادة . وقد تحدث في هذا الموضوع أيضا الفيلسوف اسكندر الأفروديسي فذهب الى أن العقل الفعال ليس من أجزاء النفس ولا من وظائفها ، بل هو الاله الذي يتمثل في نفوس البشر ويحل محلهم في تفهم معاني الأمور ووضع المعقولات . وهو غير قابل للفساد ، بل هو كائن الهي خالد ، بل هو الذي يخلق العقل بصفة خاصة .

أما الفيلسوف « ثمستويس » فقد سخر من أرسطو كونه كان يرى أن العقل الفعال هو الله الذي يفكر في نفوس البشر ، لأن هذا العقل جزء منا ، والعقل المادي بحسب رأيه غير قابل للفساد .

ان هذه المفاهيم الاغريقية العميقة لخلود الروح ووجود عالم عقلي متغاير لعالم المادة قد وصفها كبار فلاسفة الاغريق بالفطرة والالهام المثالي .

والجدير بالملاحظة أن هذه الافكار العرفانية قد انتقلت كلها الى الرومان حيث كانت الأبحاث الروحانية منتشرة لديهم انتشارا كبيرا . فتحدث عن الروح بعض فلاسفتهم مثل « شيشرون » الذي قال أليست غالبية السماوات مملؤة بالبشر هؤلاء الآلهة أنفسهم نشأوا هنا في الأسافل ثم صعدوا الى السماء، ويرى « شيشرون » أن الارواح موجودة وستظل محافظة على وجودها في هذا الكون حتى بعد أن تغادر جسدها .

الفراعنة والروح :

يستدل من استقراء التاريخ أن الفراعنة منذ القدم قد

تعمقوا في معرفة الكثير عن الروح في بعثهـا ونشورها وثوابها وعقابها وحياتها ، وذلك يبدو واضحا من خلال ما رسم على قبورهم ومعابدهم • ومن البديهي أن هؤلاء كانوا يؤمنون بأن الروح عندما تغادر جسدها المادي تكتسي بجسد جديد أرقى من الجسد المادي وأرق ، ولا يقبل الفناء وكانوا يطلقون عليه وصف (كا) •

ومن الملاحظ أن المامهم بالأمور الروحانية قد أهاب ببعض الباحثين في العلوم الروحية الى التأكيد على أن الفراعنة كانوا على صلة مستمرة بالأرواح وكانوا يفضلون كهنتهم عندمـا يختارونهم لتولي هذا المنصب أن يكونوا من علماء الروح •

وتؤكد الكتابات التي وجدت في مقابر الفراعنة ومعابدهم أنه كانت لديهم (محاكم للموتى) تحاكم ذكرى الأموات فتسمح بدفنهم في المقابر الدينية ، أو لا تسمح بذلك وفقا لما تراه في شأن حياتهم الخلقية •ويرى بعض المؤرخين ان محاكم الموتى هذه ليست حقيقة أرضية في حياة الفراعنة ، بل هي أسطورة نبتت في ذهن المؤرخ الاغريقي هيرودوث من اعتقاد المصريين بمحاكمة الميت بعد وفاته بمعرفة اثنين وأربعين قاضيا سماويا •

وهذه العقيدة تشير الى الفكرة التي كانت راسخة في أذهانهم عن أن هذه المحاكمة السماوية كانت صادقة صارمة لا تفرط في شيء ، وكان يلزم لها هذا العدد الضخم من القضاة السماويين• ويكفي للدلالة على اعتقاد الفراعنة بخلود الروح ما يرونه بأن الموت عبارة عن رقاد في القبر الى أن تعود الروح فترتدي جسدها الفاني من جديد كيما يبعث به في عالم الخلود•وعلى هذا الاساس

كانوا يعتقدون أن الذات الانسانية تتكون من أقانيم ثلاثة تجمع في وحدة (كلا من الكا) الذي يرى فيه البعض صورة غير مادية في الجسم ، (والخو) أي الروح (والخات) أي الجسم وهي تتكون في مرة أخرى في ثلاثي آخر يجمع (الخاييث) أي الظل مع (البا) أي الروح (والسعو) أي المومياء •

ويعتقد بعض العلماء أن اختلاف المفاهيم المتعلقة بالروح عند المصريين يعود الى امتزاج العقائد الذي كان من أهم عوامله اختلاط الشعوب • ويرجع أيضا الى ميل المصريين الى التمسك بأية عقيدة ، أو بأية صورة عن عقيدة تنبعث بمرور الوقت في المجتمع • ومما لا شك فيه فقد اعتقد المصريون القدماء بأن الموت عبارة عن انفصال العنصر الجسماني عن العناصر الروحية • ولا تكون الحياة الثانية بالضرورة مشابهة تماما للحياة على وجه الارض ، ولكنها حياة مقاربة للأصل • ومن الواضح أن الفراعنة قد آمنوا بالخلود وبالروح وبالصلة بين الأحياء والاموات ، وبما يمكن أن يفعله الاموات للاحياء من خير أو شر •

ومن الطريف أيضا أن الفراعنة كانوا يعرفون الارواح المرشدة والتي تلازم الانسان خلال حياته الارضية فتحميه من بعض أخطار الحياة وترشده سواء السبيل • وكانوا يعرفون أيضا الارواح الحارسة للجلسات التي تقوم بوظيفة ابعاد الأرواح الشريرة واستدعاء الارواح الخيرة استنادا على هذه الافكار الفرعونية المتعلقة بالروح وتقديسها ، يمكننا أن نقول بأنهم كانوا يؤلهون الارواح الراقية ويقدسونها باعتبارها ذات قوى تسيطر على عقول أبناء البشر •

الروح عند الفلاسفة :

اذا كانت الأديـان السماويـة وبعض المذاهب الهنديـة والفارسية والاغريقية والرومانية والفرعونية قد تحدثوا عن ماهية الروح بأساليب متنوعة تختلف تارة وتتفق أخرى ، لا بد لنا من استعراض بعض الآراء الفلسفية العرفانية المتعلقـة بالروح ، وبدء التكوين البشري · لنرى ما ينهدون اليه من معارف عقلانية تختلف في صورتها وماهيتها عن ما ذهبت اليه الأديان السماوية · ولما كانت الفلسفة الهندية قد خصصت الكثير من أفكارها في معالجة هذا الموضوع وشرح علله وأسبابه ، فلا بد من الاستماع اليها خاصة ما يتعلق منها في الله باعتباره تجسيدا للحكمة العرفانية الهندية ، فهؤلاء يذهبون الى أن الله تعالى أراد من وراء تعدد الأديان حكمة سامية لحكمته من تعدد الأجناس والاوطـان والألـوان ، بقصـد دفـع ناموس التطور والارتقاء الى الامام ·

فالفلسفة الهندية ترى أن التطور ليس سوى التحـرك الى الامام من خطوة الى أخرى ، حيث يكون في هذا التحرك تغيير وتبديل ، وهما أصل الاختلاف · فاذا ضربنا صفحا عن الاختلاف وجعلنا التطابق يعم الخليقة ، نكون قد محونا التطور ، وقضينا على التطور لأن الكون كما أبدعه الخالق آلة هائلة منسجمة الأغراض متوجهة بكليتها نحو التطور من كافة جوانبها ، لكن يشد بين أواصرها نظام واحد في العمل ، وتجمعها وحدة شاملة في الغرض ·

فلو فرضنا أننا نحاول أن نقضي على الاختلافات الدينية

ونجعل كافة أبناء البشرية في دين واحد وأن يتجه تفكيرهم في مجرى واحد لا يتغير لوجدنا أنفسنا في النهاية وقد قضينا على الدين نفسه ، ولظلت أفكار البشرية متقوقعة ·

ولقد لمس الانسان أن مجرد الوقوف عند الاجتهاد في الدين يؤدي الى ضعف الايمـــان والفتور في العبادة ، وبدلا من التطلع الى الافضل ينساق العقل الى الأباطيل لذلك فهم يرون أن تعدد الأديان واجب ما دامت الحياة أبدية · وكذلك سنة التطور وهي قانون من قوانين الخالق سبحانه وتعالى · ويضيفون الى ذلك قولهم : ولا نعتبر أنفسنا متسامحين مع الاديان الاخرى الا اذا عاملناها بمثل ما نحب أن نعامل به · واذا كانت الأديان كلها ذات مصدر واحد ، وتبشر بالحـــق ، وتسعى بالانسانية الى الكمال ، فمن الطبيعي أن توكل هذه المهمة الى فرد بذاته أو الى جماعة بذاتها ، فان معرفة الحق مشاع بين الجميع كما أراد الله لكل نفس أن تتمتع بالشمس والهواء والمـــاء · ومما يقولـــه غاندي : إنني أملك ثقة عمياء بالله ووجوده ، وميلا للحق ، والحب لا ينضب نعيمه ، ولكن أليس هذا كامنا في نفس كل انسان ؟ اننا وصلنا الى اكتشافات واختراعات جديدة في العالم الخارجي ، فهل ينبغي أن يكون الانسان ضاريا في مبدأ الامر ، ثم انسانا بعد ذلك اذا قدر له أن يكون ؟

ويضيف رأيا آخرا الى أفكاره العديدة التي بشر فيها خلال حياته فيقول : أن للديانات طرق مختلفة تلتقي عند نقطـــة واحدة ، فماذا يهم إن اختلفت طرقنا ما دامت ترشدنا كلها الى نفس الهدف ؟ بل في الحق هناك من الديانات قدر ما هناك من أفراد ·

وفي هذا المعنى يتحدث الفيلسوف الهندي سيلفر بيرش قائلا: ينبغي أن تتذكروا أننا لا نفكر بالروحية كشيء يمكن مقارنته بالديانات الأخرى ، ان الروحية بالنسبة لنا قانون الكون الطبيعي • وكل ديانة كانت وسيلة للتعبير عن القانون الطبيعي •

لكل زعيم ملهم ، جاءت الرؤيا والالهام ومنهم القانون الطبيعي يتصرف فيها على حسب العصر الذي عاش فيه ، من نمو وتقدم وتطور عادات وتجربة وفهم ، وكما تلقاها النبي فهو قد نقلها لمن كان لديهم استعداد ، ولم يستطع الحق البسيط أن يبقى على فطرته جميلا • لقد غدا مزيجا من الالهام الذي أضيفت اليه المعتقدات السائدة ، والأساطير اللاهوتية . والتجارب الدينية ، والتقاليد الموروثة ، وفي وقت ما اندثر كل ما يتعلق بالروح العظيم ، وظهرت الحاجة من جديد لبعث ما دفنه الانسان واحيائه •

لقد استقر الفهم على أن الحق الروحي قد جاء هذه المرة لأجل أن يبقى ، ولا توجد قوة على الارض في استطاعتها أن تمنعه ، والخطة آخذة في النجاح ، فالحقائق الروحية أصبحت محسوسة الآن في كل الاقطار في عالمكم ، وهذه الحقائق الروحية يجب أن تعيش لأنها هي أساس الامر الجديد الذي يقام بينكم• اننا نستعين بنفوس لا عداد لها من عالم الروح • والذين يصطفون بجانبنا يسعون للعمل مع كل الناس من أي جنس ولون ، ومن أي مذهب وشعب ، فمن يرغبون في اسراع الامر واستعجال هذا العصر الجديد ، ونحن نتكلم عن علم عندما نقول أن عالمكم القديم المؤسس على المادية الأنانية يموت ، وأن

دنياكم الجديدة قد ولدت بين ظهرانيكم » • كما يقول أيضا : « الدين هو أن تخدم الروح الأعظم بخدمتك أطفاله ، الدين هو ذلك الذي يساعد الروح الاعظم الذي فيكم على أن يبرز في حياتكم ، الدين هو الذي يزيد من الرباط بينكم وبين الروح الأعظم ، وبين أطفاله الآخرين ، الدين هو ذلك الذي يجعلكم تنتشرون في الارض لتقدموا الخدمات أينما تقدرون ، الدين هو الخدمة ، والخدمة هي الدين ، انما يزداد نمو النفس بالخدمة لا غير ، لأنك عندما تنسى ذاتك في خدمة الآخرين تنمو نفسك في التركيب والقوة • الاشياء التي من أجلها تسبب في الماضي سيل الدماء والتعذيب والتحريق لا تزيد من روح الانسان ذرة واحدة ، لقد قسمت البشر الى معسكرات متضادة ، خلقت الحواجز ، سببت فروقا لا لزوم لها بين الشعوب والعائلات • خلقت المنازعات وعملت كل شيء ديدنه المهاترة وعدم التآلف • لقد فشلت في تآلف أطفال الروح الأعظم • هذا هو السبب في أننا لا نعنى كثيرا بالمباني •• لا نهتم بما يسميه الانسان بنفسه ان ما يهمنا هو ما يعلمه من أعمال » •

ومن المؤكد أن الحكيم سيلفر بيرش ، قد تحدث في مصنفاته عن الروح وخلود الانسان ، لذلك لا بد من الاستماع اليه حيث يقول : « ان خلود الانسان مادة من مواد الايمان • ولا بندا من البنود المعقدة ، وانما هو جزء من المعرفة الذاتية والتجربة الفردية • علينا أن نبعث الصدق الروحي من القبر الذي دفنه الانسان فيه • علينا أن نقول للنفوس البشرية الضائعة أنها سوف تستمر في الحياة وتخبرنا عن الحقيقة العظمى وهي في نفس الوقت الحقيقة البسيطة ، وهي المصير المنظور عن عناية

الله التي لا تتوقـف وعـن رعايـة الروح الدائمـة للنفوس المتجسدة » ٠

كما يقول في مناسبة أخرى واصفا انتقال الناس متتابعين ببلاغته المأثورة : « واحد اثر واحد ، القاطف الاعظم يجمعهم حتى يتمكن زيت الحياة من الاضاءة في عالم أكمل ، انما الدموع لدنياكم فقط ، لأنهم ينتقلون الى ما وراء علمكم ، أما نحن فنفرح في عالمنا عندما نحيي النفوس الحديثة التحرر التي ستبدأ في تذوق مباهج الحياة التي لا يمكن وصفها باللغة الارضية ٠ أنا أجاهد دائما لأعلم الدرس : ان الموت ينطق بالحرية ، وانكم حين تندبون الافراد الذين اختفوا من عالمكم ، نحن نسر لأننا نعلم أنهم بدأوا حياة حرة جديدة ، وسعادة جديدة ، وأن لديهم فرصا أكبر لاظهار ما في دخيلتهم ، وما عجز عن أن يتحقق في عالم المادة ٠ لو عرفتم أنهم لم يفقدوا فيكم ، لهبطت الرحمة عليكم ، وأنا أنبئكم بأنه كلما ازدادت قدرتهم باطراد نموهم في عالمنا فهم يعودون دائما اليكم ليساعدوكم في المعركة العظمى التي نشترك جميعنا فيها » ٠

مـن المؤكـد أن الأمـور الروحـانية وخـاصة ما يتعلق منهـا بالخلـود أو السرمـد ليسـت سهلـة بالنسبـة لمن يرغب في خوض خضم هـذا البحـر الزاخـر من المعـارف الماورائية التي يعجز عن سبر أعماقها العقل البشري ، ولكن بعض الحكماء والفلاسفة الذين أوتوا مقدرة على التأمل والتفكير قد توصلوا بدقة أعمق الى اظهار بعض الخفايا والأسرار المتعلقـة بهذا الموضوع ، لأن الفلسفة الحقة كما نفهمها ليست سوى خادمة أمينة للحقائق ، لا تعرف الجمود أو الكسل لأن أفكارها العقلانية

تنهد دائما وأبدا الى الوصول الى جوهر الحقيقة الكلية للوجود والموجودات العلوية والسفلية عن طريق التمحيص والتدقيق لكل ما قد يظهر من العلل والمعلولات · لذلك لا بد للفلسفة من أن تتمتع بحريتها الكاملة لتصبح أداة وصول الى عين الحقيقة الكاملة المثالية ·

لذا فدور الفلسفة يجب أن يتجاوز دور العلم لأنها قد لا تعرف الشيء الكثير من ارتباطات العلم ولا من تزمت العلماء في كل خطوة يخطونها الى الامام ، وفي كل حقيقة يزعمون أنها خطأ أو صوابا · وأن عبقريتهم العلمية قد أمسكت من تلابيبها هذا ما يجعل الفلسفة انطلاقا من حقيقتها العقلانية أكثر استباقا واقداما من أسلوب العلم الوصفي ·

فلسفة باسكال :

لاحظ الفيلسوف باسكال أن حركات الكواكب والطيور في الهواء قد تشهد بعناد واصرار على ذكاء الآلهة وعنايته في نظر انسان يؤمن فعلا بوجود الله ، ولكنها عاجزة في حد ذاتها عن ازالة الانكار الأساسي لوجود الله ·

وفضلا عن ذلك فان ما يجعل الملحد متصلبا في الحاده ليس ضعف الشواهد الموجودة في العالم المنظور ، بل قرارا اتخذته الارادة والعواطف ، والعيب الرئيسي في مذهب الألوهية مبني على الاعتبارات الرياضية والفيزيائية وحدها ، هو أنه لا يلتفت الى المشكلات والدوافع الانسانية التي تشكل في نهاية الأمر موقف الانسان من الله · فاذا كانت الاعتبارات الرياضية والفيزيائية · مهما كانت قوتها لا تكفي عند الملحد المتعصب

للتغلب على الحاده ، فان التحقيقات الروحية كثيرا مـا تقوم بدورها عاجزة مكتوفة اليد ـ مهما كانت قوتها ومهما بلغـت وفرتها ـ وضماناتها ودلالاتها ، في زعزعة هذا الالحاد حتى عند العالم أو الفيلسوف المطلع عليها · وذلك لأن الدوافـع النفسية لها هي الأخرى دورها الفعال · واذا كان هذا الاعتبار صحيحا بالنسبة للعالم أو الفيلسوف المطلع اطلاعا كافيا على هذه التحقيقات ، فما بالك به عند غير المطلع ، أو عند ذلك الذي يرفض كل اطلاع سواء أكان من رجال العلم أم الفلسفة أم الاعتقاد ؟! ·

ولذا حاول باسكال عن طريـق الفلسفـة اقناع « الملحـد والمبتعد عن الدين بحقيقة الدين وقدرتـه على حل المشكلات الانسانية وقدرته بنوع خاص على ارضاء أسمى نزعات الانسان وأعظمها ·

وان صح لا اكراه في الدين وجب أن يكون الدفاع عن الدين متفقا تمام الاتفاق مع محاولات الانسان لبلوغ سعادته القصوى، ومع بحثه المستمر عن ذلك الكائن الأسمى الذي تؤدي به معرفته الى بلوغ تلك السعادة ·

وهذه علامة على أنه لا دفاع عن الدين بدون معرفة الانسان حق المعرفة ، وقد رأينا أن معرفة الانسان قائمة على ملاحظته في الوجود ··· يتلخص المنهج اذن من ناحية في وصف الانسان في حركته ونزعاته ورغباته ، ومن ناحية أخرى في تفسير تلك الحركة وتلك النزعات والرغبات » ·

آراء فيشته :

يرى الفيلسوف « جوهان فيشته » أن كل حي لا بـد وأن يجوز تعقله فالكائن الذي فيه قلب ، فيه عقل أيضا والفـرق بينهما ليس شاسعا بحيث يتعذر على الكائن أن يتعقل ما سبق له أن وقع عليه بالقلب ، أو جاءه بطريق السمع ·

ويعتقد فيشته أن الفرق بين الايمان والعلم ليس اختلافا لفظيا بل هو تمايز حقيقي واقعي ، باعتبار أن كل اعتقادي ما هو الا ايمان ، والايمان قائم على القلب لا العقل · وأن كل حقيقة نرى أنها من صنع الذهن أو العقل ، دون أن نعرف أنها تستند الى الايمان أيضا ، فهي غير صحيحة ومختلفة ، بما أن العلم الخالص ينتهي بنا فقط الى الاعتراف بأننا لا نستطيع أن نعرف شيئا · وأن الحقيقة تنبثق فقط من الضمير الاخلاقي ، وكل ما يتعارض مع هذا الضمير ، ومع امكان طاعته ، وتقرير هذه الطاعة ، هو بكل تأكيد خطأ · وليس في مقدوره أن ينتهي بنا الى أي اعتقاد ، ولو أنني لا أستطيـع أن أكشف الآن عن دواعي هذا الخطأ ·

آراء سبنسر :

ولما كان الفيلسوف « هيربيرت سبنسر » من كبار أصحـاب المذهب الوصفي الذي ظهر في انكلترا ، فقد اهتم اهتماما جديا بمشكلة التوفيق بين العلم والدين ، فأدلى بأفكاره القيمة التي كانت تتفاعل في أعماقه وهو يسعى للتوفيق بين هذين الاتجاهين قال : عندما نعترف بأن الحقيقة تقع عـادة في تنسيق الآراء

المتخاصمة المتخالفة . فليعترف العلم بأن قوانينه تنطبق على الظواهر والأمور النسبية فقط .

وليعترف الدين أن لاهوته خرافة لتبرير ايما يتنافى مع العقل . وليتوقف الدين عن تصوير الله بشكل انسان عظيم ، والا سواء في تصويره بالقسوة والغدر ، والتعطش لسفك الدماء ، ومحبة النفاق والرياء من الناس . وليتوقف العلم عن انكار وجود الله أو التسليم بالمادية على أساس أنها قضية مسلمة . ان كلا من العقل والمادة ظواهر نسبية ، وهما معلول مزدوج لعلة نهائية ينبغي أن تظل طبيعتها مجهولة ... ان الاعتراف بهذه القوة الغامضة هو جوهر الحقيقة في كل دين ، وبداية الفلسفة » . وهل يتأتى أن يتحقق أي أمر من هذه الأمور كلها الا عن طريق التطور المزدوج : التطور في أوليات العلم بمقدار التطور في أوليات الاعتقاد ؟! وهذا التطور خضع له سبنسر نفسه عندما اعتدل في أخريات أيامه من موقفه في الدين ، وبدأ يتحقق من أن العقائد الدينية والحركات السياسية تقوم على احتياجات وبواعث حصينة من هجوم العقل عليها ، وراح يعوّد نفسه على رؤية العالم يتدحرج في طريقه بغير التفات الى أكوام الكبت التي قذفها في اتجاهه .

ماذا يقول سانتيانا :

يلاحظ الفيلسوف جورج سانتيانا أن العلم يشمل جميع أنواع المعرفة التي يوثق بها ويركن اليها كونه يعلم ما في العقل من تقلب وعدم استقرار ، وما في العلم من قابلية للخطأ والصواب ، ولكنه على الرغم من ذلك يرى وجوب الاعتماد على

العلم وحده ، معتمدا على ما قاله سقراط بأن الحياة بغير بحث ليست جديرة بالانسان ، وأن تخضع للعقل كل نواحي التقدم الانساني وكل ما يتصل بالانسان من مصالح وتاريخ • ويتساءل سانتيانا: « لماذا ثار الضمير الانساني أخيرا على مذهب الطبيعيين وعاد الى الايمان بالغيب الخفي ؟ » • قد يكون السبب في هذا هو أن النفس الانسانية قريبة لما هو خالد ومثالي • فهي لا تقنع بما هو موجود أمامها ، وتتوق الى حياة أفضل وتحزنها فكرة الموت ، وتعلق أملها على قوة تمكنها من الدوام والخلود وسط ما يحيط بها من تغيير ومرور •••

ومع ذلك ففلسفة سانتيانا طافحة بعناصر الشك الكثير والتردد بين الايمان والانكار لكنه راح في بعض أقواله يبكي ضياع ايمانه ، ويعتقد في نفس الوقت « أن الايمان غلطة جميلة تلائم نوازع النفس الانسانية أكثر من الحياة نفسها » •

لكن سانتيانا راح في الوقت ذاته يزدري العلماء الذين يتوهمون أنهم قد أثبتوا بطلان الدين بالعلم ، من غير أن يبحثوا عن أصل الافكار والعادات التي نبعت عنها العقائد الدينية من غير أن يعرفوا معنى هذه العقائد الدينية الأصلي وعمقها الحقيقي ••• ففلسفة سانتيانا تعكس بوضوح صورة الصراع المتجدد بين العلم والاعتقاد ، والتطور اللازم في أوليات هذا وذاك حتى تتراجع بعض عناصر هذا الصراع المتجدد تراجعا قويا أو ضعيفا •

رأي راسل :

يبدو أن الفيلسوف الانكليزي « برتراند راسل » قد رفض

الحجج التي كان يعتمد عليها زميله الفيلسوف « كارولين » لاثبات الدين ، لذلك نراه يقول : اذ أن رأي الذي ثبت عليه منذ ذلك الوقت ، هو أن القضية الدينية يجب ألا تقبل الا اذا كان لها سند كالسند المطلوب في القضية العلمية » ·

ولعل القارىء قد لاحظ بنفسه كيف أن « القضية الدينية » وهي مؤسسة بدورها على عشرات ، بل على مئات من القضايا الفرعية ، لم تجد لها سندا كالسند المطلوب في أية قضية علمية الا في نطاق البحث الحديث في الروح ، وهو السند الذي أرضى في الشرق والغرب عددا غفيرا من أكبر الفلاسفة وعلماء المادة الذين طالما بحثوا ونقبوا من قبل دون جدوى عن هذا السند العلمي الحاسم لأخطر قضايا الاعتقاد وهو اثبات دوام الحياة بعد موت الجسد ، وما يرتبط به ، وما يتفرع عنه من قضايا لا تحصى ·

وأسلوب برتراند راسل في هذا الشأن مستمد من نظرته الى دور الفلسفة بوجه عام « ومن الحاحه في أن تكون الفلسفة علمية المنهج ، بحيث تقلع عما تعودته من ضرب في التأملات التي تطير الى أجواء السماء على جناحي خيال طامح لكنه جامح · والمقصود بعلمية المنهج الفلسفي نقطتان رئيسيتان :

أولاهما ــ أن يتناول الفيلسوف مشكلة جزئية واحدة ، ولتكن هذه المشكلة مثلا عبارة واحدة من عبارات الكلام ينتهي في تحليلها الى نتيجة ايجابية ، يصح أن يأتي بعده سواه فيبني عليها عمله ونتائجه · وبهذا تصبح الفلسفة كالعلم عملا يتعاون عليه المتعاقبون ، فيزداد بناؤها طابقا فوق طابق · وبذلك

لا تعود الفلسفة ــ كما هي حالها على مر القرون السابقة ــ عملا فرديا ، بمعنى أن يبني كل فيلسوف لنفسه بناء كاملا شامخا ، ليأتي من بعده فيقوضه تقويضا ليعيد لنفسه بناء جديدا وهكذا دواليك حتى لا نرى فرقا ملموسا من حيث التقدم والرقي يبني بناء فلسفي يقيمه فيلسوف القرن العشرين ، وبناء فلسفي قديم أقامه يوناني في القرن الخامس قبل الميلاد ·

بل كثيرا ما يرجع القديم الجديد عظمة وشموخا · ان هذا العمل الفردي ان جاز في الآداب والفنون فهو لا يجوز في نتاج العقل من فلسفة وعلم ·

نعم يجوز للشاعر أو الفنان أن يعبر عن ذات نفسه كما شاء ، بغض النظر عن سابقيه ، لكن مثل هذا الاستقلال الفردي لا يجوز أبدا في المجال العقلي · وأما النقطة الثانية ــ التي يقصدها « راسل » من علمية المنهج في التفكير الفلسفي فهي الأداة المستخدمة في تحليل المشكلة الجزئية التي يختارها الفيلسوف · وأداة المعاصرين جميعا ممن يهتمون بالفلسفة التحليلية ، وعلى رأسهم راسل ، هي المنطق الرياضي الذي ينصب على العبارة الموضوعة تحت البحث ، فاذا هي أقرب ما تكون الى مسألة في الجبر أو الحساب · ولو كملت هذه الأداة لاستطعنا أن نحقق الامل الذي كان يحلم به وهو أن نتناول مشكلاتنا من هذه الزاوية الرياضية ، بحيث يعود الاختلاف في الرأي ينسجم بالحساب ، لا نقاشا حول ألفاظ غامضة المدلول لا ينتهي الى نتيجة ، ولو امتد خلال قرون » ·

وهذا القول كما يصح في علاقة أية فلسفة عصرية بغيرها

يصبح أيضا في تحديد العلاقة بين الفلسفة والعلم ، وأيضا بين العلم والاعتقاد ، حيث ينبغي أيضا أن يتحدا في الكليات ، وأن يلتقيا عند معطيات لا تقبل المنازعة فيها • وتكون هذه المعطيات نامية بدورها بمقدار نمو الفلسفة والعلم والاعتقاد معـا في الاتجاه الصحيح القائم على أسلوب النظرة الثاقبـة الواقعية للأمور •

هذه النظرة التي عرفت بوجـه خـاص عن أساطين جامعة كامبريدج التي ارتبطت بهم بمقدار ارتباطهم بها ، والتي تعلل وحدها اهتمام أساتذة كامبريدج الكبار ببحوث هذا الناشيء اهتماما شديدا ، وبوجه خاص منهم « ريتشارد هودجسون » و « هنري سيدحويك » و « فريدريك مـايرز » و « ادموند جيرني » و « ووليام ماكدوجال » وغيرهم • قد أقبل هـؤلاء العلماء على التحقيق الروحي المتواصل الناقد الحذر ، ولم يكن السؤال الذي يشغل بالهم هو بحث ما هو ، ما اذا كان هـذا التحقيق متفقا مع العلم أو الاعتقاد ، أو معارضا لهما ، ويرضي الشعور العام أم يخالفه ، ويثير الرضا أم الغضب ، اذ أن كل هذه الاعتبارات لا ينبغي أن يقف عندها الضمير العلمي المشبع بحب البحث عن الحقيقة ، وحب الارتباط بالمعطيات الصحيحة للحياة ، حيثما جاءت وكيفما كانت •

وفعلا لم يخيب التحقيق المتواصل الناقد الحـذر رجاءهم المشروع ، بل جاءهم بأكثر مما كانوا يتوقعون ، فوضعوا أيديهم عن طريقه ، على معطيات جمة خطيرة عن الموت ، وعن الخلود ، وعن النواميس الخلقية والروحية التي توجه دفة الحياة ، والتي

تتجاوز في عمقها وفي خطورة دورها كل صور القياس ، والتي تتجاوز في حيادها وموضوعيتها كل التوقعات ۰

وهذه هي نفس المعطيات التي أفلت أمرها من برتراند راسل نفسه ، الذي هو فيلسوف رياضي أو بالأدق هو منطق ذري قبل أن يكون عالما في الطبيعيات ، أو في حقائق النفس أو الروح ۰ وقد أغرم بالتحليل المنطقي أو اللفظي ، فارتدت فلسفته في كثير من الأحيان طابع الفلسفة اللفظية التي يبغضها الروحيون كما يبغضون كل فلسفة تعتمد على ايهام الصيغ والعبارات مهما كان فيها من براعة أو من قدرة نادرة كثيرا ما تقود الى الضلال ، ولكن أصحابها يتعلقون بها كأنها لاهوت جديد يقدمونه باسم العلم ، أو الرياضة ، أو يسمونه « بالذرية المنطقية » التي برع فيها راسل ۰

وهذه الذرية المنطقية لن يتسع لها هذا المقام ، وقد يكون فيها بعض جوانب الصدق المرتكزة على معادلات المادة والطاقة ۰ ولكن ليس هناك أي مبرر لنتصور أنها تحوي الصدق كله خصوصا عندما تهرب من التسليم بوجود الخالق باعتباره الحقيقة المطلقة في الوجود ۰ أو عندما تهرب من التسليم بأزلية الوجود ، أو حتى بوجود الروح ، أو الارادة ، أو الضمير الاخلاقي ۰ أو غير ذلك من المسلمات التي وصل اليها أحسن فلاسفة التاريخ من أيام الاغريق حتى عصرنا الحاضر ۰

واليك مثال واحد من فلسفة راسل عندما يرى أن الانسان لم يعد له لا روح ولا مادة ، لأنه في تقديره ليس ثمة ما يدل على الروح ، ولأنه لم يعد في فلسفة « الذرية المنطقية » ما يدل

على مادة الانسان أو شكله المادي ... فهل معنى ذلك أن ننكر وجود الانسان ؟ وهكذا دواليك في العديد من القضايا ، أو بالأدق من حلول القضايا التي تعتمد في النهاية على الصيغ الكلامية ، التي تنكرها البداهة قبل العقل ، وقبل الحواس ، وقبل أسلوب المنطق الذي ينبغي أن يسود العالم والفلسفة معا .

ولا ريب أن من أكبر عيوب الفيلسوف أن يكون نظريا في استنتاجاته ، وأن يحتاج الى حشد أكبر عدد من المعادلات الرياضية أو المصطلحات الفنية كيما يعزز وجهة نظر ترفضها البداهة ، وحقائق العلوم الوصفية في وقت واحد .

ولذا فان راسل ـ أو غيره من المناطق الذريين ـ الذين اتجهوا الى الايمان أو الى الانكار لو أتيحت لهم فرصة كافية لتحقيق ضحية الظواهر الروحية ، مثلما أتيحت لهؤلاء العلماء الذين أسلفناهم ، وللآلاف من غيرهم في كل أنحاء العالم ، لما اندفعوا بعد اخضاعها للتحليل المنطقي ـ ولأسلوب المنطق الذري بالذات ـ نحو انكار الروح أو ظواهرها المحسوسة ولوجدوا أن هذه الظواهر تلتئم مع حقائق المادة في مفهومها الذري لا الحس ، بمقدار ما تلتئم مع التسليم بالروح وبحقيقة الخلود ، والضمير الاخلاقي بعد فهمه وتحديده . وفي الجملة لوجدوا في معلولاتهم قدرة على الاتساق التام مع أسمى حقيقتين يقوم عليها كل اعتقاد وهما : دوام الحياة بعد الموت عن طريق الروح شعلة الحياة ، وحقيقة الضمير الاخلاقي ودوره الهائل في توجيه دفة المصير الانساني .

وذلك بداهة بصرف النظر عن ذلك الحشد الهائل من

الخرافات الذي تسلل الى مفاهيم كل اعتقاد عن طريق ضعف الانسان بوجه عام ، وأنانيته ، وغروره • وأيضا عن طريق الجهالة المستترة التي كثيرا ما ترتدي رداء الاعتقاد ، أو العلم ، أو الفلسفة ، أو المنطق • والتي قد يكون مبعثها الحقيقي الانفصال التام أو الجزئي بين هذا وذاك من عناصر العرفان الصحيح •

الايمان بنظر ديكارت :

يعتقد الفيلسوف « رينه ديكارت » أن خيرنا الأسمى لو عرفنا قدرته اللامتناهية التي تتمثل في خلقنا وخلق العالم ، وتأملنا كمال معرفته التي يرى بها الاحداث الحاضرة والماضية والمستقبلة ، ثم ضرورة أحكامه • ثم ضعفنا وصفى شأننا بالنسبة الى عظمة العالم المخلوق •

وليس علينا الا أن ندرب وجداننا على الاتجاه دائما وأبدا الى اله الخير والسلام والمحبة المطلقة وذلك لأن الله هو القدرة الفاعلة في الوجود والموجودات •

واذا ما تأملنا بما أوجده من مخلوقات ، لا بد لنا من الامتثال لأمر الله ، كونه علة الموجودات وفاعلها ، والانسان العارف يجل الأمر الالهي ويحبه الى حد أنه حتى لو أتيح له تغيير الامر لرفض ذلك • ولا شك في أن هذا الاعتقاد الذي يملأ نفس المتأمل العارف قد لا يشبهه أي نوع من الانفعالات الوجدانية •

والجدير بالملاحظة أن ديكارت قد أعلن عن رأيه هذا بعد

أن طاف به في حلم كان قد شاهده في ليلة من ليالي الشتاء ، ولنستمع اليه ماذا يقول : حلم نزل علي من السماء ، فقد سمعت قصف الرعد ، وكان هو روح الحق نزل ليملكني ، وفي صباح اليوم التالي دعا الله أن يهبه النور لأن حياته منذ اليوم صارت مكرسة للبحث عن الحق ٠

وعرف ديكارت بأفكاره المتعلقة بالشك حيث قال : فقد أشك في أني جسم ، أو في وجود عالم مادي أعيش فيه ، ولكنني لا أستطيع الشك في أنني أشك ، أو في وجود تفكيري ، وأعلم من ثم أني جوهر جماع طبيعته أن يفكر ، ولا يحتاج وجوده الى مكان ما ، ولا يتوقف علي أي شيء مادي ٠ لذا كانت ذاتي أي الروح هي التي جعلتني من أنا ٠ هي شيء متميز تماما عن جسمي ، وادراكها أكبر من ادراك ذلك الجسم ، ولن تكف الروح عن أن تكون ما هي ، حتى لو لم يكن ثمة جسم ٠

والله في نظر ديكارت كامل ، خالد ، لا نهائي ، بصير بكل شيء ، لا حد لقوله ، قادر على كل شيء ، قدسي ٠ ووجود الاله الكامل يبلغ من اليقين في مفهوم ديكارت ما تبلغ بديهات الهندسة ، أو يزيد ٠ فا لله هو الكمال الذي يهدي خطانا الضالة فتتجه اتجاها غريزيا نحو النور ٠

ويلاحظ ديكارت أن كل ما يقوله أهل الالحاد لنقض وجود الله ليس سوى الحاد ، لأن الله قد أثبت وجوده باعتباره مفكر أو جوهر ، والله حسب مفهوم ديكارت قد التفت الى البحث عن ذاته اللامتناهي ، فأثبت وجوده مما أبدع من موجودات دقيقة متقنة تشد الانسان الى التأمل بماهياتها العجيبة ٠

ولقد وجد ديكارت في نفسه فكرة مسيطرة على جميع مـا عداها ، وهي فكرة الله الكامل اللامتناهي ، استعان بها على اثبات وجود الله مقدما الأدلة والبراهين المنبثقة من ذاته ، ومن أفكاره العرفانية ، وهي : الدليل الاول ـ يوصلنا البحث في ماهية هذا الوجود الموضوعي للانكار على وجود الله ، ولبيان هذا الدليل يجب علينا أن نفرق الوجود الموضوعي للانكار الذي نتحدث عنه ، عن ادعاء الافكار الحسية العارضة الى وجـود موضوعات مشابهة لها • وقد بينا أن لا قيمة لهذا الادعاء • وليس هدفنا أن نستدل بأي فكرة من الافكار حسية كانت أم غير حسية ، على وجود موضوعات الافكار أيا كانت • اننـا لا نرمي الى اثبات وجودها الطبيعي • انما ننهد لتفسير الافكار في ذلك الوجود ذاته •

وليس من شك أن هناك اختلافا بين الافكار من ناحية وجودها الموضوعي : ففكرتي عن المثلث هي غير فكرتي عن الدائرة ، وغير فكرتي عن الانسان ، ومن المؤكد أن هناك تفاوتا بـين الأفكار في مرئية ذلك الوجود • ففكرتي عن انسان غير فكرتي عن صفات ذلك الانسان ، عن لونه مثلا ، أو صوته ، أو ذكائه • انها فكرة عن جوهر ، بينما كانت تلك الافكار عن أعراض ذلك الجوهر ، وفكرتي عن الله غير فكرتي عن الانسان ، وبالأولى عن جسم من الاجسام • انها فكرة كانت أسمى ، أزلي لا متناهي ، ثابت لديه المعرفة والقدرة الكاملتان ، خالق جميع الاشيـاء الخارجة عن ذاته ، وتملك فكرته وجودا موضوعيا أكثر مما تملك أفكار الجواهر المتناهية (١) • وقد نتساءل كيف يمكن

---

(١) ديكارت ـ التأملات : التأمل الثالث ص ١٨١ .

تفسير الافكار في وجودها الموضوعي هذا وما سببها وما علتها ؟ ومن المؤكد أنها لا تحتاج في وجودها الصوري أي خارج النفس ذاتها • أما وتلك الأفكار المختلفة متفاوتة فيما بينها في وجودها الموضوعي ، لزم البحث عن علة تفسر تمثيلها للموضوعات واختلافها في هذا التمثيل وتفاوتها • ولا يمكن فرض موضوعات خارجية تؤثر في النفس ، وتمد هذه بالأفكار المختلفة ، وربما نتساءل عن سبب الافكار في وجودها الموضوعي هذا وما سر اختلافها وتفاوتها ؟•

فالاجابة أنه مهما بحثنا في الظرف الحاضر ، لما وجدنا لتلك الافكار كلها ـ ما عدا واحدة منها ـ سببا خارج النفس ذاتها ، سواء نظرنا الى ما تتضمنه موضوعات تلك الافكار من نقص أو نفترضه من حقيقة أو كمال ، فالأفكار مثل الحار والبارد والحلو والمر ، وما اليها لا تحوي الا حقيقة موضوعية ضئيلة وما بها من نقص يمكن رده الى ما في النفس من نقص وقابلية للأخطاء والخداع (١) • أما ما يحويه بعضها من حقيقة موضوعية فيعود الى ما في النفس من قدرات وكمال •

أما الأفكار الرياضية ، فعلاوة على أنها تمثل للنفس في صفاء وتميز يعظمان بقدر ما تتجنب النفس الاتصال بالعلم الخارجي الذي تدعي وجوده ـ علاوة على هذا ـ فليس هناك فيها ما يجبرنا على تعدي قدرة النفس على تمثلها وتكوين بعضها من البعض الآخر • كذلك هو الأمر فيما يتعلق بأفكارنا الواضحة المتميزة عن الاجسام : فالأجسام خارج الكيفيات التي

(١) ديكارت التأملات ص ١٨٤ .

أشرنا اليها كالحار والبـارد والحلو والمر ، تحمـل خصائص نتمثلها بوضوح وتميز كاملين لا لسبب الا أنها راجعة في نهاية الأمر الى الخصائص الرياضية كالمسافة والشكل والعـدد • وأفكارنا عن هذه الخصائص لا تتطلب منأ الخروج عن النفس وعن قدرتها على التصور والتركيب ظلت أفكارنا عن غيرنا من الناس وعن الملائكة وعن الله : ولا تختلف الأولى في موضوعها عما نعرفه في أنفسنا ، أما الثانية فهي على الاغلب مزيج من أفكارنا عن النفس وعن الأجسام (١) أما فكرة الله فهي – في ناحية واحدة منها على الاقل – تقتضي سببا خارج النفس وخارج قدرة النفس على التفكير •

والبحث في النفس ومحتوياتها يوصلنا الى أن نتأمـل في فكرة الله وأن نجاح تفسيرها من جهة حقيقتها الموضوعية أي من جهة ذلك الموضوع الذي تمثله دون غيره من الموضوعات • وفكرة الله هي كما لاحظنا فكرة كائن كامل أزلي لا متناه ، لديه المعرفة والقدرة الكاملتان وهو خالق جميع الاشياء • وتلك الفكرة تنبع من النفس نبوعا طبيعيا • فيكفي لصدورها أن نفكر في أنفسنا وفيما يحمله وجودنا من نقص ، وفيما يحملنا وجودنا من نقص ، وفيما يعرض لتفكيرنا من شك وخداع ثم فيما نحن حاصلون عليه من حقيقة وكمال ورغبة في تجنـب مواضع النقص والشك والخداع • يكفينا هذا التفكير في أنفسنا لنصل على نحو مباشر الى التفكير في كائن كامل (٢) •

---

(١) ديكارت التأملات : التأمل الثالث ص ١٨٣ •

(٢) المصدر نفسه ص ١٩١ •

ولذلك كانت فكرة هذا الكائن هي الأولى التي تمثل للنفس مثولا طبيعيا مع فكرة النفس عن ذاتها ووجودها وأنها كانت مرتبطة بهذه الفكرة الاخيرة ارتباطا مباشرا ٠

وقد نتساءل من أين جاءتنا هذه الفكرة ؟ اذ سبق أن أثبتنا أن لا موضوع خارجي يفسرها ٠ ثم لا يمكن أن تكون النفس سببها ، فالنفس ناقصة محدودة منتهية ودون الكائن اللامتناهي القادر الذي تتمثله بفكرتها ٠ ولا يمكن للأدنى أن يفسر الأسمى ٠ ولا يمكن أن تكون النفس وحدها سبب تفكيرنا في الكائن الاول اللامتناهي ٠ ولا يجوز أن يقال أن في الله كمالات متعددة ، ربما أكون قد حصلت على أفكارنا بواسطة تجربتي الشخصية ، وجمعت هذه الافكار فيما بينها وعملت منها فكرة لكائن كامل ٠

وهذا غير جائز ، لأن فكرتي عن الله تتضمن في ذاتها اتحادا مباشرا فعليا لكافة الكمالات فيما بينها ، وذلك مهما بدا لعقلي من اختلاف بين تلك الكمالات ٠

ولا يمكن أن يقال أني أنا الذي تكونت فكرة اللامتناهي بناء على الكمال اللامتناهي القائم في نفسي بالقوة ، بناء على قدرة نفسي على التقدم ، تقدم مطرودا الى هذا الكمال اللامتناهي الذي أتصوره ٠ لا يمكن هذا ، لأن اللامتناهي مثل الكمال الحاضر في الله بالفعل لأن فكرتي عن كمال الله ولا نهائيته هي التي تجعلني أتصور وأفهم حدودي ووجودي ونقصي ٠ ان هذه الفكرة في نفسي لتدل على الله وكانها علامة الصانع على صنعه ٠

لتفسير فكرة الكائن الكامل اللامتناهي يجب الخروج من النفس والحكم بأن هذا الكائن ، الكامل اللامتناهي موجود وبأنه علة تلك الفكرة وسببها الوحيد (١) ٠

الدليل الثاني : أقر ديكارت بما حمله الدليل الاول من صعوبة لا سيما على من لا يتعود المضي طويلا في تجريد أفكاره وتقليبها على مختلف أوجهها ، ورأى أن يؤيد هذا الدليل ويكمله بدليل ثان يبدو أيسر منه وأقرب الى الغرض المطلوب ٠ فبدلا من البحث عن سبب لفكرته عن الكائن الكامل اللامتناهي حاول البحث عن سبب وجوده ، هو الذي يفكر في الكائن الكامل اللامتناهي « أفكر اذن أنا موجود » أنا كائن مفكر أي يعرف ما في نفسه من كمال ونقص ٠ يعرف أنه يشك ويخطيء كثيرا ويريد أن يتجنب الشك والخطأ معا ٠

ومن المؤكد أنه لا يمكن أن أكون سبب وجودي أنا الذي أفكر في الكائن الكامل ، اذ لو صح ذلك لاستطعت الحصول على تلك الكمالات التي أتصورها في الله والتي أعرف نفسي خالية منها مفتقرة اليها (٢) ٠

فوجودي يفترض العدم الذي خرج منه وخروجي من العدم يفترض قدرة مطلقة لا متناهية لا يمكن أن أكون حائزا عليها ٠ ثم اني جوهر مفكر لو كنت منحت نفس الوجود لما قصرت عن منحها عدة صفات وكمالات ليست هي في نهاية الامر الا أعراضا لذلك الجوهر ٠

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة الجزء الاول .

(٢) ديكارت : المقال في المنهج ج ٤ ص ١١٥ التأمل الثالث ١٧٨ .

ولما كنت لست سبب وجودي ، وجب البحث عن هذا السبب ، اذ لا يمكن أن يثبت وجودي ، أو يبقى بدون سبب ، اني موجود في الزمن ووجودي الزمني هذا مؤلف من لحظات متتابعة منفصلة الواحدة منها عن الأخرى • فوجودي في اللحظة الحاضرة كان من الممكن ألا يكون ، وهو لا يستتبع بالضرورة وجودي في لحظة تالية • ولا يمكن أن يكون والديّ سبب وجودي • انهما مناسبتان فقط لميلادي ولا يستطيعان المضي به لحظة واحدة وراء ذلك الميلاد • ثم لا جدوى من البحث عن سبب وجودهما والتسلسل في هذا البحث ، بل ينبغي الاكتفاء بالبحث عن سبب وجودي أنا الآن •

أنا موجود الآن ، وأعرف أني لست سبب وجودي ولست بالأولى سبب بقائي في الوجود وانتقالي من اللحظة الحاضرة الى لحظة تالية وعلى ذلك فلست سبب انتقالي من اللحظة الماضية الى اللحظة الحاضرة • ولا بد من سبب وأن يكون هذا سبب وجوده ذاته وبقائه في الوجود معا ، أي حسب تعبير ديكارت والمدرسيين أن يكون سبب ذاته •

هذا هو الكائن الكامل الذي أفكر فيه • فاني أتصوره من الغنى والقدرة بحيث لا يكون مفتقرا في وجوده الى سبب ، ولا عاجزا عن البقاء بذاته في الوجود ، فهو اذن قادر على ايجادي وحفظي ، هو الخالق الحافظ ــ ولا فارق بين الاثنين ــ بما أني الكائن العاجز ، وبما أن عجزي ايجاد نفسي في اللحظة الحاضرة عجز بالأولى عن الاحتفاظ بها في الوجود • هذه هي الصيغة الثانية للبرهنة على وجود الله • وهي قائمة مثل الأولى على

يقيني الاول بوجود نفسي ، وبما في نفسي من كمال ونقص من حقيقة وخطأ ، من وجود وعدم ٠

ويمكن أن يجتمع اذن مع تلك الصيغة الأولى في تعبير واحد مقتضب ٠ يقول ديكارت في بداية « التأمل الرابع » من هذا فقط ، أن (فكرة الله) في نفسي ، ومن كوني موجودا أنا الذي لدي هذه الفكرة أستنتج وجود الله في يقين تام (١) ٠

الدليل الثالث : أما وقد تم اثبات وجود الله أصبح اثبات وجود الاجساد أمرا ممكنا ٠ ولكن ديكارت فضل البقاء مع ما استطاع البقاء في أرض الفكر الثابتة والتأمل فيما يعرفه بوضوح وتميز عن طبيعة تلك الاجسام ، وذلك قبل الخوض في اثبات وجودها (٢) ٠ والمعرفة الواضحة المتميزة عن الاجسام هي بدون شك المعرفة الرياضية ٠ ولا شيء أنسب للتأمل وأكثر ثباتا ويقينا بعد النفس والله من العلم الرياضي وحقائقه ٠

وقد تبين لديكارت أنه يمكن التأدي من هذا التفكير في العلم الرياضي وفي حقائقه الى حقيقة أسمى من العلم الرياضي ذاته الى حقيقة ربما كانت أصل اليقين وأساسه ، يستطيع الانسان أن يتقدم في ذلك العلم ما شاء له التقدم ، معتمدا في تقدمه على انتباه متصل للأحكام التي يقوم بها ، وعلى نظام يراعيه بينها أثناء انتقاله وتقدمه ، ومعتمدا بنوع خاص على

---

(١) ديكارت التأملات — التأمل الثالث ص ١٩٣ — المبادىء الفلسفية ص ٢٠٣ ٠

(٢) ديكارت التأملات — التأمل الخاص ص ٢٠١ — ٢٠٢ ٠

الافكار الرياضية ذاتها التي تعمل منها الأحكام • فالفكـرة الرياضية نظرة النفس الخالصة في طبيعة ثابتة حقيقية لطبيعة المثلث أو الدائرة أو المربع أو ما شابه ذلك •

قد لاحظنا أن النفس لا تستطيع ازاء تلك الطبائع الا النظر والبصيرة ثم الاقرار والتسجيل •

ففي المثلث مثلا خصائص معينة ان نظر العقل فيها عرف ما بينها من روابط ، واستطاع بفضل ذلك ، الانتقال من هـذه الخصائص الى أخرى ومن هذه الى أخرى • كذلك هو الامر فيما يتعلق بالدائرة وبغيرها مـن الطبائع الرياضيـة ، خصائص مترابطة فيما بينها ترابطا ضروريا تعمل منه كل طبيعـة ولا يستطيع الفكرة ازاء تلك (١) الطبيعة وتلك الضرورة الا أن يقرهما ثم أن يستخدمهما في تقدمه العلمي المتصل •

ويرى ديكارت أنه يمكن التفكير في الله وفي موضوع وجوده على نحو مماثل للتفكير الرياضي الوصول بمقتضى ذلك الى يقين مماثل لليقين الرياضي • فكما أن فكرة المثلث تقتضي منا أن نقرر أن زواياه مساوية لقائمتين ، كذلك تقتضي فكـرة الكائن الكامل أن ننسب اليه الوجود بالضرورة • ففكرة الكائن الكامل هي فكرة كائن لديه جميع الكمالات • ولن يكون هذا الكائن تام الكمال ما لم نقرر الوجود فيه • الكائن الكامل اذن موجود (٢) •

---

(١) ديكارت : التأملات ـــ التأمل الخامس ص ٢٠٢ .

(٢) ديكارت : المقال في المنهج : التأمل الخاص (٢٩٣ ـــ ٢٠٤) .

هذا الدليل على وجود الله هو المعروف بالدليل الوجودي لأن الفكر ينتقل فيه مباشرة الى وجود الله • وانتقال الفكر هذا الى الوجود هو ما جعل الدليل موضع جدال واعتراض أثناء حياة ديكارت وبعد موته • اذ كيف يمكن تبرير الدليل بالاعتماد على مثال العلم الرياضي الذي لا يخرج الفكر فيه لحظة الى الوجود ؟•

تقوم المقارنة بين فكرة الكائن الكامل وبين الافكار الرياضية على أساس أن جميع هذه الافكار بما فيها فكرة الكائن الكامل أفكار لطبائع ثابتة حقيقية • والاعتراضات على الدليل السابق لا بد صادرة عن عدم ادراك للمقارنة المذكورة وعدم فهمهم لنظريته في الافكار والطبائع الثابتة الحقيقيـة • فالأفكـار الرياضية وفكرة الكائن الكامل كلها أفكار لطبائع ثابتة حقيقية أي الطبائع تمتاز كل منها بضرورة داخلية معينة • فكل فكرة رياضية تتمايز عن الأخرى لطبيعتها ، ولكل منها طبيعة وضرورة خاصة بها • كذلك فكرة الكائن الكامل فكرة ثابتة حقيقية ، ولهذه الطبيعة ضرورة معينة خاصـة ، تميزها من الطبائـع الرياضية • واذا كان من المحقق أن لدينا فكرة عن الكائن الكامل فالسؤال هو بصدد ما يميز تلك الفترة أو بصدد ما يميز طبيعة وضرورة هذا الكائن الكامل الذي لدينا عنه فكرة ، عن الطبائع الرياضية التي لدينا عن كل منها فكرة واضحة متميزة • فيما تتمايز فكرة الكائن الكامل عن تلك الافكار ؟ انها تتمايز عنها ، ويصح أن نقول أنها تمتاز عليها ، بأنها فكرة لكائن لا تنفصل ماهيته عن وجوده ، فكرة لكائن تقتضي ماهيته وجوده (١) بينما

---

(١) ديكارت : الاجابة عن الاعتراضات الاولى ٢٤٦ •

لم تنقض ذلك أي فكرة من الافكار الاخرى • فكرة الكائن الكامل فريدة بين الأفكار وتتمايز (١) عنها ، كما تتمايز فكرة المثلث عن فكرة الدائرة وعن فكرة المربع • ولفكرة الكائن الكامل هذه ضرورة تفرض علينا أن نقرر وجود موضوعها ، كما كانت لفكرة المثلث ضرورة تفرض علينا أن نقرر للمثلث زوايا ثلاثة مساوية في مجموعها لقائمتين •

وكما أننا فكرنا في المثلث ، اعترفنا بأن زواياه مساوية لقائمتين ، كذلك كل مرة يأتي لنا فيها التفكير في الكائن الأول ، وجب علينا الاعتراف بوجوده ، وان كان الامر كذلك فهذا التفكير في الكائن الكامل ، صورة طبق الاصل لهذا الكائن ، وأثر أول في النفس لا يمحى لطبيعته وضرورته ، واذا كان الامر كذلك تبينت لنا وحدة الأدلة على وجود الله وأنها في نهاية الأمر صفة لدليل واحد •

ديكارت ووجود العالم :

يلاحظ ديكارت بعد أن علم أنه موجود وأن الله موجود علما يقينيا أنه هو موجود أيضا • بمعنى أن له نفسا متميزة عن بدنه ، وهي قادرة على أن تبقى بدونه ، كونها خالدة لا تموت • ويذهب الى أنه طالما أن الله موجود ، ولليقين بوجود الله منزلة رفيعة عنده • أي عند ديكارت فمن دون الله كان يظل سجينا في « الكوجيتو » لا يبرحه ، ومن دونه كان يعرف نفسه ولا يعرف شيئا آخر • ولكن وجود الله ضمان لكل علم ولكل يقين ،

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الخاص ص ٢٠٥ .

وبوجوده يستطيع أن يعبر الهوة التي حفرها الشك بين فكره وبين الاشياء ، ويمكن أن يطمئن الى وجود العالم الخارجي • ذلك أن الميل الطبيعي القوي الذي يشعر به ، والذي يدعوه الى الاعتقاد بوجود ذلك العالم ، هو ميل يستحيل أن يقوده الى ضلال ، ما دام قد استفاده من الله الذي هو الكامل الصادق الذي لا يخدع • ومنذ الساعة التي عرف فيها الله أيقن بوجود الاشياء ، وأصبح الشك أمرا مستحيلا ، وذهب ما بقي لديه من ارتياب ، وحل محله ثقة بالعقل لا تتزعزع •

ويقول ديكارت : أستطيع أن أثق من النتائج التي تقود اليها الاستدلالات العقلية مهما يكن حظها من الطول والتعقيد ، ما دمت أراعي فيها شرطا واحدا : أن يكون لي فكرة واضحة متميزة عن كل حلقة في سلسلة الاستدلال ، قد يحدث أحيانا أن أضل في بحوثي ، ولكني حينئذ أنا المسؤول وحدي : لأني حر ، وارادتي لا متناهية ، وقد تتعجل ارادتي في الحكم على الاشياء مثل أن يراها عقلي بوضوح وتمييز •

والله اذا منحني الحرية والاختيار ، منحني القدرة على الخطأ والصواب ، ووجود الله هو الذي يضمن وجود العالم الخارجي ، ولكن العالم الخارجي (١) لا يمكن أن يكون وجوده الحقيقي على نحو ما نعرفه بحواسنا ، لأن الأحاسيس انما هي غامضة مبهمة لا تؤدي الى اليقين الذي نتوخاه ، ولن يكون لنا من الاحاسيس أي يقين عن طبيعة الضوء أو الصوت مثلا • والضمان الالهي يفيد أن ما يصح أن يوجد حقا انما هو ما

---

(١) ديكارت ــ مبادىء الفلسفة : الباب الاول ص ١٢١ •

يكون موضوعا لفكرة · فاذا بحثنا وأمعنا النظر لم نجد في تصورنا للعالم الخارجي الا فكرة واحدة متميزة دائمة باقية مهما تتغير الصفات الحسية : تلك هي فكرة (الامتداد) الذي هو موضوع بحوث المشتغلين بالهندسة ، ونستطيع الآن أن نتخذ مبدأ الأفكار الواضحة المتميزة وسيلة نستطيع بها أن نطلق الأحكام على وجود العالم المادي وعلى طبيعته ·

فاذا لقينا جسما ما فيكفي أن نسأل أنفسنا بصدده : عن أي شيء يكون لدينا فكرة واضحة متميزة حين نفكر في هذا الجسم ؟

لنأخذ مثلا هذه القطعة من شمع العسل ، ولم يمض على استخراجها من الخلية الا زمن قصير : فهي لم تفقد بعد حلاوة العسل الذي كانت تحتويه ، ولم يزل بها شيء من رائحة الزهور التي قطفت منها ، لونها وحجمها وشكلها أشياء ظاهرة للعيان ، وهي الآن جامدة باردة تستطيع أن تلمسها ، واذا نقرت عليها أحدثت صوتا ما ·

وأخيرا جميع الاشياء التي يمكن بتميز أن تجعلنا نتعرف على الجسم ، نلقاها في الشمعة · ولكن بينما أنا أتكلم ، أصفها قرب النار ، فاذا أشاهد ، تذهب بقية طعمها ، وتتلاشى رائحتها، ويتغير لونها ، ويضيع شكلها ، ويزيد حجمها ، وتصبح من السوائل ، وتسخن حتى لا نكاد نستطيع لمسها ، ومهما ننقر عليها فلن ينبعث فيها صوت · أما تزال الشمعة باقية بعد هذه التغيرات جميعا ؟ يجب أن نقر بانها باقية ، ولا يستطيع أحد انكار ذلك · فما الذي كنا نعرفه في قطعة الشمع هذه بتميز

ووضوح ؟ لا شيء يقينا من كل ما لاحظته فيها عن طريـق الحواس ، ما دامت الاشياء التي كانت تقع تحت حواس الذوق، أو الشم ، أو البصر ، أو السمع ، قد تغيرت كلها في حـين أن الشمعة (١) نفسها باقية ٠

من هذا المنطلق التحليلي لذلك المثال ، يستنتج ديكارت أن الشمعة ليست تلك الرائحة ، ولا ذلك اللون ، ولا تلك المقاومة ، ولا ذلك الشكل ، وان الحواس لا تدركها في طبيعتها وكيانها ، وانني لم أستطع أن أفهم بالخيال ما هي قطعة الشمع هذه ، وانما ذهني وحده هو القادر على أن يفهمها ، وهو القادر أن يتعقبها دائما ٠ ومهما تحترق الشمعة ومهما تتلاشى ، فالذهن يلحقها حيث تكون ٠ والشمعة موجودة وان غابت عن العيان ، وهي باقية وان تناثرت أجزاؤها وذهبت عناصرها فرقا ٠

والذي يبقى من الشمعة ، والذي يدركه الذهن فيها بوضوح وتميز ، انما هو امتدادها ، لا ذلك الامتداد الحسي الذي أتمثله بحواسي وبخيالي ، بل هو الامتداد الذهني المجرد من الألوان والأصوات والمماسات ٠ وليس الامتـداد هو ماهية الشمعـة فحسب ، على نحو ما شاهدنا من التحليل السابق ، بل ليس بالجسم وليست المادة شيئا غير هذا الامتداد المجرد الذي يدركه الذهن ، والذي هو أشبه بفضاء صاحب الهندسة ٠ واذن فالامتداد وحده هو « الصفة الأولى » وهو جوهر الجسم المستقل عن جوهر النفس ٠

---

(١) ديكارت : التأملات : التأمل الثاني ص ٨١ .

أما الألوان والاصوات والروائح والطعوم فكلها صفات ثانية ، وليس لها وجود في ذاتها وانما وجودها في أذهاننا ٠

يتضح من ذلك أننا لا نعرف « العالم الخارجي » معرفة مباشرة بالحواس ، ولا ندركه ادراكا مباشرا كما هو في ذاته ، وكل ما نعرفه عنه هو الصور الذهنية التي في أذهاننا ، أما أن هذه الصور والافكار مطابقة لموجودات حقيقية لا وهمية ٠ فهذا ما لا نعلمه الا بالواسطة ٠ أي بفضل الصدق الالهي : لأن من غير الممكن أن تخدعنا الافكار التي أودعها الله فينا مع ميل قوي الى الاعتقاد بأنها صحيحة ٠

لاحظنا من خلال دراستنا لآراء ديكارت في وجود النفس ككائن في الزمن ووعي مباشر بالوجود الزمني ٠ وهذه هي ظاهرة الوجود الزمني النفساني ٠ وعلى هذه الظاهرة أقام الدلالة علي وجود الله ٠ وهذا يعني نظرية « الخلق المستمر » وتجسيدها بين فيما يتعلق بوجود النفس ٠ وديكارت اذ عرضها في تلك الصورة في « كتاب التأملات » فهو قد عرضها قبل ذلك في صورة عامة وبصدد العالم المادي ، وبصدد فلسفة الطبيعة كلها ، وذلك في كتاب « العالم » ثم في « المقال عن المنهج » حيث يقرر أن الله يحفظ العالم في الوجود ، على نفس النحو الذي خلقه عليه ، وأن الفعل الذي يحفظه به العالم ، لا يختلف عن ذلك الذي خلقه به (١) وأن تلك القدرة التي خلقته لأول مرة ،

---

(١) ديكارت : المؤلفات الكاملة « العالم » المجلد الحادي عشر ص ٣٧ المقال عن المنهج ١٢٢ ٠

لا بد من افتراضها من جديد في كل لحظة من لحظات الوجود (١) ·

ويجسد ديكارت هذه المفاهيم ، بشأن العالم المادي ، في مجال لا يشير فيه الى أدلة على وجود الله ، وكأنه لا يحتاج الى أدلة ، أو كأنه ينتقل مباشرة من صفة الحدوث الزمني في العالم ، الى الاقرار بأن العالم مخلوق وبوجود خالق ، كما ينتقل مباشرة من ظاهرة الوجود الزمني النفساني الى اثبات الله الخالق ·

ومن الواضح أن لنظرية الخلق هذه نتيجة ميتافيزيقية لاهوتية مباشرة · ان الله اذ يخلق العالم خلقا مستمرا ، واذ يحفظه كما يخلقه ، فهو لم يخلقه شيئا فشيئا ، متنقلا به من أبسط الصور الى أكثرها تعقيدا ، ومعتمدا في ذلك على الزمن والتغير الزمني · به انه خلقه في الأصل ، على الصورة التي نراها عليها الآن (٢) · وتذكر الكتب السماوية بصدد آدم والجنة التي عاش فيها ، الى أن الله خلق الانسان ، وكائنات العالم في صورة كاملة تامة ·

ومن الملاحظ أن هذا المعنى اللاهوتي الميتافيزيقي للخلق يجاوز افهامنا الانسانية · ولكنه لا بد للفيلسوف من بيان علاقة ما بين حقيقة الخلق ، وطبيعة العلم وتطبيقاته العلمية الصناعية · وقد لاحظنا مشروع ديكارت في العلم والعالم المادي أنه لا ينفصل عن الناحية التطبيقية للعلم . ورأينا أن المنهج في غايته وأهدافه متجه الى تلك الناحية التطبيقية ، وأنه في ضوء

---

(١) ديكارت : التأمل الثالث ص ١٨٩ ، الاجابة على الاعتراضات الخامسة ٣٨٣ .

(٢) ديكارت : المقال في المنهج ص ١٢٢ .

تلك الاهداف يمهد الطريـق للعلـوم الرياضية في صيغتهـا التحليلية ، كما يمهـد الطريق للعلوم الطبيعيـة في صيغتهـا الميكانيكية الهندسية (١) ·

ولم يخامر ديكارت الشك لحظة واحـدة ، في امكان هـذا المشروع العلمي ، لا في المرحلة المنهجية ، وقبل أن يميز مسألة الخلق بصدد حقائق العلم ، ولا في المرحلة العلمية التالية لموقفه في خلق الحقائق العلمية ، ولا في المرحلتين الفلسفية والاخلاقية، كونه أشار في كتابه « مبادىء الفلسفة » الى أن الفروع الرئيسية لشجرة الفلسفة هي الميكانيكا والطب والاخلاق (٢) ·

ويؤدي المشروع الذي وضعه ديكارت حول المنهج والعلم الى اعتبار العالم الطبيعي امتدادا هندسيا ترجع الحركات منه الى تغير أجزاء الامتداد في أوضاعها المتبادلة · ويعبر ديكارت عن هذا المشروع في كتابه « القواعد » عن نظرية خلق الحقائق ، ثم يتجه الى نظرية « الخلق المستمر » التي يربطها بمظاهـر علمية فيزيائية ، يحاول فيها أن يستدل على أوضح المعانـي الخاصة بأصول العالم المـادي ، تعتبر وصفـا لهـذا العالم ولظواهره ، قائما على تلك الأصول ، ومتناسبا مع تلك النظرية الميتافيزيقية اللاهوتية ·

ويرى ديكارت أنه من المفروض أنه يتعذر على الانسـان رؤية علاقة الفعل الالهي المطلـق للخلق بتفـاضل الاحـداث

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج ص (٧٥ — ٧٧) .
(٢) ديكارت : المقال في المنهج ص (٧٥ — ٧٧) .

الزمنية ، وبما أنه من الضروري أن يقف الانسان على تلك الأوجه التي يستطيع بها السيادة على العالم والسيطرة عليه ·

ويتصور ديكارت في كتابه « العلم » العالم ونشاته ، فيرى نفسه متفرجا على عالم جديد غير عالمنا هذا ، عالم جدير بأن يكون الله خالقه ، ويتفق وحقيقة الخلق المستمر ومعاني النفس الواضحة ، ويتناسب ومطالب العمل والتطبيق والصناعة (١) ·

ويطلع علينا ديكـــارت بالمعنى الواضح عـــن أصول العالم المادي ، فيرى أنه ليس سوى معنى الامتداد ، وما يتبع ذلك من تصور هندسي للحركة والتغير العالمي ·

أما الوصف الذي يتخيله ، فهو الوصف الميكانيكي ، لأن المادة التي يعمل العالم منها يجب ألا نفرض فيهـــا خصائص نراها ونشاهدها بأعيننا في أجسام دون أخرى ، انما يجـــب تصورها على نحو يفهمه ويقره العقل الطبيعي النير ، ذلك العقل الذي يهتدي بالمبادىء الرياضية · فالمادة امتداد هندسي يملأ المكان ويشغله ، بحيث لا يبقى فيه خلاء أو فراغ ، لأنه مما لا يمكن تبريره أن يكون الله خلق أجزاء مادية في مكان ، وترك العدم في مكان آخر · اننا أمام ملأ هندسي مطلق (٢) ·

ويرى ديكارت أنه لا يمكن أن ننسب للامتداد أي صورة من تلك الصور الجوهرية الغامضة التي افترضها المدرسيون ، أو

---

(١) ديكارت : « العالم » المجلد الحادي عشر ·

(٢) ديكارت : العالم — المجلد الحادي عشر — مبدأ الفلسفة جـ٢ ف١٦ ·

أي مظهر من مظاهر القدرة والفاعلية • باعتبار أن الامتداد جامد كل الجمود وان صح ذلك فهذا يعني أن الحركة لا يخرج معناها عن أجزاء الامتداد وعن تغير أوضاعها فيما بينها •

ولذلك كان المبدأ الاول الذي يخضع له العالم في حركته هو مبدأ القصور الذاتي ، أي مبدأ الجمود • وينص هذا المبدأ على أن كل جسم يظل على الحال التي هو عليها ، ولا يتركها الا عند احتكاكه بالأجسام الأخرى (١) • وهذا يعني أن الجسم الساكن يظل ساكنا ، والجسم المتحرك يبقى متحركا بحركة مستقيمة منتظمة ، ما لم تتغير حاله من السكون الى الحركة باحتكاكه بجسم آخر •

ومن هذا المنطلق كان الله السبب الاول الفعال للحركة والحدوث والتغير في العالم ، فالسبب الظاهر هو الاحتكاك ، والاحتكاك سبب غير فعال يتناسب والقدرة الالهية ، والاحتكاك ينجم عنه تغير الحركة في العالم الذي يقصد منه التقاء جسم آخر ، وحدوث التغير عند هذا الالتقاء ، على أن يكون التغير في لحظة الاحتكاك ذاتها ويؤتي الاحتكاك أثره فورا •

أي أن فعل الاحتكاك قائم في نفس الفترة ولا يتجاوزها ، ولا يحتمل دواما أو ديمومة ، انما يقوم ليتلاشى • وعلى ذلك كانت الاحتكاكات التي تؤدي الى التغير العالمي قائمة في فترات ، ان كانت متتالية فهي منفصلة ، فلا بد من قدرة عليا للربط بين تلك الاحتكاكات ولجعل التغير متواصلا ، واقامة العالم

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة جـ٢ فقرة ٣٧ .

الحادث المتحرك . والمثال على ذلك حركة الضوء . فالضوء يدرك الناظر اليه نورا ، وينتقل الى العين ، كما تنتقل حركة العصا من أحد طرفيها الى الآخر ، انتقالا فوريا ، ويرى ديكارت أن فلسفة الطبيعة كلها تنهار لو صح تأخر فعل الضوء أثناء انتقاله ، وذلك لأن التأخر يقتضي انفصالا في الامتداد أو خلاءا، أي عدما مطلقا ، وهو ما لا تسمح به القدرة الالهية . وهذه القدرة هي قدرة الخلق المستمر . وان كان الخلق مما يجاوز عقولنا البشرية ، فهناك مقابل له في عالمنا الجامد هذا الذي ترجع الحركات فيه الى احتكاك يقوم في لحظة ليتلاشى .

وهذا يعني احتفاظ الحركة بمقدار ثابت لا يتغير في جميع لحظات العالم ، أو هو مبدأ ثبات مقدار الحركة . ففي جميع لحظات الزمن منذ اللحظة العالمية الأولى ، كان مقدار الحركة التي طبعها الله على العالم واحدا بعينه ، وعلى ذلك كانت حال العالم في لحظة معينة ، معادلة لها في أي لحظة أخرى ، وكان تغير في تلك اللحظة كما في غيرها يقوم تبعا للاحتكاك ، دون أن يكون هناك تغير ما في مقدار الحركة العالمية ذاتها .

ويشير ديكارت الى قوانين الاحتكاك السبعة التي تنشأ عنها التغييرات الكبرى في العالم . ثم يمضي بفضل فكرتي الامداد والحركة الهندسية ، في استدلال متصل لقوانين العالم وظواهره العامة ، تلك التي يمكن أن تتخذ الصيغة الرياضية اليقينية ، الى أن يبلغ المرحلة التي يجب الانتقال فيها من الاستدلال الى التجربة ، وذلك عندما تؤدي القوانين الطبيعية الى عدة نتائج محتملة لحلها . وتتفق كلها مع التفاصيل الواقعية القائمة بالفعل في هذه المرحلة يلتجيء الطبيعي الى التجارب ، ولكنه

في هذه المرحلة يأخذ صيغة السيادة ، من حيث أنه لا يفترض التفسير فحسب ، بل يفرضه على الطبيعة فرضا ٠

ويكون ذلك باعتبار ظواهر الطبيعة وآثارها ناتجة عن اجتماع أجزاء الامتداد ، لها شكل (١) هندسي معين وحركة معينة ، على النحو الذي تجتمع عليه أجزاء آلة صناعية أو أجزاء جسم مصنوع ٠ ويلاحظ ديكارت أن هذه الموازنة بين ظواهر الطبيعة وآلات الصناع ومصنوعاتهم قد أفادته أعظم الفائدة في كل تفسير قام به للظواهر الخاصة ٠ وأن لا فارق بين تلك الآلات والمصنوعات بوجه عام ، وبين الظواهر الطبيعية الا في أجزاء الآلات التي تؤدي الى النتائج المطلوبة ، كبيرة بحيث تلتقيها أو تدركها أعضاء الجسم الانساني ، بينما كانت أجزاء الظواهر الطبيعية صغيرة جدا تجاوز ادراكنا وحواسنا ٠

ويمكن تفسير الظواهر الطبيعية بالاستعانة بأجزاء المادة على نحو يمكن معه استحداث ظواهر مماثلة لتلك التي يريد تفسيرها بالغرض الطبيعي ليس سوى بعمل تركيبي ، والتفسير الطبيعي تركيب للظواهر من جديد ، أو محاولة من جانب الانسان بوجه عام ، والطبيعي بوجه خاص لصناعة الظواهر أو لصناعة ما يعادلها ، ويماثلها أو يشابهها ولذلك كان الطبيعي عالما ومهندسا وصانعا في الوقت ذاته ٠

ويخلص ديكارت من كل هذه الأبحاث الى اعتبار ذاته متفرجا على ذلك العالم الجديد الذي يستطيع الله أن يخلقه في أي لحظة،

---

(١) ديكارت : مبادىء الفلسفة جـ ٤ فقرة ٢٠٣ .

من الامتداد والحركة الهندسية وحدهما · ثم نلاحظ أن ديكارت يتخيل ذاته صانعا ، يستخدم الامتداد والحركة ، لا لتكميل الصناعة الالهية ، وهي كاملة منذ البدء ، بل لصنع ظواهر تماثل التي توجد في العالم · وبذلك نصبح سادة على الطبيعة ومسخرين لها (١) ·

قدم العالم بمفهوم ارسطو :

اذا تصفحنا ما كتبه أرسطو حول قدم العالم وأزلية الحركة مستندا على حجج كثيرة تدلل على أحقية هذا الاعتقاد وعمقه ، فهو يرى أن العلة الأولى ثابتة أي أنها كما هي دائما لها نفس قدرتها على الفعل ، وانها تحدث دائما نفس معلولها ، فلو افترضنا أنه كان هناك سكون في وقت ما ولم تكن ثمة حركة ، فان معنى ذلك أنه لن تكون هناك حركة بعد ذلك ، واذا فرضنا أن هناك حركة صادرة عن العلة الأولى فانها ستستمر قدما وتبقى كما هي لأنه اذا قلنا أن العلة الأولى بقيت ثابتة زمنا ما ، ثم صدرت عنها حركة تكون هي سبب العالم وحدوثه فاننا نتساءل ما الذي رجح في ذات العلة الأولى احداث هذه الحركة في الوقت الذي أحدثت فيه ولم تحدث في وقت آخر غيره ·

لا بد أن ثمة مرجحا اقتضى حدوثها في الوقت الذي استحدثت فيه بالصورة التي حدثت بها · واذا سلمنا بهذا فكأننا نسلم بوجود تغير في العلة الأولى ، وقد ذكرنا أنها ثابتة على الدوام · واذن فاننا نقع في تناقض مرده أننا نقول بأن فعل الحركة فعل

---

(١) ديكارت : المقال في المنهج : جـ٦ ص ١٣٤ .

محدث ، لهذا يجب التسليم بقدم العالم والحركة • واستنادا الى هذا البرهان على قدم العالم يناقش « أرسطو انكساغوراس » الذي أشار الى أن العقل ظل ساكنا زمنا لا متناهيا ثـم حرك الأشياء • ويؤكد استحالة هـذا الرأي لأنه يعني أن العلـة الأولى متغيرة ، وقد قلنا أنها ثابتة • فيلزم أن نرفع عنها الحركة المحدثة في الزمان وأن نسلم بقدم الحركة •

ويعالج أيضا أرسطو الاعتقاد القائل بأن العالم يمر بدور حركة يعقبه دور سكون ، فيتساءل عن المرجح لوجود سكون بعد الحركة ، ثم للحركة بعد السكون ؟ ويقدم بهذه المناسبة بعض الحجج التي يثبت بها قدم العالم والحركة بعضها متصل بقدم الهيولي وبعضها يثبت فيها قدم الحركة بقدم المتحرك والمحرك والزمان •

ويرى الدكتور يوسف كرم أن الحجج التي قدمها أرسطو مركبة على نمط واحد حتى تكون حجة واحدة في الحقيقة • هي طائفتان : طائفة خاصة بقدم العالم ، وأخرى خاصة بقدم الحركة •

ففي قدم العالم يذهب أرسطو الى أن الهيولى أزلية أبدية ويقول : لو كان الهيولى حادث عن موضوع لكنها هي موضوع تحدث عنه الاشياء ، بحيث يلزم أن توجد قبل أن تحدث ، وهذا خلف ، ولو كانت فاسدة لوجبت هيولى أخرى تبقى لتحدث عنها الأشياء ، بحيث تبقى الهيولى بعـد أن تفسد ، وهـذا خلف كذلك (١) •

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٤٥ .

نقول : صحيح في التفسيرات الجزئية أن الهيولى ليست حادثة لأنها موضوع تحدث فيه الصورة ، ولكن اذا وصفنا حدوث العالم فما الذي يمنع أن تحدث الهيولى ؟ ونلاحظ على الشق الثاني (لو كانت الهيولى فاسدة ...) انه قائم على الاعتقاد بأبدية العالم ، وليست هذه الابدية ضرورية ، شأنها شأن الازلية سواء بسواء .

ويقول أرسطو (١) : ونتبين ضرورة القول بقدم الحركة من اعتبار المتحرك والمحرك والزمان ، أما المتحرك فلا يخلو أن يكون اما قديما أو حادثا ، فان كان حادثا وكان الحدوث ، أو الكون يقتضي الحركة كان كونه تغيرا اقتضى حركة سابقة على البداية المزعومة للحركة .

وهذا خلف ، وان كان قديما فهو متحرك لا ساكن . لأن السكون ما هو الا عدم الحركة ، فهو متأخر عنها ، يقتضي احداثه حركة أولى قبل الحركة وهذا خلف .

وأما من جهة المحرك فان عدم الحركة يعني أن المحرك أو المتحرك بعيدان الواحد عن الآخر ، فلأجل أن تبدأ الحركة ، لا بد من حركة تقدم بينهما ، وهذه الحركة تكون سابقة على بداية الحركة . وأما الزمان فهو مقياس الحركة أو هو نوع من الحركة ، فان كان قديما كانت الحركة قديمة .

وقد أخطأ أفلاطون في معارضته قدم الزمان ، فان الزمان

---

(١) ارسطو : السماع الطبيعي م٨ ف١ ص ٢٥١ .

يقوم بالآن ، والآن وسط بين مدتين ، هو نهاية الماضي وبداية المستقبل ، فليس للزمان بداية ولا نهاية ، والا لزم أن يكون زمان قبله ولا بعده ، ولكن قبل وبعد يتضمنان الزمان ، فهذا خلف • نقول عن الحجة الأولى الخاصة بالمتحرك : ليس الخلق كونا بأنواع الكون المشاهدة في هذا العالم والتي تتم في موضوع بتأثير محرك مادي ، ولكنه احداث من لا شيء ، فهو ليس حركة ، ولا يقتضي الحركة كما ظن أرسطو •

وعن الحجة الثانية بالمحرك نقول : لما كان الخلق ابداع الشيء بمادته وصورته ، فلا يمكن أن يصور بأنه حركة من العلة نحو موضوع ، ثم ان العلة الأولى عند أرسطو ليست محرك كعلة فاعلية ، بل كعلة نمائية وليس يقتضي فعل الغاية تماسا واقترابا ، فالحجة ساقطة من الجهتين ، ونجيب عن الحجة الثالثة الخاصة بالزمان بأن الآن وسط بين مدتين متى بدأ الزمان •

أما عند بدايته فالآن الاول أول بالاطلاق ، ولا يمكن وضع زمان سبل الزمان الا بالوهم ، مثل المكان الوهمي الذي نتخيله خارج العالم سواء بسواء ، وأرسطو نفسه يقول أنه ليس خارج العالم خلاء •

فنقول كذلك ليس قبل الزمان زمان ، وكما أن « خارج » يدل في قولنا « خارج العالم » على مكان بالقوة لا بالفعل ، فان « قبل » يدل على زمان بالقوة لا بالفعل •

هذه حجج أرسطو ركبها للتدليل على قدم الحركة ، وهي

لا تستقيم الا مع الاعتقاد بهذا القدم ، فأولى بها أن تسمى مصادرات ، لا حججا أو أدلة (١) ٠

ونظن أنه انما تورط فيها لاعتقاده أن ثبات العلة الأولى يستتبع بالضرورة دوام المعلول ، وكان يكفيه اذ يلحظ ما بينهما من تفاوت كما ذكرنا ، فيعلم أن هذا التفاوت يبطل ضرورة العالم ، ويعلم أن فعل العلة الأولى غير ضروري كذلك ، وانما هو فعل حر ، ثم يرقى بالتنزيه ٠ فيتصور الحرية في الله بحيث لا تتنافى مع الثبات ـ ولكن هذه الخطوات لم يخطها العقل الا المسيحية بعد أرسطو بزمن طويل ٠

أرسطو والنفس :

النفس البشرية عند أرسطو هي صورة الجسد ومبدأ الحياة فيه ، وعلم النفس هو جزء من العلم الطبيعي لأن موضوعه وهو الكائن الحي ، مركب من مادة وصورة ٠ والافعال الحيوية تنقسم قسمة أولى الى النمو والاحساس والنطق أو العقل ٠ يضاف الى ذلك النزوع ، لأن الحاس والناطق ينزعان الى الخير الذي يدركانه بالحس أو بالعقل ٠

والنفس البشرية برأي أرسطو تتميز بثلاث قوى ، المغتذية، والحساسة والفاهمة ٠ ويرى أيضا أن النفس مبدأ وأصل الفهم والاحساس ، والحس هو سبب الفهم ، وبذلك خالف معلمه أفلاطون الذي جعل الفهم والمعرفة نتيجة تذكر النفس معارفها

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية : كرم ص ١٤٧ ٠

القديمة · وأنكر أرسطو خلود النفس وقال ان العقل السامي يمكن أن يتسرمد ·

ثم يعرف النفس فيقول بأنها : « ما به نحيا ونحس فنعقل وننزع ونتحرك في المكان » · ولكل حي نفس ، ولكنها تختلف باختلاف الأحياء ،وتتعدد قواها ووظائفها كلما ارتقى الشخص في سلم الحياة · ويقول أرسطو واصفا حاله مع نفسه « انـي ربما خلوت بنفسي كثيرا ، وخلعت بدني ، فصرت كأني جوهر مجرد بلا جسم ، فأكون داخلا في ذاتي راجعا اليها ، وخارجا من سائر الاشياء سواء ، فأكون العلم ، والعالم ، والمعلوم جميعا ، فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء متعجبا منه ، فاعلم عند ذلك أني من العالم الشريف ، جزء صغير ، فلما أيقنت بذلك ، ترقبت بذهني من ذلك العالم الى العالم الالهي ، فصرت كأني هناك متعلقا به ، فعند ذلك يلمع لي من النور والبهاء ما تكل الألسن عن وصفه ، والأذان عن سمعه ، فاذا استغشى في ذلك النور وبلغ الطاقة ، ولم أقو على احتماله ، هبطت الى عالم الفكرة ، فاذا صرت الى عالم الفكرة ، حجبت الفكرة عني ذلك النور » ·

ويذهب أرسطو الى أن النفس لا يمكنها الوجود بدون الجسد لأنها قواه ، فكلاهما كالشكل والشمع ، يمكن الفصل بينهما بالفكر فقط ، لكنهما في الواقع والحقيقة كلا كاملا عضويـا واحدا · ويرى أن النفس لا تحقن في الجسد ، كمـا حقـن « ديدالوس » الزئبق في صور « مينوس » ليجعل منها «انتصابات» فالنفس الشخصية والخاصة لا توجد الا في الجسد الخاص بها · ومع هذا فهي ليست مادية ولا تموت بأكملها ، لأن هناك جزء من القوة العقلانية للنفس البشريـة يكـون سلبيـا ومرتبطا

بالذاكرة ، فهو الذي يموت بموت الجسد حامل الذاكرة ،والذي يظل ويتسرمد العقل الايجابي الفاعل الذي يكون مستقلا عن الذاكرة بشكله المجرد • والنفس الخالدة عند أرسطو هي الفكر المحض •

وعلم النفس حسب رأي أرسطو يبحث حول موجودات طبيعية مركبة من صورة وهيولى • باعتبار أن الانفعالات كالغضب والخوف لا تصدر عن النفس وحدها بل عن المركب من النفس والجسم ، ففي الغضب مثلا نلاحظ أن الذي يحدث هو انفعال نفسي يصاحبه تبدل جسمي ، وكذلك بالنسبة للاحساس فهو أيضا فعل النفس بمشاركة العضو الحساس المعد لادراك المحسوس كالعين والأذن فلا يمكن أن يقال على فاقد العين أن له قوة الابصار ، ذلك أن هذه القدرة مرتبطة بالعين كعضو له •

أما التعقل فهو خاص بالنسبة الا أنه لا يمكن أن يقوم الا على أساس التخيل ، والتخيل لا يتحقق بدون الجسم : اذن فجميع الأفعال النفسية في الاجسام الحية متعلقة بالجسم وداخله في العلم الطبيعي • ويذكر أرسطو في كتابه النفس الذي يضم ثلاث مقالات في المقالة الأولى : في مذاهب القدماء الرئيسية في النفس ، ولهذه الآراء أهمية تاريخية كبرى لأنها تعتبر أحد المراجع الرئيسية لآراء السابقين على سقراط ، ولو أنه يبدو أن أرسطو يحور آراء القدماء حسب مذهبه تمهيدا للرد عليهم ومناقشة أقوالهم •

ويخصص المقالة الثانية : لتعريف النفس حسب رأي أرسطو بأنها كمال أول لجسم طبيعي آلي •

ثم شرح دواعي القول بهذا التعريف ، والكلام عن القوى الحاسة ·

.ما المقالة الثالثة : فيفردها للنفس وقواها ، وفي القوى المحركة عموما ، وقد كان لهذه المقالة تأثير كبير على فلسفة أفلاطين ، وفلسفة القرون الوسطى بوجه عام ، كونها أثارت مشكلة العقل المفارق مناقشات كثيرة رد فيها فيليبون على الاسكندر الأفروديسي وأفلاطين ، وكذلك فعل ابن رشد ، ويعود هذا الى غموض نص أرسطو في كلامه عن العقل المفارق ، وتفسير الاسكندر لهذا النص واعتبار هذا العقل خارجا عن النفس ، وتسميته له بالعقل الفعال · وللاسكندر رسالة في العقل والمعقول يرى فيها هذا الرأي · وقد كتب الفارابي رسالة في العقل تتضمن موقف الاسكندر هذا الذي اتبعه فلاسفة الاسلام باستثناء ابن رشد وأبي البركات البغدادي · ويرى أرسطو أن المعرفة علي اختلاف أنواعها شيء حسن وجليل وهو يجعل دراسة النفس في المرتبة الأولى بالنسبة لسائر الأمور العرفانية وذلك لاسباب منها :

أ ـ أن هذه الدراسة دقيقة أي أنها تتطلب كثيرا من الدقة في البحث والاستقصاء ·

ب ـ ان موضوع هذه الدراسة وهو النفس أشرف وأسمى ما في الوجود الطبيعي ·

جـ ـ ان دراسة النفس تكشف عن جوانب الحقيقة الكاملة في مجال العلم الطبيعي لأن النفس صورة الكائن الحي ·

ثم يشرح أرسطو بعد ذلك عن غايته من بحثه أو من دراسته للنفس ، فيرى أن غايته من دراسته للنفس هي التعرف على طبيعة النفس ، وجوهرها ثم التمحيص بما يتعلق بطبيعتها من لوازم ، وهذا يعني أن أرسطو يهدف الى الوصول الى معرفة ماهية النفس عن طريق تعريفها بالحد التام ، وهو يستفسر عن المنهج الواجب سلوكه في هذه الأبحاث ، كونه يرى عدم وجود منهج واحد لسائر العلوم بل لكل علم منهج خاص به ، لذلك ثمة منهج خاص لعلم النفس يقوم على البرهان والقسمة .

ويذكر أرسطو أن طريقة البحث أننا نبحث أولا عن الجنس الذي تقع تحته النفس ، وهل هي جوهر أم شيء جزئي ، كيف أم كم شيء آخر من المقولات . وهل هي بالقوة أم أنها كمال أول ، وهل تقبل القسمة أم أنه لا أجزاء لها ؟ وهل سائر الأنفس من نوع واحد أم لا ؟ واذا كانت مختلفة فهل تختلف بالنوع أم الجنس ؟ وهل نبدأ بالبحث عن وظائف النفس أم عن النفس ذاتها ؟ ويشير أرسطو الى أن الاتجاه العام الذي كان سائدا عند القدماء هو البحث عن النفس الانسانية فقط ويريد هو في هذا البحث أن يبين علاقة نفوس الحيوان وغيره من الكائنات الحية بنفس الانسان . وهل تقع هذه النفوس كلها تحت جنس واحد أم لا ؟ .

ويذهب أرسطو الى أنه من الواضح أن العلم بالماهية لا يتيسر لنا قبل دراسة سائر أعراض الجوهر ، لأننا اذا أمكننا دراسة هذه الأعراض توصلنا الى تعريف حد الجوهر بالماهية . ثم ينتقل بعد هذا الى دراسة وظائف النفس : فيذكر أن الاحساس لا يتم بدون جسم وكذلك الفكر ، لأن الفكر القائم على التخيل ولا

يتحقق التخيل من غير الجسم ، فلا يمكن أن تمارس النفس وظائفها بدون البدن • وعلى ذلك فان جميع أحوال النفس توجد مع الجسم ، فعندما يحدث أي انفعال في النفس يحدث معه تغير جسمي ، واذن فأحوال النفس صور حالة في الهيولى ، ومن ثم فلا يجب أن نقول أن الغضب حركة هذا الجسم أو ذاك ، بل الغضب يتم بالنفس والجسم معا ، ولذلك أيضا كان البحث في النفس مما يخص العلم الطبيعي سواء فيما يتعلق بأحوال النفس أو جوهرها •

ويجمع أرسطو في تعريفه للنفس بين تعريف الجدلي الذي يعرف الغضب مثلا بأنه الميل الى الاعتداء ، وبين تعريف الطبيعي الذي يصف الغضب بأنه غليان الدم المحيط بالقلب ، فالأول يصف الصورة والثاني يصف الهيولى • أما أرسطو فيجمع التعريفين معا ويضيف الصورة الى الهيولى • ولما كان البحث في العلم يتناول المكون من صورة وهيولى كان من الضروري اعتبار علم النفس جزءا من العلم الطبيعي • ويصل أرسطو في نهاية المقالة الأولى الى القول بأن أحوال النفس انما تصدر عن الموجود المركب من نفس وجسم •

وبعد أن يحدد أرسطو مشكلات دراسة العلاقة بين علم النفس والعلم الطبيعي يرجع الى نهج المنهج التاريخي فيستعرض مذاهب القدماء السابقين عليه في النفس ويميز بينهما وبين مذهبه واعتقاده ، وقد لخص ما اتفق عليه القدماء من تمييز الكائن الحي الى غير الحي في ناحيتين هما : الاحساس والحركة ، فمن حيث الحركة نلاحظ أن جميع الفلاسفة الذين ذكروا أن الكائن الحي يتحرك ، أشاروا الى أن النفس هي الأولى بفعل

التحريك ، وأنها من نفس طبيعة ما يتحرك ، فالنفس في رأيهم هي المحرك وهي من نفس نوع الاشياء المتحركة أي أنها مؤلفة من العناصر التي قاموا بها • « فطاليس » وهو أول الفلاسفة يرى أن النفس هي قوة محركةويجعلهذه القوة المحركة سارية في جميع الاجسام فيقول ان المغناطيس له نفس لأنه يجذب الحديد ، « أما ديوجيني وانكسمانس » فقد قالا أن النفس هي الهواء ، وهي تعرف وتحرك • ومنهم من قال بأن النفس جرم لطيف ناري الطبيعة وهو أول ما يتحرك ويحرك ، « وهيرقليطس » من هذه الجماعة وعلى هذا فقد قال بأن النفس نار أثيرية وأنها في تغير مستمر ، وقد أسند « القمايون » الى هذا المبدأ وقال ان النفس خالدة لأنها تتحرك حركة أبدية وقال « هيبون » أن النفس ماء • أما « كريتيل » فقد قال أن النفس دم اعتقادا منه بأن الاحساس أخص صفاتها وأن هذا الاحساس مرده الى الدم • وبقي التراب فلم يقل أحد أن النفس تراب الا هؤلاء الذين جعلوا النفس تتألف من العناصر الاربعة « كأنباذوقليس » فانه جعل من ضمنها التراب ، فانباذوقليس ذهب الى أن النفس مركبة من جميع العناصر وأن كل عنصر منها هو أيضا نفس ، وقال أيضا بالأضداد أي المحبة والكراهية ، وأن النفس مؤلفة أيضا من قوى بالاضافة الىالعناصر ، « أما الفيثاغوريون وديموقريطس ولوقيبوس » فقد ذهبوا الى أن النفس نوع من النار والحرارة الا أنهم أضافوا الى رأيهم أن النفس مؤلفة من ذرات نارية كروية الشكل لطيفة لكي تكون أسهل في النفاذ الى الاشياء ، وذكروا أن النفس هي التي تمنح الحركة للحيوانات وهي كذلك الصفة الجوهرية للحياة ، ولكن فريقا من الفيثاغوريين اختلفوا

عن هؤلاء وقالوا أن النفس هي غبار الهواء ، ومنهم من قال لا بل هي التي تحرك هذا الغبار ، أما أفلاطون فيتفق معهم بقوله أن النفس هي التي تحرك ذاتها ، والحركة عنده هي أهم خاصية للنفس ، وأن كل شيء يتحرك بالنفس ، لكن النفس تتحرك بذاتها •

ويذكر أرسطو أن السبب في قول هؤلاء الفلاسفة بهذه الآراء عن النفس هو أنهم لا يرون محركا الا وهو نفسه يتحرك ، فاختلط عندهم مفهوم المحرك بالمتحرك ، ولم يفطنوا الى أن الذي يحرك غير الذي يتحرك ، وعلى هذا فان هؤلاء القدماء جعلوا الحركة في النفس تلقائية وألفوا النفس مما تتألف منه المادة •

أما ما تميزت به النفس بالاضافة الى الحركة أي الاحساس الذي هو طريق المعرفة من حيث قولهم أن الكائن الحي يعرف ويدرك الموجودات بالاحساس فقد خضعوا لمبدأ عام واحد هو أن الشبيه يدرك الشبيه ، ولذلك جعلوا النفس تتألف من العناصر التي تدركها • فمنهم من قال بعنصر واحد ومنهم من قال بعدة عناصر ، وقال بعضهم أنها جسمانية ورأى الآخرون أنهـا لا جسمانية ، ومنهم من جمع بين الجسمانية وغير الجسمانية • وقد تصور كل فريق من هؤلاء طبيعة النفس حسب اعتقاده في طبيعة العناصر حتى يجعل النفس قادرة على ادراك الموجودات •

ويذكر أرسطو رأيا لأفلاطون ولمدرسته يرون فيه أن النفس عالمة ومحركة وأنها عدد يحرك نفسه ، وهم يفسرون العقل والادراك العقلي والظن والاحساس بالاعداد • فالاعداد تقسر

وظائف النفس المركبة من عناصر وهذه الاعداد من ناحية أخرى هي مثل الاشياء ، والنص الذي يشير فيه أفلاطون الى ذلك نص غامض ، وتفسيره أن نفس الحيوان بالذات أي نفس العالم لا بد أن تكون مركبة من المبادىء الأولى التي توجد في عالم المثل خضوعا للمبدأ القائل بأن الشبيه يدرك الشبيه ، ففي عالم المثل نرى الواحد بالذات ثم نجد مثال الطول ومثال العرض ومثال العمق ، وهذه هي أصول الاشكال الهندسية أي مثلها ٠

ولما كان الجسم المحسوس الذي نقابله في تجربتنا الحسية له طول وعرض وعمق ، لذلك فان النفس يجب أن تكون حاصلة على أصول هذه الأبعاد من أصولها الموجودة في جسم الحيوان بالذات أي العالم ، ولهذا نلاحظ أن أفلاطون يرى ضرورة تركب النفس مما يتألف منه الجسم ٠ شيء آخر هو أن أفلاطون يقابل بين هذه الاشكال الهندسية وبين الاعداد ، فهناك الواحد وبعده الاثنان وهي تقابل الطول ، والثلاثة وهي تقابل العرض والاربعة وتقابل العمق ـ فكأن النفس الحاصلة على مبادىء الاجسام المعبر عنها بأعداد ، ولذلك فأرسطو يقول ان النفس عند أفلاطون مركبة من نفس العناصر التي يتركب منها الجسم ، ومن ثم فهو يدرج أفلاطون في نفس قائمة الطبيعيين مع اختلافهم عنه في طريقة تناول العناصر ، ذلك ان أفلاطون لا يتكلم عن عناصر مادية تتألف منها النفس وتكون هي نفس العناصر الموجودة في المادة ٠ واذن فاعتقاد أفلاطون في نظر أرسطو يخضع للقاعدة العامة التي تقول بأن النفس تتألف مما يتركب منه الجسم استنادا الى القول بأن الشبيه يدرك الشبيه ، ويشذ عن هؤلاء جميعا انكساغوراس القائل بالعقل ، والذي ميز بين العقل

والنفس ، فالعقل بمفهومه ــ على عكس ديموقريطس ــ علة للحس والنظام ، والحس هو الذي يوجد بين العقل والنفس ، أما العقل عند انسكساغوراس فهو مبدأ لجميع الكائنات وهو بسيط نقي وغير ممتزج ، واليه ترجع المعرفة وفعل التحريك • ولكن أرسطو بعد أن استعرض رأي انسكساغوراس وسمه بالغموض ، فهو لم يوضح كيف يعرف العقل الاشياء وبأي علة يعرفها ؟ فقد قال بالعقل ولكنه صمت عن تفصيل أي شيء بصدد العلة وطبيعتها •

وبالنتيجة نلاحظ أن هؤلاء الفلاسفة جميعا يحدون النفس بصفات ثلاث : الحركة والاحساس واللاجسمية ، وترجع كل صفة من هذه الصفات الى العناصر التي قالوا بها ما عدا انكساغوراس • وما داموا يقولون ان الشبيه يدرك الشبيه فلا بد أن تتركب النفس من سائر العناصر التي تكون موضوعا لادراك الحس والعقل •

يرى أرسطو أن النفس الانسانية مصدرا للحركة ، ولكنها مع ذلك ليست متحركة بذاتها كونها غير قادرة على تحريك نفسها ، لأن ليس لها حركة ذاتية ، بل هي محرك غير متحرك ، تحرك الجسم المتصل بها ، اذ من المتعذر أن تكون للنفس حركة • اذ أنه ليس من الضروري أن يكون المحرك متحركا لانقسام حركة الشيء على نوعين حسب رأي أرسطو : فالشيء اما أن يتحرك بشيء آخر ، واما أن يتحرك بنفسه • وأما الشيء المتحرك بشيء آخر فهو الموجود في شيء يتحرك كالبحارة في السفينة ، فهل تنسب للنفس مثل هذه الحركة أو يقال عنها أنها تتحرك بذاتها ؟ ولكي يرد أرسطو على هذا الاستفسار يفصل أنواع الحركة في

كتابه « الطبيعة » ويقول : ان النفس لو كانت متحركة بواحدة أو أكثر منها لكانت النفس في المكان بالذات ، وما دامت هذه الحركات لا يمكن أن تتم الا في المكان · فاذا كان ماهية النفس أن تتحرك بذاتها فلا تكون الحركة لها بالعرض ، بل يجب أن تتم حركتها كالجسم في المكان ، وقد تبين لنا أن النفس ليس لها مكان طبيعي لتتحرك فيه فهي اذن لا تتحرك بذاتها ، وانما تتحرك حركة مشتركة أي أنها تتحرك بشيء آخر هو الجسم الذي توجد فيه ، وهو الذي يتحرك في الحقيقة ، واذن فالنفس تتحرك بالعرض ·

وينطلق بعد ذلك الى الكلام عن موقف ديموقريطس فيرى أنه كغيره من جماعة الفلاسفة التي ترى أن النفس تحرك الجسم الذي تحل فيه على النحو الذي تحرك به هي نفسها ، فعنده أن الذرات الكروية التي تتالف منها النفس تتحرك تلقائيا لأن طبيعتها ألا تبقى أبدا في سكون فتدفع معها البدن كله وتحركه ، وهذا يعني أن ديموقريطس يعتقد أن النفس متحركة ومحركة للبدن ، فيتساءل أرسطو ردا على ديموقريطس بقوله : اذ كان السكون ظاهرة نشاهدها ونلمسها بالحس فكيف يكون في مقدور النفس ـ أي الذرات التي تتحرك حركة تلقائية ـ أن تحدث السكون ؟ هذا ما يصعب القول به لأنه كيف يكون المتحرك المحرك بالطبع محدثا للسكون ؟ وشيء آخر وهو أن النفس تحرك الجسم بضرب من القصد والاختيار والتفكير فتنتفي التلقائية ويبطل مع انتفائها التحريك بالطبع أو القسر · وهذا الاعتقاد يقول به أيضا أفلاطون ويفسر تحريك النفس للجسم تحريكا طبيعيا ، اذ أنها عندما تحرك نفسها تحرك الجسم معها لأنها

متداخلة معه ، فهو ــ أي أفلاطون ــ قد ركب النفس من العناصر وقسمها وفقا للاعداد المتناسبة حتى تحس غريزيا بالتناسب وحتى يتحرك العالم بواسطتها حركات متناسبة ، واذن فقد تصور النفس مقدارا • ويجيب أرسطو على رأي أفلاطون فيقول : ان نفس العالم من نوع طبيعة العقل ، ومع ان نفس العالم لا تشبه النفس الحاسة أو الغضبية الا أن العقل الذي شبهها به واحد متصل كفعل التعقل وكموضوع هذا التعقل ، وهي المعقولات ،، فكيف يمكن أن نقول أن نفس العالم مقدار مع أنها شبيهة بالعقل ؟ فكأنه أوقع أفلاطون في تناقض مع نفسه حيث يقول : ان النفس عدد أي مقدار • ويضيف أنها شبيهة بطبيعة العقل ، وهذان القولان متعارضان • ويتابع أرسطو نقد رأي أفلاطون الذي يذهب الى أن النفس عقل يتحرك ، قائلا : ان النفس مقدار ينقسم فاذا كانت النفس مقدارا منقسما فهل تقبل المعقولات بأجزائها المنقسمة كلها أو بجزء من هذه الاجزاء فقط • ومن جهة أخرى بما أن المعقولات غير منقسمة وهي موضوعات التعقل ونفس العالم شبيهة بالعقل ، فكيف يدرك المنقسم ــ أي النفس ذات المقدار ــ كيف تدرك غير المنقسم أي المعقولات ؟ ويستمر أرسطو في حديثه عن العقل وفعله وموضوعه فيؤكد أن التعقل وهو فعل العقل دائم كالحركة الدائرية ، وما دام هذا التعقل دائما لزم أن يكون موضوعه دائما • ولما كانت الافكار العلمية والنظرية محدودة فان العقل يستمر في تعقل موضوعه أكثر من مرة كالحركة الدائرية في سيرها • وعلى ذلك فان العقل يظهر في حالة تعقله كما لو كان سكونا أو وقوفا أكثر من كونه حركة وهذه هي الصفة الغالبة للتعقل الالهي •

ويقدم أرسطو بعد كل هذا عدة آراء ومشاكل تظهر عن موقف من يقولون : ان النفس متحركة بذاتها ، فهو يرى أنهم يستدلون على الحركة الذاتية للنفس من أن ما يتحرك بالقسر لا يأتي بالسعادة فاذا لم تكن حركة النفس هي جوهر النفس فان حركتها تكون مضادة لطبيعتها ، وهي حركة قسرية ، واذن فالنفس لن تبلغ السعادة • ويقولون أيضا : أن اتصال النفس بالجسم يجلب لها الألم والافضل لها أن تفارقه ، وأرسطو يهدف بهذا القول أفلاطون ويواصل عرضه لهذا الرأي بقوله : ان أصحابه يقولون أن النفس تفضل ألا تتصل بالجسم أصلا ، ويرى أنه اذا كان العالم يتحرك حركة دائرية فليست النفس علة لهذه الحركة بل انها تتحرك بالعرض حركة دائرية لأنها في العالم الذي يتحرك حركة دائرية • وهم في بحثهم عن علة حركة النفس ينتهون الى أن الله هو الذي جعل النفس تتحرك حركة دائرية وأن تكون حركتها أفضل من سكونها وهذا غير صحيح •

ويصر أرسطو على أن تفصيل هذا الرأي موجود في دراسته للحركة في كتاب الطبيعة ، ويجعل رأيه في آخر الفصل بأن يقول أن هذه المشاكل التي يثيرها أصحاب هذه الآراء عائدة الى أنهم يضيفون النفس الى البدن دون أن يوضحوا علة الاتحاد بينهما ، مع أن الجمع بينهما ضروري اذ أن أحدهما وهو النفس فاعل والآخر وهو البدن منفعل ، وأحدهما يحرك والآخر يتحرك ، وليست هذه الصلات نتيجة للصدفة أو الاتفاق ، وهم يعنون بتجديد طبيعة النفس دون أن يحددوا طبيعة البدن الذي تحل فيه • وهذا يعني أن النفس بمفهومهم تحل في أي بدن لا في بدن محدد ، فهم لا يرون بنفس معينة لبدن معين •

افلاطون والوجود :

يبدو أن نظرية أفلاطون في الوجود مطابقة لنظريته في المعرفة بمعنى أنها تصعد من المحسوس الى المعقول ، وتخضع الاول للثاني • وقد سرد قصة حاله تجاه العلم الطبيعي فقال بلسان سقراط : « لما كنت شابا كثيرا ما قاسيت الأمرين في معالجة المسائل الطبيعية بالمادة وحدها على طريقة القدماء • وسمعت ذات يوم قارئا يقرأ في كتاب لانكساغوراس هو العقل الذي رتب الكل ، وهو علة الاشياء جميعا ، ففرحت لمثل هذه العلة ،وتناولت الكتاب بشغف ، ولكنني ألفيت صاحبه لا يضيف الى العقل أي شأن في العلل الجزئية لنظام الاشياء ، بل بالضد يذكر في هذا الصدد أفعال الهواء والأثير والماء وما اليها ، مثله مثل رجل يبدأ بأن يقول أن سقراط في جميع أفعاله يفعل بعقله ، ثم يعلل جلوسي هنا بحركات عظامي وعضلاتي ، ويعلل حديثي بفعل الاصوات والهواء والسمع وما أشبه ، ولا يعني بذكر العلل الحقة وهي : لما كان الأثينيون قد رأوا أحسن أن يحكموا علي ، ورأيت أنا أحسن أي أقرب الى العدالة أن أتحمل القصاص الذي فرضوا علي ، فقد بقيت في هذا المكان ، ولولا ذلك لكانت عظامي وعضلاتي في مغياري أو في بويتيا حيث كان حملها تصور آخر للأحسن • فتسمية مثل هذه الاشياء عللا منتهى الضلالة • أما أن قيل : لولا العضلات والعظام فلست أستطيع تحقيق أغراضي، فهذا (١) صحيح • وعلى ذلك فما هو علة حقا شيء ، وما بدونه لا تصير العلة شيء آخر • أي أن العلة الحقة عاقلة تلحظ

---

(١) فيدون ص ٩٦ •

معلولها قبل وقوعه وترتب الوسائل اليه ، فان شيئا لا يفعل الا اذا قصد الى غاية ، والغاية لا تتمثل الا في العقل ، وعند هذه الصخرة يتحطم كل مذهب آلي . ولما كان الموجود الوحيد الكفء للحصول على العقل هو النفس ، كانت العلل العاقلة نفوسنا تتحرك حركة ذاتية وكانت المادة شرطا لفعلها أو علة ثانوية خلوا من العقل ، تتحرك حركة قسرية (١) وتعمل اتفاقا الا أن تستخدمها العلل العاقلة وسيلة وموضوعا وتوجهها الى أغراضها . والنفس غير منظورة بينما العناصر والاجسام جميعا منظورة . وبذلك توصل أفلاطون عبر هذا المسلك الى عالم معقول بصفة بأنه الهي لاشتراكه في الروحية والعقل . ولكنه يوجد فيه مراتب ، ويضع في ذروته الله .

وحتى يتم برهان أفلاطون على وجود الله يستخدم الحركة والنظام . ويرى أن هناك سبع حركات : حركة من يمين الى يسار ، ومن يسار الى يمين ، ومن أمام الى خلف ، ومن خلف الى أمام ، ومن أعلى الى أسفل ، ومن أسفل الى أعلى ، وحركة دائرية .

ويعتبر أفلاطون حركة العالم بما فيه من موجودات علوية وسفلية دائرية مرتبة ، ومنظمة لا يستطيعها العالم بذاته ، فهي معلولة لعلة عاقلة ، وهذه العلة هي الله ، الذي أعطى العالم حركة دائرية على نفسه ، وحرمه الحركات الست الأخرى ، ومنعه من أن يجري بها على غير هدى . ومن ناحية يقول أفلاطون : ان العالم آية فنية غاية في الجمال ، ولا يمكن أن

---

(١) تيماوس ص ٤٦ .

يكون النظام البادي فيما بين الاشياء بالاجمال وفيما بين أجزاء كل منها بالتفصيل نتيجة علل اتفاقية ، ولكنه صنع عقل كامل توخى الخير ورتب كل شيء عن قصد ·

ويذهب أفلاطون الى أن الله روح عاقل محرك جميل خير عادل كامل ، وهو بسيط لا تنوع فيه ، ثابت لا يتغير ، صادق لا يكذب ، ولا يشكل أشكالا مختلفة كما صوره هوميروس ومن لف لفه من الشعراء وهو كله في حاضر مستمر ، فان أقسام الزمان لا تلائم الا المحسوس ونحن حينما نضيف الماضي والمستقبل الى الجوهر الدائم فنقول كان وسيكون (١) ندل على أننا نجهل طبيعته ، اذ لا يلائمه سوى الحاضر · وهو معني بالعلم بخلاف ما يدعيه السوفسطائيون محتجين بنجاح الأشرار ، فان الله ان كان لا يعني بسيرتنا ، فذلك اما لأنه عاجز عن ضبط الأشياء وهذا محال ، واما لأن السيرة الانسانية أتفه عنده من أن تستحق عنايته ، وهذا محال كذلك ، لأن كل صانع يعلم أن للأجزاء شأنها في المجموع فيعنى بها ، فهل يكون الله أقل علما من الانسان ؟ ان ساعة الأشرار آتية لا محالة ، هذا عن الشر الخلقي · أما عن الشر الطبيعي ، فما هو في ذاته الا نقص في الوجود ، أو خير أقل ، هو ضد يتميز به الخير كما يتميز الصدق بالكذب ، لم يرده الله ، بل سمح به فداء للخير الفائض على العالم ، ويستحيل أن يكون العالم الموضوع خيرا محضا فيشابه نموذجه الدائم · هو اذن ناقص ، ولكنه أحسن عالم ممكن · وعناية الله تشمل الكليات والجزئيات أيضا بالقدر

---

(١) جمهورية افلاطون المقالة الثانية ص ٣٧٩ . تيماوس ص ٣٧ .

الذي يتفق مع الكليات ونحن نرى الطبيب يرعى الكل قبل الجزء ، والفنان يدبر أفعاله مقتضى الغاية ويرمي الى أعظم كمال ممكن للكل ، فيصنع الجزء لأجل الكل ، لا الكل لأجل الجزء ـ كذلك حال الصانع الاكبر ، فان تذمر الانسان ، فلأنه يجهل أن خيره الخاص يتعلق به وبالكل معا على مقتضى قوانين الكل ٠

فوجود الله وكماله وعنايته حقائق لا ريب فيها ، وانكارها جملة أو فرادى جريمة ضد الدولة ، يجب أن يعاقب عليها القضاء ، لأن هذا الانكار يؤدي مباشرة الى فساد السيرة ، فهو اخلال بالنظام الاجتماعي ٠ وقد ينكر المرء الله بتاتا ، وقد يؤمن به وينكر عنايته ، وقد يؤمن به وبعنايته وينكر كماله وعدالته ، فيتوهم أنه يستطيع شراء رضائه بالتقدمات والقرابين دون النية الصالحة ٠ والبدعة الثالثة أشنع من الثانية لأن الاهانة فيها أعظم والثانية أشنع من الأولى لنفس السبب فان انكار الله آهون من انكار عنايته مع الايمان به ، وانكار العناية أهون من تصور الله مرتشيا ، الأولى والثانية جديرتان بالمناقشة، أما (١) الاخيرة فأحق بالسخط منها بالتنفيذ ٠

وهكذا نلاحظ بأن أفلاطون يعتقد بأن الله روح عاقل ، محرك ، منظم ، جميل ، خير ، عادل ، كامل ٠ وهو بسيط لا تنوع فيه ، ثابت لا يتغير ، صادق لا يكذب ، ولا يشكل أشكالا مختلفة كما صوره الشعراء ٠ وهو كله في حاضر مستمر ، فان أقسام الزمان لا تلائم الا المحسوس ونحن حينما نضيف الماضي

---

(١) القوانين مقالة ١٠ ٠

والمستقبل الى الجوهر الدائم فنقول كان وسيكون ، تدل على أننا نجهل طبيعته اذ لا يلائمه سوى الحاضر ، وهو معني بالعالم ·

أفلاطون والعالم :

شاء أفلاطون أن يبرهن عن كيفية تكوين العالم في محاورة « تيماوس » الفيثاغوري ، الذي أنطقه ، فعبر عن تكوين العالم بأنه قائم على مبادىء عقلية رياضية · وفضل أفلاطون أن تكون قصة التكوين التي يراها مبنية على الحوار والخطاب ليدل على أن العالم المحسوس لا يوضع في قضايا ضرورية ، فليس أمام العقل البشري الا الظن والتشبيه (١) ·

قال تيماوس : كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة من علة ، والعالم حادث قد بدا من طرف أول لأنه محسوس ، وكل ما هو محسوس فهو خاضع للتغير والحدوث له صانع · ولما كان الصانع خيرا والخير بريئا من الحسد ، فقد أراد أن تحدث الاشياء شبيهة به على قدر الامكان · فرأى أن العاقل أجمل من غير العاقل ، وأن العقل لا يوجد الا في النفس ، فصور العالم كائنا حيا عاقلا ، لا على مثال شيء حادث ، بل على مثال الحسي بالذات ، أجمل الاحياء المعقولة الحاوي في ذاته جميع هذه الأحياء كما أن العالم يحوي جميع الأحياء التي من نوعه · فالعالم واحد لأن صانعه واحد ، ونموذجه واحد ، وهو كل محدود ، ليس خارجه ما يؤثر فيه ويفسده ، فلا تصيبه شيخوخة ولا مرض ، وهو كروي لأن الدائرة أكمل الاشياء ، متجانس

---

(١) تيماوس ص ٢٩ ·

يدور على نفسه في مكانه · أما نفسه فهي سابقة على الجسم صنعها الله من الجوهر الالهي البسيط ، والجوهر الطبيعي المنقسم ، ومزاج من الاثنين ، فكانت غلافا مستديرا للعالم تحويه من كل جانب ، وتتحرك حركة دائرية ، وتحرك الباقي ، وتدرك المحسوس المنقسم والمعقول البسيط ، وتنفعل بالسرور والحزن والخوف والرجاء والمحبة والكراهية ، وتملك أن تخالف قانون العقل فتصير شريرة حمقاء ، وتضطرب حركتها فتنزل النكبات بالعالم (١) ·

وأما جسم العالم فلما شرع الله يركبه أخذ نارا ليجعله مرئيا ، وترابا ليجعله ملموسا ، ووضع الماء والهواء في الوسط ، غير أن هذه العناصر لم تكن كذلك منذ البدء ، وانما كان العالم في الاصل مادة رخوة أي غير معينة ، غامضة لا تدرك في ذاتها بل بالاستدلال كل ما نعقله عنها أنها موضوع التغير ، أو المكان والمحل الذي تحصل فيه الصور المعينة ، لأنه اذا كان الأصل معينا وكان له صورة ذاتية ، فليس يفهم التغير الذاتي · وعلى ذلك فليست العناصر مبادىء الاشياء ، لأنها معينة من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تتحول بعضها الى بعض ، فيدلنا هذا التحول على أنها صورة مختلفة تتعاقب في موضوع واحد غير معين في ذاته · ألست ترى أن ما نسميه ماء اذا تكاثف صار ترابا وحجارة ، واذا تخلخل صار هواء ريحا ، وأن الهواء اذا اشتعل تحول نارا ، وأن النار اذا تقلصت وانطفأت عادت هواء ، وأن الهواء اذا تكاثف صار (٢) سحابا وضبابا ، وأن هذه اذا

---

(١) تيماوس ص ٣٧ ·
(٢) تيماوس ص ٤٨ — ٥٨ ·

تكاثفت جرت ماء ، وهكذا دواليك · هذه المادة الأولى كانت تتحرك حركات اتفاقية ، تلك الحركات الست التي قلنا أن الأشياء تتحرك بها اذا تركت وشأنها من غير نفس تدبرها · فاتخذت ذراتها على حسب تشابهها في الشكل وألفت العناصر الاربعة : النار مؤلفة من ذرات هرمية ، أي ذات أربعة أوجه تشبه سن السهم ، لذلك كانت أسرع الاجسام وأنفذها ، والهواء مؤلف من ذرات ذات ثمانية أوجه ، أي هرمين ، والماء من ذرات ذات عشرين وجها ، والتراب أثقل الاجسام من ذرات مكعبة · وبعد أن تنظمت المادة هذا النوع من التنظيم بتوزعها عناصر أربعة ، هو أقصى ما تستطيع أن تبلغ اليه بذاتها ، ظلت (١) العناصر مضطربة هوجاء كما يكون الشيء وهو خلو من الاله ، حتى عين الصانع لكل منها مكانة على ما ذكرنا ورتب حركته · ثم فكر الصانع فيما عسى أن يزيد العالم شبها بنموذجه · ولما كان النموذج حيا أبديا ، فقد توخى أن يجعل العالم أبديا ، لكن لا كأبدية النموذج ، فانها ممتنعة على الكائن الحادث ، فعنى بصنع صورة متحركة للأبدية الثابتة ، فكان الزمان يتقدم على حسب قانون الأعداد ، وكانت الايام والليالي والشهور والفصول ، ولم تكن من قبل · ورأى الصانع أن خير مقاس للزمان حركات الكواكب ، فأخذنا رواضع الشمس والقمر والكواكب الأخرى مشتعلة مستديرة ، وجعل لكل منها نفسا تحركه وتدبره · ولما كان مبدأ التدبير اليها بالضرورة ، فقد صنع هذه النفوس مما تخلف بين يديه بعد صنع النفس العالمية ، الا أنه جعل تركيبها أقل من تركيبه هذه ، فكانت أدنى

---

(١) تيماوس ص ٥٢ — ٥٧ .

منها مرتبة ، ولكنها الهية مثلها عاقلة خالدة ، يأتيها الخلود لا من طيب عنصرها بل من خيرية الصانع تأبى عليه أن يقدم أحسن ما صنع .

ثم اتخذ منها أعوانا تصنع نفوس الاحياء المائتين . وانما مست الحاجة الى هذه النفوس لتتحقق في العالم جميع مراتب الوجود نازلة من أرفع الصور الى أدناها ، وليكون العالم كلا حقا . وانما وكل أمر صنعها الى النفوس والكواكب لأن كل صانع يصنع ما يماثله ، والصانع الاول لا يصنع الا نفوسا الهية ، فلا يكون هناك التفاوت المطلوب . أخذ اذن ما تخلف من الجوهرين الثاني والثالث ، وصنع مزيجا قسمه على الكواكب وكلف آلهتها أن تنزل أجزاء في أجسام مهيأة لقبوله ، وأن تضم اليه نفسين مائتين ، احداهما انفعالية والأخرى غذائية . أما الانفعالية فغضبية وشهوانية ، تحس اللذة والألم والخوف والاقدام والشهوة والرجاء ، يضعونها في أعلى الصدر بين العنق والحجاب لكي لا تدنس النفس الخالدة المستقرة في الرأس . وأما الغذائية فيضعونها في أسفل الحجاب ، فصنع الآلهة الرجل كاملا بقدر ما تسمح طبيعته . والرجل الصالح يعود جزء نفسه الخالد بعد انحلال هذا المركب الى الكواكب الذي هبط منه ، ويقضي هناك حياة سعيدة شبيهة بحياة اله الكوكب . أما الرجل الصالح (١) ، فان نفسه تولد ثانية امرأة ، فان أصرت على شقاوتها ولدت ثالثا حيوانا شبيها بخطيئتها ، وهكذا بحيث لا تتخلص من آلامها ولا تعود الى حالتها

(١) تيماوس — ص (٥٢ — ٥٧) .

الأولى حتى تغلب العقل على الشهوة وتصعد السلم فترجع رجلا صالحا • ودرجات هذا السلم المرأة فالطير فالدواب فالزحافات فالديدان فالأحياء المائية ، أوجدتها الخطيئة والجهالة نازلة بها نحو الارض درجة فدرجة ، وهكذا كان الأحياء في ذلك الزمان واليوم أيضا ، يتحول بعضهم الى بعض بحسب ما يكسبون أو يخسرون من العقل • وأراد الآلهة أن يلطفوا أثـر الحرارة والهواء في الانسان ــ مع ضرورتهما له ــ وأن يوفروا له الغذاء ، فمزجوا جوهرا مماثلا لجوهر الانسان بكيفيات أخرى وأوجدوا طائفة جديدة من الاحياء هي الاشجار والنبات والبذور ، تحيا بنفس غذائية ، وليست هذه النفس عاقلة ، ولكنها تحس الألم واللذة والشهوة ، فهي منفعلة وليست فاعلة اذ قد حرصت الحركة الذاتية فكانت جسما مثبتا في الارض •

النفس عند أفلاطون :

يرى أفلاطون أن النفوس الانسانية كانت في عالم الكواكب تتبعها كما في عربة لتطل على عالم المثل • وعجزت في احدى محاولاتها عن اللحاق بنفوس الكواكب ، وبلوغ قبة السماء ، ومشاهدة عالم المثل فهبطت من علوها وحلت في أبدان بشرية ، ولم يكن هبوط النفس من عالمها العلوي سوى جناية وعقابا على ما ارتكبته من أفعال في عالمها السماوي • ويذهب بعض الباحثين الى أن رأي أفلاطون في ماهية النفس وعلاقتها بالجسم لا يخلو من التردد والغموض • ففي المحاورة الواحدة « فيدون » يحـد النفس تارة بأنها فكر خالص • وطورا بأنها مبدأ الحياة والحركة للجسم ، دون أن يبين ارتباط هاتين الخاصتين ، ولا أيتهمـا

الأساسية • كذلك الحال في علاقة النفس بالجسم ، فتارة يعتبرهما متمايزين تمام التمايز ، فيقول ان الانسان النفس ، وأن الجسم آلة ، وتارة يضع بينهما علاقة وثيقة ، فيرى أن الجسم يشغلها عن فعلها الذاتي (الفكر) ويجلب لها الهم بحاجاته وآلامه ، وأنها هي تقهره وتعمل على الخلاص منه (١) دون أن يبين أفلاطون ماهية هذا التفاعل ، بل يرى بهذا التفاعل أنه علاج الجسم (٢) وقيام الشعور والادراك في النفس عند تأثر الجسم بالحركة المادية ما بين هذه الحركة والظاهرة النفسية من تباين •

وفي كتابه « الجمهورية (٣) » يرجع الافعال النفسية الى ثلاثة : الادراك والغضب والشهوة ، ويسأل هل يفعل الانسان بمبادىء ثلاثة مختلفة ، أم أن مبدأ واحدا بعينه هو الذي يدرك ويغضب ويحس لذات الجسم ؟ فيقرر أن المبادىء عدة ، لأن شيئا ما لا يحدث ولا يقبل فعلين متضادين في وقت واحد ومن جهة واحدة ، فلا يضاف اليه حالات متضادة الا بتمييز أجزاء فيه ، فيجب أن نميز في النفس جزءاً ناطقا وجزءاً غير ناطق ، لما نحسه فينا من صراع بين الشهوة تدفع الى موضوعها والعقل ينهي عنه • ولنفس السبب يجب أن نميز في الجزء غير النطقي بين قوتين هما الغضب والشهوة ، الغضب متوسط بين الشهوة والعقل ، ينحاز تارة الى هذا ، وطورا الى تلك ، ولكنه يثور بالطبع للعدالة ، ونحن لا نغضب على رجل مهما يسبب لنا من

---

(١) فيدون : ص ٦٤ — ٦٦ •

(٢) تيماوس : ص ٨٩ •

(٣) جمهورية افلاطون مقالة ٤ ص ٤٤٠ •

ألم اذا اعتقدنا أنه على حق ، لذلك كثيرا ما يناصر الغضب العقل على الشهوة ، ويعينه على تحقيق الحكمة في ما هو خلو من العقل والحكمة (١) • وهذا كلام لا غبار عليه اذا أريد به تمييز قوى ثلاث في النفس الواحدة ، ولكنا رأينا أفلاطون في « تيماوس » يضع في الانسان ثلاث نفوس ويعين لكل منها محلا في الجسم ، فيضيف الى صعوبة التوفيق بين النفس والجسم صعوبة التوفيق بين النفوس الثلاث • وبينما هو في « فيدوس » يشبه النفس في حياتها السماوية الأولى بمركبة مجنحة ، الحوزي فيها العقل ، والجوادان الارادة والشهوة (٢) • واذا بكلامه في « تيماوس » يشعر بأن الغضبية والشهوانية صنعهما الآلهة للحياة الارضية والوظائف البدنية •

ومسألة خلود النفس أخذت الكثير من عناية واهتمام أفلاطون فأشار اليها في جميع مصنفاته ، وأفرد لها « فيدون » لما كان يشعر به من خطورة هذه المسألة الهامة وضرورة بحثها ومعرفة كنهها • يدور الحديث في « فيدون » بين سقراط واثنين من الفيثاغوريين ، هما « سيمياس وقابس » فنرى فيها ثلاثة أدلة على خلود النفس ، يشرح أفلاطون بأبسطها تناولا وهو التناسخ وتداول الاجيال البشرية فيقول : اذا كان صحيحا أن النفس التي تولد في هذه الدنيا تأتي من عالم آخر كانت ذهبت اليه بعد موت سابق ، وأن الأحياء يبعثون من الأموات ، ينتج لنا أن النفس لا تموت بموت الجسم • ولكن هذا تسليم برأي

---

(١) جمهورية افلاطون المقالة الرابعة ص ٤٣٦ .
(٢) جمهورية افلاطون ص ٢٤٦ .

متواتر لا تدليل ، ويسكت سقراط ، كما يسكت الجميع • وبعد فترة يقول « سيمياس » : أن العلم بحقيقــة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جدا في هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول الى آخر مدى العقل ، فيجب اما الاشتياق من الحق ، وأما ــ ان امتنع ذلك ــ استكشاف الدليل الاقوى والتذرع به في اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح خشب ما دام لا سبيل لنا الى مركب أمتن وآمن ، ائمني الى وحي الهي • ويقول قابس : ان كل ما يلزم من الدليل الاول بفروعه الثلاثة هو أن النفس كانت قبل الولادة ، ومن الثاني أنها شبيهة بالمثل ، فمن هذين الوجهين لا تتنافى خصائصها مع البقاء • أما البقاء نفسه فلم يقم الدليل عليه ، اذ من يدرينا ؟ لعل النفس تفنى بتلاشي قوتها بعد أن تكون تقمصت أجساما عدة (١) •

هنا يعتمد أفلاطون على نظريته في المشاركة ويورد دليلا ثالثا فيقول : لما كانت النفس حيــاة فهي مشاركــة في الحياة بالذات ، ومنافسة للموت بالطبع وليست تقبل الماهية ما هو ضد لها ، لذلك يحاول ربط هذا الرأي بقضية كبرى واستخراجه منها نتيجة لازمة فيقول : اذا نظرنا في التغير بالاجمال ، وهو قانون العالم المحسوس ، وجدناه تبادلا دائرا بين الأضداد ، يتولد الاكبر من الاصغر ،والاحسن من الأسوأ،وبالعكس فتصبح لدينا العقيدة القديمة بأن الحياة تبعث من الموت • ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت الاشياء قد انتهت الى السكون المطلق •

---

(١) جمهورية افلاطون ص ٨٦ — ٨٨ •

واذن فقد كانت النفس قبل الولادة ، وستبقى بعد الموت • ويتأيد هذا الدليل من ناحية أخرى : ذلك أن هناك ضدين هما العلم والجهل ، وبعثا من نوع آخر هو تذكر المثل بعد نسيانها ، فاذا كانت النفس قد عرفت المثل قبل هبوطها الى الارض فليس ما يمنع بقاءها بعد الموت (١) ، والدليل الثاني يدوز على تعقل المثل ، فان هذه بسيطة ، ومن ثم فهي ثابتة اذ أن المركب هو الذي ينحل الى بسائطه ويتحول ، أما البسيط فلا يجوز عليه تحول أو انحلال ، فلا بد أن تكون النفس التي تعقل المثل شبيهة بها ، على حسب القول القديم • وعلى ذلك فالنفس بسيطة ثابتة • فالنفس لا تقبل الموت • فيقتنع « قابس » ويعلن « سيمياس » أنه مقتنع أيضا الا أن شعوره المزدوج بعظم المسألة وبالصنف البشري يضطره الى بعض التحفظ بازاء هذه الأدلة على وجاهتها • فيسلم له سقراط بحقه في هذا التحفظ ، ويزيد قائلا : بل ان المقدمات نفسها مفتقرة الى بحث أوكد •

نيتشه والعود الأبدي :

بالرغم من أن نيتشه قد سخر من أفكاره ونظريات وآراء الحكماء فقد تعرض في أبحاثه وذهب الى أنه من الأسس العلمية التي تعتمد عليها فكرة العود الابدي القول بأن مدى القوة الكونية متناه ومحدود • وهذا يعني أن عدد مواقع هذه القوة وتغيراتها وتركيباتها محدود بدوره ، وان يكن هائلا • ففكرة استمرار التحول الى ما لا نهاية تنطوي في ذاتها على تناقض ،

---

(١) جمهورية افلاطون المقالة العاشرة ص ٦٠٨ .

كونها تفترض وجود قوة تتزايد الى ما لا نهاية • ولكن أين لها هذا التزايد ؟ ومن أين تتغذى بهذا القدر الهائل ؟ أن تصور العالم على أنه قوة محدودة هو الذي يميز الروح العلمية من الروح الدينية من وجهة نظر نيتشه •

ومما يلفت النظر في نظرية نيتشه حول العود الابدي ، هو أنه أكسب التحول صفة الوجود ، بحيث لم يعد يقول بتحول دائم يسري دون أن تكون له أية هوية مع ذاته ، بل أصبح التغير يرجع الى ذاته على الدوام • فهو تحول خالد تصطبغ كل مراحله بصبغة الابدية •

ويقول نيتشه في أصل المعرفة (١) : « لم يتولد عن العقل خلال الأزمان الهائلة الماضية سوى الاخطاء ومن هذه الاخطاء ما ثبت نفعه وقدرته على حفظ النوع ، بحيث استطاع من اهتدى اليه أو تلقاه بالميراث ، أو يحرز في نضاله من أجل ذاته ومن أجل ذريته مزيدا من النجاح ــ ومن قبيل هذه المعتقدات الباطلة ، التي ظلت تتوارث حتى كادت في نهاية الامر أن تعد كامنة في ماهية النوع الانساني الاعتقاد بأن ثمة أشياء ثابتة وبأن ثمة أشياء متماثلة ، وبأن ثمة أشياء ، وجواهر ، وأجساما، وبأن الشيء يكون على النحو الذي يبتدي عليه ، وبأن لنا ارادة حرة ، وبأن ما هو خير بالنسبة الي هو خير في ذاته ولذاته•

ولم يظهر من ينكر مثل هذه المعتقدات أو يشك فيها الا في وقت متأخر جدا ــ أعني أن الحقيقة لم تظهر الا متأخرة جدا •

---

(١) نيتشه : العلم والمرح ف ١١٠ •

فاذا بها أضعف صور المعرفة وأقلها أثرا • وعندئذ ظهر للمرء أنه لا يستطيع أن يحياها ، اذ أن الكائن العضوي ، كالادراك الحسي وسائر أنواع الادراك بوجه عام انما مورست من خلال هذه الاخطاء الاساسية القديمة التي سرت فيها • بل ان هذه المبادىء قد غدت هي ذاتهـا المعايير التي يقاس بهـا ما هـو « حقيقي » وما هو « غير حقيقي » في المعرفة ــ حتى تغلغلت في أعمق مجالات المنطق الخالص •

وعلى ذلك فقوة المعرفة لا تكون في مدى حقيقتها ، بل في قدمها ومدى تغلغلها فينا ، وطبيعتها بوصفها شرطا من شروط الحياة • وحيثما بدت الحياة والمعرفة في تعارض ، ولم يتنشب أي صراع جدي ، فهنا يعد الانكار والشك ضربا من الجنون •

أما أولئك المفكرون الذيـن شذوا عـن هـذه القـاعدة كالايليين ، الذين أكدوا رغم ذلك ما في الاخطاء الطبيعية من تقابل وتمسكوا به • فقد اعتقدوا أن من الممكن أن نحيا هذا التقابل : ومن هنا ابتدعوا شخصية الحكيم ، بوصفه ذلك الذي يتصف بالثبات واللاشخصية ، وشمول الأفق ، ويكون واحدا وكلا من الآن نفسه ، وتتوافر لديه قدرة خاصة على هـذه المعرفة المعكوسة ، وهكذا يعتقدون أن معرفتهم هي في الوقت نفسه « مبدأ الحياة » •

على أنه كان يتعين عليهم ، لكي يتسنى لهم أن يؤكدوا كل ذلك ، أن « يخدعوا » أنفسهم في موقفهم الخاص ــ أعني أنه كان يتعين عليهم أن ينسبوا الى أنفسهم اللاشخصية والثبـات الذي لا يعرف تحـولا ، وأن يسيئوا فهـم ماهيـة المعرفة ،

وبالاجمال ، أن يتصوروا العقل على أنه فاعلية كاملة الحرية ، نابعة في ذاتها فحسب • ونسوا أنهم ما وصلوا الى مبادئهم هذه الا بمناقضة ما هو شائع ، أو بدافع الرغبة في السكينة ، أو الاستحواذ أو السيطرة • على أن التطور الأعمق الذي سارت فيه نزعات الشك الامينة قد جعل وجود مثل هؤلاء الناس محالا في نهاية الأمر ، فقد تبين أن حياتهم وأحكامهم تعتمد بدورها على الغرائز المتأصلة والاخطاء الاساسية القديمة التي تكمن في كل كائن مدرك •

ولقد كانت مثل هذه النزعة للأعمق ، التي تتصف بالأمانة والشك ، تظهر حيثما يبدآن متعارضان قابلين للانطباق على الحياة ، ما دام كل منهما يتفق والاخطاء الاساسية ، أعني انها كانت تظهر حيثما أمكن أن يثار الجدال حول مدى نفع هـذه المبادىء للحياة ، ولكنهما على الاقل ليست ضارة بها ، أعني أنها كانت من انتاج ميل غريزي الى اللهو العقلي ، وفيها من البراءة والطرافة ما في سائر مظاهر اللهو •

وبالتدريج امتـلأ الذهـن الانساني بمثل هـذه الأحكام والمعتقدات وثار في هذا الخليط فوران ، وصراع ، ونزوع الى القوة ، ولم يكن النفع واللذة هما وحدهما اللذان في هذا الصراع من أجل الحقائق ، بل تدخلت فيه كل أنواع الغرائز ، وأصبح الصراع العقلي انشغالا ، وحماسة ، ورسالة ، وواجبا ، وكرامة ، وانتهى الامر بالمعرفة وبالسعي وراء الحقيقة الى أن يصبح حاجة ضمن سائر الحاجات • ومنذ ذلك الحين لم يعد الايمان والاقتناع وحدهما قوة ، بل غدا البحث ، والانكار ، والريبة ، والتناقض ، قوة بدورها ، وانتظمت المعرفة كـل

الغرائز الشريرة ، واستغلتها في خلقها ، واكتسبت هذه مكانة النزعات المشروعة ، المبجلة المفيدة ، وأصبح لها أخيرا مظهر الخير وبراءته ٠

وهكذا أصبحت المعرفة قطعة من الحياة ذاتها ولما كانت هي ذاتها حياة ، فقد غدت قوة دائمة النمو ، حتى انتهى الامر الى تصادم المعارف وتلك الاخطاء الاساسية القديمة ، ما دامت كل منهما حياة ، وكل منهما قوة ، وكل منهما تتمثل في الانسان عينه ٠

فالمفكر هو الآن ذلك الكائن الذي يتصارع فيه لأول مرة ذلك الميل الى الحقيقة مع تلك الاخطاء التي تحفظ الحياة ، بعد أن تبين أن الميل الى الحقيقة هو ذاته ميل حافظ للحياة ، والحق أن كل أمر آخر ليغدو بالقياس الى أهمية هذا الصراع ، غير ذي بال فهنا يثار السؤال الاخير عن شرط الحياة ، هنا تبذل المحاولة الأولى للاجابة عن هذا السؤال عن طريق التجربة ٠ فالى أي حد تحتمل الحقيقة أن تتمثل ؟ ذلك هو السؤال ، وتلك هي التجربة » ٠

ولما كان نيتشه قد وضع لفكرة العود الابدي قواعد علمية ترتكز عليها تلك الفكرة ، لا بد لنا من القول بأن تلك القواعد كانت عبارة من منطلقات عقلانية هادفة الى اظهار نتائج المذهب الآلي باعتبار العالم آلة عمياء ، من شأنها أن تمر بنفس الحالات مرات لا متناهية ٠ ولا بد لهذه الآلة من أن تؤدي وظيفتها بشكل دوري منتظم ، بحيث يعود دائما الى نفس الحالات التي مر بها دون أي تغير ٠ ويرى نيتشه أن القول بأن مدى القوة الكونية

متناه ومحدود ، من المنطلقات الاساسية والقواعد العلمية الرئيسية لفكرة العود الابدي وهذا يعني أن عدد مواقع هذه القوة وتغيراتها وتركيباتها محدود بدوره ، وان يكن هائلا • ففكرة استمرار التحول الى ما لا نهاية تنطوي في ذاتها على تناقض ، اذ نفترض وجود قوة تتزايد الى ما لا نهاية • ولكن من أين لها هذا التزايد ؟ ومن أين تتغذى بهذا القدر الهائل ؟ أن نصور العام على أنه قوة محدودة هو الذي يميز الروح العلمية من الروح الدينية • فنحن نعتقد اليوم أن القوة هي هي دائما ، وأنها لا ينبغي أن تكون لا متناهية بالضرورة • هي حقا فعالة فعلا أبديا ، ولكن طاقتها محدودة ، فلا تستطيع أن تستمر في خلق حالات جديدة الى ما لا نهاية له •

ولو فرضنا أن الشرط العلمي الاول لتحقيق العود الأبدي هو أن تكون القوى الكونية متناهية ، فالشرط الثاني هو أن يكون الزمان لا متناهيا ، أي أن تظل هذه القوة تمارس فعلا بلا انقطاع ، فاذا توافرت اللانهائية للزمان ، فلا بد أن نستنفد الامكانيات التي تتاح لهذه القوة المحدودة ، وبهذا تأتي حالة تماثل حالة أخرى تكررت من قبل ، وعندئذ تتلو عنها كل الحوادث كما وقعت من قبل تماما ، ويكون الكون قد أتم دورة من دوراته ، وتظل هذه الدورات تتكرر الى الأبد خلال الزمان اللامتناهي ، كل منها مماثلة للأخرى في كل صغيرة وكبيرة •

ومن المؤكد أن لفكرة العود الابدي ، من جهة المذهب الآلي مزايا عديدة : فهي تفوق في بساطتها كل نظام يصور العالم على أنه يسير في خط واحد نحو غاية معلومة،أي أن له بداية ونهاية• وفيها قدر كبير من الاستقرار والثبات ، فهي تضمن سيادة

القانون العلمي ، ولا تجعله عرضة للتحول والتغيير • كما أنها لا تهيب بأي مبدأ يخرج عن الطبيعة ذاتها ، ويدفع العالم الى البداية أو النهاية • فمبدأ الاقتصاد في الفكر هو الذي يجعل المذهب الآلي يفضل فكرة العود الابدي على كل فكرة تصور العالم الطبيعي تصويرا غائيا •

ويلاحظ أن نيتشه كان يبشر بأفكاره العلمية والفلسفية والأخلاقية التي أوجدها بشأن العود الابدي ، وكان يكتب الرسائل الى دعاة انكار الذات يشرح فيها أفكاره العلمية هذه ، ولنستمع اليه ماذا يقول في احدى هذه الرسائل (١) •

« لا تعد فضائل الشخص خيرا نظرا لما تعود به من نتائج على صاحبها ذاته ، بل بالنسبة الى ما ننتظر من نتائجها ، علمنا وعلى المجتمع • والحق أن الانسان في امتداحه الفضائل ، كان دائما أبعد ما يكون عن انكار الذات ، وعن الغيرية ولو لم يكن الأمر كذلك لأدرك أن الفضائل كالنشاط ، والطاعة ، والعفة ، والتقوى ، والعدالة ، هي في أغلب الأحيان ضارة بأصحابها ، اذ هي تسيطر عليهم بشيء غير قليل من العنف والشدة ، ولا يستطيع العقل أن يحقق التوازن بينها وبين سائر الميول • فحين تكون لديك فضيلة ما ، فضيلة حقة كاملة لا مجرد نزع سطحي الى الفضيلة ، تكون أنت ضحيتها ، ومع ذلك يمتدح الجار فضيلتك لهذا السبب عينه ! ان المرء يمتدح النشاط ، رغم أنه يضر بقوة ابصار عيني الشخص ، النشيط ، أو بأصالة روحه وصفائه ، وأن المرء ليمجد الشاب الذي استهلك نفسه في العمل،

(١) نيتشه : العلم المرح ف ٢١ .

ويتحسر عليه ، اذ يحكم على الامر قائلا : ان خسارة خير الأفراد من أجل المجتمع بأكمله انما هي تضحية طفيفة ! والمؤلم في الامر أنها تضحية ضرورية ! ولكن الاكثر من ذلك ايلاما أن يفكر الفرد على نحو مخالف ، وينظر الى بقاء ذاته وانمائها ، على أنه أمر يفوق في الاهمية عمله من أجل خدمة المجتمع !٠

وهكذا يتحسر الناس على هذا الشاب ، لا حزنا عليه هو ذاته ، وانما لأن المجتمع قد فقد بهذا الموت أداة طيعة تفرط في ذاتها ــ أعني أنه فقد ما يسمى بالرجل المجد ٠ وربما فكر البعض في أنه قد يكون أنفع للمجتمع لو عمل ذلك الشاب على أن يكون أقل تفريطا في ذاته ، وأكثر حرصا على بقائه ، ولكنهم مع موافقتهم على أن هذا قد يكون فيه نفع للمجتمع ، يؤكدون أن هناك نفعا آخر هو خير وأبقى ، وأعني به حدوث تضحية ، والشعور بأن فكرة الفداء قد تكررت ودعمت مرة أخرى بصورة بادية للعيان ٠ وعلى ذلك فعندما تمتدح الفضائل يكون ما يمتدح فيها هو في واقع الأمر صفتها من حيث أداة ، وذلك الاندفاع الأعمى الذي يسود كل فضيلة ، والذي لا يجعلها تقتصر على حدود نفع الفرد وحده ، أي بالاختصار ، تلك الصفقة الهوجاء في الفضيلة ، التي يتحول بها الفرد الى أداة في يد الكل فحسب ٠

فامتداح الفضائل هو امتداح لشيء ضار بالفرد ــ هو امتداح لميول تسلب الانسان أنبل حب لذاته ، وقدرته على أن يرعى نفسه على أكمل نحو ٠ ولا جدال في أن المرء يلجأ من أجل تلقين العادات الفاضلة ونشرها الى ايراد سلسلة من النتائج

التي تنجم عن الفضيلة ، على نحو تبدو معه الفضيلة ونفع الفرد متفقين ·

والحق أن هذا الاتفاق بينهما موجود بالفعل ! فالنشـاط المندفع الطيع مثلا وهو الفضيلة التي تتميز بها الأداة ، ينظر اليه على أنه هو سبيل الثراء والمجد ، وهو سر ترياق من الملك والآلام · غير أن المرء يتجاهل عن عمد ما فيه من خطر ، بل من خطورة عظمى · فالتربية تمضي دائما على هذا النحو · هي تسعى عن طريق سلسلة من الترغيبات والمنافع ، الى أن تثبت في الفرد طريقة في التفكير والسلوك من شأنها ، اذا أصبحت عادة وغريزة وانفعالا متأصلا ، أن تسيطر عليه وتتحكم فيه على نحو مضاد لنفعه النهائي ، وعلى نحو نافع للمجموع ·

ولكم رأيت النشاط المندفع الطيع يجلب ثراء ومجدا بحق ، ولكنه في نفس الوقت يسلب أعضاء الجسم ذلك الحس المرهف الذي يمكنها به أن تتمتع بهذا الثراء وهذا المجد ، كما رأيت ذلك العلاج الشافي من الملل ومن الآلام يحيل الحواس صمـاء والروح محضة ضـد التأثير بأيـة اشـارة جديـدة · فأنشط العصور ـ أعني عصرنا الحالي ، لا يعقل شيئا بنشاطه وماله الموفور ، سوى أن يكتب على الدوام مزيدا من المال ويبذل مزيدا من النشاط · وذلك لأن الانفاق يحتاج الى ذكاء يزيد عما يحتاج اليه الاكتساب ! ولكننا على أية حال سيكون لنـا أحفادنا من بعدنا ! ما بلغت التربية هدفها ، فان كل فضيلة للفرد تغدو نفعا للجماعة ، وضررا للفرد ، اذ نظر اليها من حيث الهدف الفردي الأسمى · وربما كان في ذلك فساد للروح

والحس ، أو هلاك سابق لأوانه • وعلينا أن نتأمل ، ومن جهة النظر هذه فضائل الطاعة والعفة والتقوى والعدالة •

فامتداح من ينكر ذاته ، ويضحي بها ، ويتصف بالفضيلة ـ أعني امتداح ذلك الذي لا يبذل كل طاقاته وذهنه من أجل الابقاء على ذاته ، وانمائها والعلاء بها • وانها منها ، وبسط سلطانها ، وانما يحيا ، بازاء ذاته حياة كلها ضعة وغفلة ، وربما كان فيها عدم اكتراث أو سخرية ـ هذا الامتداح لا يظهر أبدا بدافع انكار الذات ! اذ أن الجار لا يمتدح انكار الذات الا لأنه سيجني منه غنما ! ولو كان الجار يفكر على نحو فيه انكار الذات ، لرفض هذا التشتيت للطاقة ، وذلك الضرر الذي يحل من أجله هو ، والعمل على تلافي ظهور مثل هذه الميول ، ولأظهر ـ قبل كل هذا ـ انكاره لذاته ، بالامتناع عن تسمية هذا خيرا ـ وهنا نصل الى التناقض الأساسي الذي تتصف به تلك الاخلاق والتي تلقى اليوم أعظم تمجيد : فدوافع تلك الأخلاق مضادة لمبادئها • وتلك الاخلاق تفند ما تريد أن تبرر به نفسها ـ تفنده بمعيارها الخاص لما هو أخلاقي !• والقصة القائلة « عليك أن تنكر ذاتك وتضحي بها » ينبغي عليها اذا شاءت الا تتعارض مع أخلاقيتها ، ألا تصدر الا عن كائن ينصرف في دعوته ، هذه عن نفعه الخاص ، وربما وجد في تلك التضحية التي يدعو اليها الفرد الى القيام بها ضررا له هو ذاته• ولكن أن يدعو الجار أو المجتمع الى الغيرية بدافع المنفعة حتى يكون قد اتبع المبدأ المضاد ، القائل : « عليك أن تسعى الى المنفعة ، حتى على حساب الآخرين » وبهذا يدعو الى الأمر عليك أن ••• والنهي عليك ••• في آن واحد ! » •

الفلاسفة المسلمون وعالم الأرواح :

الأفكار والآراء التي أوردناها عن بعض الفلاسفة والعلماء تسمح لنا بأن نتطلع بشغف وقلبنا عامر بالايمان العميق بما تفاعل في عقول بعض المفكرين الكبار من أتباع الدين الاسلامي الحنيف الذين وقفوا وجودهم وحيـاتهم الفعلية لاستقصـاء العوامل والتفاعلات التي كانت سببا في وجود هذا العالم العامر بالأسرار والخفايا • لذلك لا بد لنا من التلفت الى شيخ الفلاسفة الاسلاميين حجة الاسلام أبو حامد الغزالي الذي أمضى حياتـه باحثا مدققا لاثبات جوهر الحكمة العرفانية العقلانية ، علـه يتمكن من اخضاع العقائد الدينية الشرعية لأفكار الحكمـة العقلانية الناهدة الى جوهر المعرفـة الالهية ••• وبالفعـل استطاع أن يفلسف بعض الأمور الدينية ويكسبها صفة خاصة ميزتها مع مرور الايام عن غيرها • وجعلتها مستقلة في كثير من المعارف العقلانية عن أفكار وآراء فلاسفة اليونان والهنـد والفرس ، ومن الطبيعي أن تثير هذه البادرة معارضة شديدة لدى رجال الدين من المتكلمين ، وأصحاب الجدل والفقـه ، فانبروا ينافحون عن العقائد الاسلاميـة ويكيلون الاتهامـات لأصحاب الافكار العقلانية الفلسفية ، باعتبارهم ينهدون الى تشويه الدين وادخال الالحاد والزندقة فيه •

ولكن التيار الفلسفي الاسلامي سرعان ما جرف في طريقه التصاعدي كل من وقف في طريقه ، فانتشرت الافكار العقلانية بسرعة بين كافة الفرق والمذاهب الاسلامية ، فظهر جماعة من الفلاسفة العقلانيين يوزعـون معارفهم الروحيـة بين كافـة

الطبقات ، ويجسدون فيها الافكار الخلاقة الهادفة الى نقـد الأديان والعقائد والانظمة الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الأيام • وفي وسط هذه التيارات العاتيـة شـع نجم الغزالي كشخصية علمية فذة في العالم الاسلامي ، فكان العالم الرباني الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذي شق لذاته طريقا خاصا في التفكير العرفاني الفلسفي ، وأنار ظلمات العقول الناهدة الى فلسفة اسلامية صحيحة تنسجم مـع الفكر الصحيح وتجسـد الشريعة الاسلامية التي وجدت من أجل تحقيق سعادة الانسان في الدنيا والآخرة •

غير أن الغزالي الـذي وقف حياتـه للكشف عن الحقيقـة العرفانية لم يعبأ بكل ما قيل فيه ويقال بـل استمر في تعميم أفكاره وتوزيعها على الناس مهما كان مستواهم العلمي •

ولا بد لنا من استعراض بعض أفكاره ومواقفه وشكـه ويقينه حول هذا الموضوع •

الغزالي وقدم العالم :

يلاحظ بأن الغزالي هذا الحكيم قد تعرض خلال حياتـه الفلسفية الى نقد لاذع من بعض الفلاسفة وخاصة حول مـا يتعلق بقدم العالم وحدوثه ، لذلك يبدأ رده فيشير الى مذاهب الفلاسفة قائلا : « اختلفت الفلاسفة في قدم العالم • فالذي استقر عليه رأي جماهيرهم المتقدمين والمتأخرين القول بقدمه وأنه لم يزل موجودا مع الله تعالى ومعلولا له ومساوقا له غير متأخر عنه بالزمان مساوقة المعلول للعلـة ومساوقـة النـور

للشمس ، وان تقدم الباري عليه كتقدم العلة على المعلول ، وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان · وحكي عن أفلاطون أنه قال : العالم مكون ومحدث · ثم فهم من أول كلامه وأبى أن يكون حدث العالم معتقدا له · وذهب جالينوس في آخر عمره في الكتاب الذي سماه (ما يعتقده جالينوس رأيا) الى التوقف في هذه المسألة · وأنه لا يدري العالم قديم أو محدث ، وربما دل على أنه لا يمكن أن يعرف وأن ذلك ليس لقصور فيه بل لاستقصاء هذه المسألة في نفسها على القول ، ولكن هذا كالشاذ في مذهبهم وانما مذهب جميعهم أنه قديم وأنه بالجملة لا يتصور أن يصدر حادث من قديم بغير واسطة أصلا (١) » ·

ثم يورد الغزالي أدلة الجماعة الأولى منهم على قدمه قائلا : « قولهم يستحيل صدور حادث من قديم مطلقا ، لأنا اذا فرضنا القديم ولم يصدر منه العالم مثلا فانما لم يصدر لأنه لم يكن للوجود مرجح بل كان وجود العالم ممكنا امكانا صرفا ، فاذا حدث بعد ذلك لم يخل اما أن تجدد مرجح أو لم يتجدد ، فان لم يتجدد مرجح بقي العالم على الامكان الصرف كما قبل ذلك ، وان تجدد مرجح فمن محدث ذلك المرجح ؟ ولِمَ حدث الآن ولم يحدث من قبل ؟ والسؤال في حدوث المرجح القائم · وبالجملة فأحوال القديم اذا كانت متشابهة فاما أن لا يوجد عنه شيء قط وأما أن يوجد على الدوام ، فأما أن يتميز حال الترك عن حال الشرع فهو محال » ·

الدليل الثاني : أن القول بقدم القديم وحدوث العالم ،

---

(١) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص (٤٨ — ٤٩) ·

ينتهي الى القول بقدم الزمان وقدم الحركة . فاذا كان الباري خالق هذا العالم ، فهو اما أن يتقدم عليه بالذات ، فيكون كلاهما قديم ، واما أن يتقدم عليه بالزمان ، فيكون الله قديما ويكون العالم حادثا . وعندئذ تبرز مشكلة القدم على شكل آخر ، وهي قدم الزمان نفسه . والحقيقة أنه اذا انقضى زمان قبل حدوث العالم ، فمعنى ذلك أنه كان قبل العالم زمان ، كان العالم معدوما فيه ، وقبل هذا الزمان زمان لا نهاية له ، فالزمان قديم . « واذا وجب قدم الزمان ، وهو عبارة عن قدر الحركة ، وجب قدم الحركة ووجب قدم المتحرك الذي يدوم الزمان بدوام حركته (١) » .

الدليل الثالث : وجود العالم ممكن قبل وجوده ، اذ يستحيل أن يكون ممتنعا ثم يصير ممكنا ، وهذا الامكان لا أول له ، أي لم يزل ثابتا ولم يزل العالم ممكنا وجوده ، اذ لا حال من الاحوال يمكن أن يوصف العالم فيه بأنه ممتنع الوجود . فاذا كان الامكان لم يزال فالممكن على وفق الامكان أيضا لم يزل ، فان معنى قولنا أنه ممكن وجوده أنه ليس محالا وجوده . فاذا كان ممكنا وجوده أبدا لم يكن محالا وجوده أبدا . ويتفرع عن هذا الدليل دليل آخر هو القول بحدوث العالم يفترض وجود مادة قديمة ، صنع منها العالم : ان القول بأن العالم حادث ، وأنه من صنع الله ، يعني أن هناك مادة قديمة صنعه الباري منها . فيكون العالم قديما بمادته ، حادثا بالصور والكيفيات التي طرأت عليه (٢) ، وبيانه أن كل حادث فهو قبل حدوثه لا يخلو

---

(١) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٦٥ .
(٢) المصدر نفسه ص « ٧٤ــ٧٥ » .

اما أن يكون ممكن الوجود أو ممتنع الوجود أو واجب الوجود ، ومحال أن يكون ممتنعا لأن الممتنع في ذاته لا يوجد قط ، ومحال أن يكون واجب الوجود لذاته فان الواجب لذاته لا يعدم قط ، فدل أنه ممكن الوجود بذاته • فاذن امكان الوجود حاصل له قبل وجوده ، وامكان الوجود وصف اضافي لا قوام له بنفسه ، فلا بد له من محل يضاف اليه ، ولا محل الا المادة فيضاف اليها كما نقول : هذه المادة قابلة للحرارة والبرودة ، أو السواد والبياض، أو الحركة والسكون ، أي ممكن لها حدوث هذه الكيفيات وطريات هذه التغيرات ، فيكون الامكان وصفا للمادة • والمادة لا يكون لها مادة ، فلا يمكن أن تحدث ، اذ لو حدثت لكان امكان وجودها سابقا على وجودها وكان الامكان قديما بنفسه غير مضاف الى شيء ، مع أنه وصف اضافي لا يعقل قائما بنفسه •

أدلة الفلاسفة التي أوردناها حول قدم العالم كما جاءت في كتاب التهافت قد رد عليها الغزالي مقدما الأدلة والبراهين على خطئها وانحراف أصحابها عن الطريق العرفاني الصحيح فقال : الاعتراض على الدليل الاول من وجهين ــ أحدهما أن يقال : بم تنكرون على من يقول ، ان العالم حدث بارادة قديمة ، اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه ، وأن يستمر العدم الى الغاية حتى استمر فيها ، وأن يبتدىء الوجود من حيث ابتدأ ، وأن الوجود قبله لم يكن مرادا فلم يحدث لذلك ، وأنه في وقته الذي حدث فيه مراد بالارادة القديمة ، فحدث لذلك ، فما المانع من هذا الاعتقاد وما المحيل له ؟ فان قيل : هذا محال بين الاصالة ، لأن الحادث موجب ومسبب ، وكما يستحيل حادث بغير سبب وموجب ، يستحيل وجود موجب قد تم بشرائط

ايجابية وأركانه وأسبابه ، حتى لم يبق شيء منتظر البتة ، ثم يتأخر الموجب ، بل وجود الموجب عند تحقق الموجب بتمام شروطه ضروري ، وتأخره محال حسب استحالة وجود الحادث الموجب بلا موجب ·

فقبل وجود العالم كان المريد موجودا ، والارادة موجودة ، ونسبتها الى المراد موجودة ، ولم يتجدد مريد ، ولم تتجدد ارادة ، ولا تجدد للارادة بنسبة لم تكن ، فان كل ذلك تغير فكيف تجدد المراد ، وما المانع من التجدد قبل ذلك ؟

وحال التجدد لم يتميز عن الحال السابق في شيء من الاشياء ، وأمر من الأمور ، وحال من الاحوال ، ونسبة من النسب ، بل الأمور كما كانت بعينها ، ثم لم يكن يوجد المراد ، وبقيت بعينها كما كانت ، فوجد المراد ، ما هذا الا غاية الاحالة · وليس استحالة هذا الجنس في الموجب والموجب الضروري الذاتي ، بل وفي العرفي والوصفي ، فان الرجل لو تلفظ بطلاق زوجته ، ولم تحصل البنوية في الحال ، لم يتصور أن تحصل بعده ، لأنه جعل اللفظ علة للحكم بالوضع والاصطلاح فلم يقل تأخر المعلول ، الا أن يعلق الطلاق بمجيء الغد ، أو بدخول النار ، فانه جعل علة بالاضافة الى شيء منتظر ، فلما لم يكن حاضرا في الوقت ــ وهذا الغد والدخول ــ توقف حصول الموجب على حضور ما ليس بحاضر ، فما حصل الموجب الا وقد تجدد أمر وهو الدخول أو حضور الغد ، حتى لو أراد أن يأخر الموجب عن اللفظ غير منوط بحصول ما ليس بحاصل ، لم يعقل ، مع أنه الواضع المختار في تفصيل الوضع ، فاذا لم يمكننا وضع

هذا بشهواتنا ، ولم نعقله ، فكيف نعقله في الايجابات الذاتية العقلية الضرورية ؟• وأما في العادات ، فما يحصل بقصدنا لا يتأخر عن القصد مع وجود القصد اليه الا المانع ، فان تحقق القصد والقدرة وارتفعت الموانع ، لم يعقل تأخر المقصود ، وانما يتصور ذلك في العزم ، لأن العزم غير كاف في وجود العقل، بل العزم على الكتابة لا بوقع الكتابة ، ما لم يتجدد قصد ـ هو : انبعاث في الانسان متجدد حال الفعل ـ • فاذا كانت الارادة القديمة في حكم قصدنا الى الفعل ، فلا يتصور تأخر المقصود الا المانع ، ولا يتصور تقدم القصد ، فلا يعقل قصد في اليوم الى قيام في الغد الا بطريق العزم ، وان كانت الارادة القديمة في حكم عزمنا ، فليس ذلك كافيا في وقوع المعزوم عليه ، بل لا بد من تجدد انبعاث قصدي عند الايجاد ، وفيه قول بتغير القديم ، ثم يبقي عين الاشكال في أن ذلك الانبعاث أو القصد أو الارادة أو ما شئت فسمه ، لم حدث الآن ، ولم يحدث قبل ذلك فأما أن يبقى حادث بلا سبب أو يتسلل الى غير نهاية • ورجع حاصل الكلام الى أنه وجد الموجب بتمام شروطه ، ولم يبق أمر منتظر ، ومع ذلك تأخر الموجب ولم يوجد في مدة لا يرتقي الوهـم الى أولها ، بل آلاف السنين لا تنقضي منها شيئا ، ثم انقلب الموجب بغتة من غير أمر تجدد ، وشرط تحقق وهو محال في نفسه •

والجواب أن يقال : استحالة ارادة قديمة متعلقة باحداث شيء ، أي شيء كان ، تعرفونه بضرورة العقل أو نظره ، وعلى لغتكم في المنطق ، تعرفون الالتقاء بين هذين الحدين بحد أوسط أو بغير حد أوسط ، فان ادعيتم حدا أوسط وهو الطريـق النظري ، فلا بد من اظهاره ، وان ادعيتم معرفة ذلك ضرورة ،

فكيف لم يشارككم في معرفته مخالفوكم ، والفرقة المعتقدة لحدوث العالم بارادة قديمة لا يحصرها بلد ، ولا يحصيها عدد ، ولا شك في أنهم لا يكابرون العقول عنادا مع المعرفة ، فلا بد من اقامة البرهان على شرط المنطق يدل على استحالة ذلك ، اذ ليس في جميع ما ذكرتموه الا الاستبعاد والتمثيل بعزمنا وارادتنا ، وهو فاسد ، فلا تضاهي الارادة القديمة القصود الحادثة ، وأما الاستبعاد المجرد فلا يكفي من غير برهان . فان قيل : نحن بضرورة العقل فعلم أنه لا يتصور موجب بتمام شروطه من غير موجب ومجوز ذلك مكابر لضرورة العقل . قلنا : وما الفصل بينكم وبين خصومكم ، اذا قالوا لكم انا بالضرورة نعلم احالة قول من يقول : ان ذاتا واحدة عالمة بجميع الكليات من غير أن يوجب ذلك كثرة ومن غير أن يكون العلم زيادة على الذات ، ومن غير أن يتعدد العلم مع تعدد المعلوم ، وهذا مذهبكم في حق الله ، وهو بالنسبة لنا والى علومنا غاية الاحالة ، ولكن تقولون : لا يقاس العلم القديم بالحادث ، وطائفة منكم استشعروا احالة هذا ، فقالوا : ان الله لا يعلم الا نفسه ، فهو العاقل والعقل والمعقول معلوم الاستحالة بالضرورة ، اذ تقدير صانع العلم لا يعلم الا نفسه ـ تعالى عن قولكم وعن قول جميع الزائغين علوا كبيرا ـ لم يكن يعلم صنعته البتة . بل لا تتجاوز الزمان هذه المسألة فنقول : بم تنكرون على خصومكم اذا قالوا : قدم العالم محال ، لأنه يؤدي الى اثبات دورات الفلك لا نهاية لاعدادها ، ولا حصر لآحادها ، مع أن لها سدسا وربعا ونصفا ، فان فلك الشمس يدور في سنة ، وفلك زحل في ثلاثين سنة ، فتكون أدوار زحل ثلث عشر أدوار الشمس،

وأدوار المشتري نصف سدس أدوار الشمس ، فانه يـدور في اثنتي عشر سنة ، ثم كما أنه لا نهاية لاعداد دورات زحـل ، لا نهاية لأعداد دورات الشمس ، مع أنه ثلث عشره ، بل لا نهاية لأدوار فلك الكواكب الذي يدور في ستة وثلاثين ألف سنة مرة واحدة ، كما لا نهاية للحركة المشرقية التي للشمس في اليوم والليلة مرة ٠

فلو قال قائل : هذا مما يعلم استحالته ضرورة ، فبمـاذا تنفصلون عن قوله؟بل ان قال قائل:أعداد هذه الدورات شفع أو وتر ؟ أو شفع ووتر جميعا ؟ ان لا شفع ولا وتر ؟ فان قلتم شفع ووتر جميعا ، أو لا شفع ولا وتر فيعلم بطلانه ضرورة ٠

وان قلتم : شفع ، فالشفع يصير وترا بواحد ، فكيف أعوز ما لا نهاية له واحد ؟

وان قلتم : وتر ، فالوتر يصير بواحد شفعا ، فيلزمكم القول بأنه ليس بشفع ولا وتر ٠ فان قيل انما يوصف بالشفع والوتر المتناهي ، وما لا نهاية له ، قلنا : مجملة ومركبة من آحاد ، لها سدس عشر كما سبق ، ثم لا توصف بشفع ولا وتر ، يعلم بطلانه ضرورة من غير نظر ، فبماذا تنفصلون عن هذا ؟٠

فان قيل : محل الغلط في قولكم : أنه جملة مركبة من آحاد ، فان الدورات معدومة ، أما الماضي فقد انقرض ، وأما المستقبل فلم يوجد ، والجملة اشارة الى الموجودات حاضرة ولا موجودة ها هنا ٠ قلنا : العدد ينقسم الى الشفع والوتر ، ويستحيل أن يخرج عنه سواء أكان المعدود موجودا باقيـا أو فانيـا ، فاذا فرضنا عددا من الأفراس ، لزمنا أن نعتقد أنها لا تخلو مـن كونها شفعا أو وترا ، سواء قدرناها موجودة أو معدومة ، فان

انعدمت بعد الوجود ، لم تتغير هذه القضية ، على انا نقول لهم : لا يستحيل على أصلكم موجودات حاضرة ، هي آحـاد متغايرة بالوصف ، ولا نهاية لها ، وهي نفوس الآدميين للأبدان بالموت ، فهي موجودات توصف بالشفع والوتر ، فبكم تنكرون على من يقول : بطلان هذا يعرف ضرورة ، كما ادعيتم بطلان تعلق الارادة القديمـة بالأحداث ضرورة ، وهـذا الرأي في النفوس ، هو الذي اختاره (ابن سينا) ولعله (أرسطو طاليس) .

فان قيل : فالصحيح رأي أفلاطون ، وهو أن النفس قديمة ، وهي واحدة ، وانما تنقسم في الأبدان ، فاذا فارقتها عادت الى أصلها واتحدت . قلنا : فهذا أقبح وأشنع ، وأولى بأن يعتقـد مخالفا لضرورة العقل ، فانا نقول : نفس زيد عين نفس عمر أو غيره ، فان كان عينه فهو باطل بالضرورة ، فان كل واحد يشعر بنفسه ، ويعلم أنه ليس هو نفس غيره ، ولو كان هـو عينه لتساويا العلوم التي هي صفات ذاتية للنفوس داخلة مع النفوس في كل اضافة ، وان قلتم : أنه غيره ، وانمـا انقسم بالتعلق بالأبدان ، قلنا : وانقسام الواحد الذي ليس له عظم في الحجم بكمية مقدارية ، محال بضرورة العقل ، فكيـف يصير الواحد اثنين ، بل ألفا ، ثم يعود ويصير واحدا ، بل هذا يعقل له عظم وكمية ، كماء البحر ينقسم بالجداول والانهار ثم يعود الى البحر ، فأما ما لا كمية له فكيف ينقسم ؟ والمقصود من هذا كله ، أن نبين أنهم لم يعجزوا خصومهم عن معتقدهم في تعلق الارادة القديمة بالأحداث الا بدعـوى الضرورة ، وأنهـم لا ينفصلون عمن يدعي الضرورة عليهم في هذه الأمور على خلاف معتقدهم ، وهذا لا مخرج عنه .

فان قيل : هذا ينقل عليكم في أن الله قبل خلق العالم كان قادرا على الخلق بقدر سنة أو سنتين ، ولا نهاية لقدرته ، فكأنه صبر ولم يخلق ، ثم خلق ، ومدة الترك متناه أو غير متناه ؟ فان قلتم : متناه صار وجود الباري متناهي الاول • وان قلتم : غير متناهي ، فقد انقضى فيها امكانات لا نهاية لاعدادها ، قلنا : المدة والزمان مخلوق عندنا •••

الاعتراض على الدليل الثاني : هو أن يقال : الزمان حادث ومخلوق ، وليس قبله زمان أصلا ، ونعني بقولنا أن الله متقدم على العالم والزمان ، أنه سبحانه كان ولا عالم ، ثم كان ومعه عالم ، ومفهوم قولنا : كان ولا عالم ، وجود ذات الباري وعدم ذات العالم فقط ، ومفهوم قولنا : كان ومعه عالم ، وجود الذاتين فقط ، فنعني بالتقدم انفراده بالوجود فقط ، والعالم كشخص واحد ، ولو قلنا : كان الله ولا عيسى مثلا ، ثم كان وعيسى معه ، لم يتضمن اللفظ الا وجود ذات وعدم ذات ثم وجود ذاتين ، وليس من هزورة ذلك تقدير شيء ثالث ، وان كان الوهم لا يسكت عن تقدير شيء ثالث وهو الزمان ، فلا التفات الى أغاليط الأوهام •

وبعد أن يناقش الغزالي بقية عناصر الدليل الثاني بصورة مفصلة يقول : لله وجود ولا عالم معه ، وهذا القدر لا يوجب اثبات شيء آخر ، والذي يدل على أن هذا عمل الوهم ، أنه مخصوص بالزمان والمكان ، فان الخصم وان اعتقد قدم الجسم ، يذعن وهمه لتقدير قدمه ، هذا في الجسم • فاذا رجعنا الى الزمان ، لم يقدر الخصم على تقدير حدوث زمان لا قبل له ،

وخلاف المعتقد يمكن وضعه في الوهم تقديرا وفرضا • وهذا مما لا يمكن وضعه في الوهم كما كان في المكان ، فان من يعتقد تناهي الجسم ومن لا يعتقد كل واحد يعجز عن تقدير جسم ليس وراءه لا خلاء ولا ملأ ، بل لا يذعن وهمه لقبول ذلك • ولكن قيل : صريح العقل اذا لم يمنع وجود جسم متناه بحكم الدليل لا يلتفت الى الوهم • فكذلك صريح العقل لا يمنع وجودا مفتتحا ليس قبله شيء • وان قصر الوهم عنه فلا يلتفت اليه ، لأن الوهم ، لما لم يألف جسما متناهيا الا وبجنبه جسم آخر أو هواء تخيله خلاء ، لم يتمكن من ذلك في الغائب ، فكذلك لم يألف الوهم حادثا الا بعد شيء آخر • فكان عن تقدير حادث ليس له قبل هو شيء موجود قد انقضى ، فهذا هو سبب الغلط • والمقاومة حاصلة بهذه المعارضة •

واذا كان الأمر على هذا النسق بصدد الزمان ، فهو لا بد من أن يكون كذلك بصدد الحركة ، فالزمان هو قدر الحركة ، ومتى كان الزمان متناهيا ، وجب أن تكون الحركة متناهية •

الاعتراض على الدليل الثالث : يعتقد بعض الفلاسفة ، أن العالم كان ممكنا منذ القديم ، والا لكانت هناك فترة كان فيها مستحيلا ، وكان الله فيها عاجزا عن خلقه • ويخرجون من قدم الامكان قدم العالم بالذات • فيعترض عليهم الغزالي قائلا : أن يقال العالم لم يزال ممكن الحدوث ، فلا جرم ما من وقت الا ويتصور أحداثه فيه ، واذا قدر موجودا أبدا لم يكن حادثا ، فلم يكن الواقع على وفق الامكان ، بل على خلافه • وهذا كقولهم في المكان وهو أن تقدير العالم أكبر مما هو ، أو خلق جسم فوق العالم ممكن ، وكذا آخر فوق ذلك الآخر ، وهكذا الى

غير نهاية • فلا نهاية لامكان الزيادة ومع ذلك فوجود ملأ مطلق لا نهاية له غير ممكن • فكذلك وجود لا ينتهي طرفه غير ممكن ، بل كما يقال الممكن جسم متناهي السطح ولكن لا تتعين مقاديره في الكبر أو الصغر ، فكذلك الممكن الحدوث ومبادىء الوجود لا تتعين في التقدم والتأخر ، وأصل كونه حادثا متعين فانه الممكن لا غير •

ويرى الغزالي أن القول بحدوث العالم ، وافتراض مادة سابقة على حدوثه صنع منها ، ثم جعل الامكان وصفا للمادة ، لاثبات قدم المادة باسناده الى قدم الامكان ، رأى ليس بامكاننا الأخذ به باعتبار أن الامكان معنى عقلي خالص • أنه مثل معنى الامتناع ومعنى الوجوب لا يحتاج الى موجود ينضاف اليه • ويستدل على ذلك بأمور ثلاثة أحدهما : أن الامكان لو استدعى شيئا موجودا يضاف اليه ، ويقال أن امكانه لاستدعى الامتناع شيئا موجودا يقال أنه امتناعه،وليس للممتنع في ذاته وجود ، ولا مادة يطرأ عليها المحال ، حتى يضاف الامتناع الى المادة •

ولما كان السواد والبياض يقضي العقل بينهما قبل وجودهما، بكونهما ممكنين • فان كان هذا الامكان مضافا الى الجسم الذي يطرآن عليه ، بحيث يمكن أن يسود أو يبيض ، يكون الجسم هو الممكن ، ويكون السواد أو البياض مضافا اليه •

ولكننا اذا صرفنا نظرنا عن الجسم ، واتجهنا به نحو السواد أو البياض في ذواتهما ، وتساءلنا : هل البياض ممكن أم واجب أم ممتنع ؟ فكان لا بد لنا من أن نجيب ، أنه ممكن • وبذلك

يقضي العقل بالامكان دون الافتكار الى وضع ذات موجودة ، يضيف اليها الامكان ٠

واذا اعتبرنا أن نفوس الآدميين ليست سوى جواهر قائمة بانفسها ، ليست بجسم ولا مادة ، ولا منطبعة في مادة ، وهي حادثة على ما اختاره (ابن سينا) والمحققون منهم ، ولها امكان قبل حدوثها ، وليس لها ذات ولا مادة ، فامكانها وصف اضافي ، ولا يرجع الى قدرة القادر ، ولا الى فعل الفاعل ، فالى ماذا ترجع ؟ ان الاشكال لينقلب عليهم ٠

وليس هذا غريبا ، فالامكان أشبه ما يكون بالكليات الثابتة في العقل ، والتي جاء على ذكرها الفلاسفة ٠ فاذا كانت هذه الكليات لا وجود لها في الأعيان ، بل في الأذهان ، فما يمنع أن يكون الامكان لا وجود له في الاعيان !؟٠

حقيقة العالم عند الغزالي :

النقاش الذي أجراه الغزالي بين الأدلة الفلسفية التي قال بها بعض الفلاسفة وبين اعتراضاته عليها وتفنيدها ، لا بد لنا من التساؤل عن النتيجة التي يمكن أن نخرج بها معتمدين على أفكار الغزالي التي ناقش فيها الفلاسفة وفند أدلتهم حول حقيقة العالم ؟٠

ويرى الغزالي أن العالم حادث ، وحدوثه نتيجة لخلق الله ، الذي خلقه بارادة قديمة ، اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه ، وعلى الهيأة التي وجد عليها ، وفي المكان الذي وجد فيه ٠

ويذهب الغزالي الى أن جرم العالم متناه في أقطاره ، وتصور

امتداد أقطاره الى ما لا نهاية له من أخاديع الوهم · وهذا يعني أن المكان ــ وهو تابع لامتداد أقطار العالم ــ متناه أيضا ، ولا يمكن تصور مكان خارج حدود العالم · كما وأن الغزالي يعتبر أن الحركة حادثة مثل حدوث العالم ، بدأت ببدئه ، وتدوم بدوامه · واذا كانت الحركة تدوم بدوام المتحرك ، وكان تصور مكان خارج حدود العالم من أخاديع الوهم ، فمعنى ذلك أن الحركة تحدث في المكان ، وأن المكان الذي تحدث فيه متناه ، وأنها متناهية في النتيجة · ولما كان الزمان هو قدر الحركة ، بل هو الحركة التي يستغرقها المتحرك في اجتياز مكان معين · واذا كان المكان متناهيا ، ونتج عنه تناهي الحركة التي تحدث فيه ، وجب أن يكون الزمان ــ وقد قدر هذه الحركة ــ متناهيا أيضا · أضف الى ذلك ، أن الزمان بدأ ببدء العالم ، وحدث بحدوثه ، بل ان الله خلقه بمجرد خلق العالم ، وتصور زمان قبل زمان العالم ، خدعة من أخاديع الوهم ·

ويرى الغزالي اذا كان العالم حادثا ومخلوقا من قبل الله ، فهذا لا يعني أن حدوثه وخلقه يقتصران على الصور والكيفيات الطارئة ، لأن المادة حادثة أيضا ومخلوقة من قبل الله ، ومعنى خلق العالم وحدوثه ، هو خروجه بمادته وصوره وكيفياته من العدم الى الوجود ·

ويعتبر الغزالي أن العالم وجود واقعي ، ولا تجوز مقايسته بفكرة الامكان ، ولهذا فان النتائج التي نستخرجها من فكرة الامكان قد لا تنطبق على الواقع ، بحال من الاحوال ، لأن العالم قائم بالفعل ، في حين أن الامكان لا وجود له الا في عقولنا ، ولا يجوز الانتقال من المعقول الى الموجود ·

ويصل الغزالي الى السببية والعالم ، فيقول : اننا اذا رأينا حادثة تحدث ، وحادثة أخرى تعقبها ، مثل اقتراب النار من القطن واحتراقه ، لم يجز لنا أن نقول : أن النار سبب احتراق القطن ، بل كان الصواب أن نقول : أن الله هو سبب الاحتراق ، اذ بأمره يحترق القطن عند اقتراب النار منه · ثم يضيف قائلا : الاقتران بين ما يعتبر في العادة سببا ، وبين ما يعتقد مسببا ، ليس ضروريا عندنا ··· فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب ··· والاحتراق ولقاء النار ··· والموت وحز الرقبة ، والشفاء و شرب الدواء ، وهلم جرا الى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف · فان اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه ، يخلقها على التساوق ، لا لكونه ضروريا في نفسه ، غير قابل للغوث ، بل في المقدور · خلق الموت دون جز الرقبة ، وادامة الحياة مع جز الرقبة ، وهلم جرا الى جميع المقترنات · ويأخذ الغزالي مثال احتراق القطن ، ومثال النور ، فيقول : المقام الاول ، أن يدعي الخصم ، أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو في طبعه بعد ملاقاته لمحل قابل له · وينكر الغزالي صحة هذا الزعم ، ويرد الاحتراق الى الله ، اما بواسطة الملائكة ، أو بدون وساطة ، لا مشاهدة الاحتراق عند ملاقاة النار ليس دليلا ·

ثم يواصل الغزالي نقاشه قائلا : المقام الثاني مع من يسلم أن هذه الحوادث تفيض من مبادىء الحوادث · ولكن الاستعداد لقبول الصور يحصل بهذه الاسباب المشاهدة الحاضرة ، الا أن

تلك المبادىء أيضا تصدر الأشياء منها باللزوم والطبائع ، لا على سبيل التروي والاختيار ، صدور النور من الشمس ، وانما اقترفت المحال في القبول ، لاختلاف استعدادها فان الجسم الصقيل يقبل شعاع الجسم ، ويرده حتى يستضيء وبه موضع آخر ، والمدر لا يقبل ، والهواء لا يمنع نفوذ نوره ، والحجر يمنع ٠٠٠ والمبدأ واحد ، والآثار مختلفة،لاختلاف الاستعدادات في المحل ٠

ويرد الغزالي على ذلك قائلا : كيف يتصور أن تحترق احداهما دون الأخرى ؟ وليس ثم أخيار ! وهذا يعني أن الله هو الذي شاء أن يرد الجسم الصقيل شعاع الشمس ، وأن يمنعه المدر من هذا الارتداد ٠ غير أن السببية تعود الى ارتكاب محاولات شنيعة ، كأن يترك أحدنا كتابا في بيته ، ثم يجوز ان انقلب عند رجوعه الى بيته غلاما أمرد ، عاقلا متصرفا ، ثم يخلص أن لا خوف على مبدأ السببية ، ولا خوف على عقولنا من الخطأ ، اذا حكمت على الأمور ، بالاستناد اليه ٠

الله فاعل العالم :

يناقش الغزالي الفلاسفة الذين يقولون أن للعالم صانعا وأن الله هو صانع العالم وفاعله وأن العالم فعله وصنعه ، ويرى أن هذا تلبيس على أصلهم ٠ بل لا يتصور على مساق أصلهم أن يكون العالم من صنع الله ، من ثلاثة أوجه : وجه في الفاعل ، ووجه في الفعل ، ووجه في نسبة مشتركة بين الفعل والفاعل ٠

أما الذي في الفاعل فهو أنه لا بد وأن يكون مريدا مختارا عالما بما يريده ، حتى يكون فاعلا لما يريده ، والله تعالى عندهم

ليس مريدا بل لا صفة له أصلا ، وما يصدر عنه فيلزم منه لزوما ضروريا • والثاني أن العالم قديم والفعل هو الحادث • والثالث أن الله واحد عندهم من كل وجه ، والواحد لا يصدر منه عندهم الا واحد من كل وجه ، والعالم مركب من مختلفات فكيف يصدر عنه ؟•

وبعد هذا العرض يحاول الغزالي أن يبحث وجه كل واحد من هذه الوجوه الثلاثة مع خيالهم في دفعة فيقول في الاول : الفاعل عبارة عمن يصدر منه الفعل ، مع الارادة للعقل على سبيل الاختيار ومع العلم بالمراد • وعندكم أن العالم من الله كالمعلول من العلة يلزم لزوما ضروريا لا يلزم من الله دفعه ، لزوم من الشخص والنور من الشمس ، وليس هذا من العقل في شيء • بل من قال أن السراج يفعل الضوء ، والشخص يفعل الظل ، فقد جازف وتوسع في التجوز توسطا خارجا من الحد ، واستعار اللفظ اكتفاء بوقوع المشاركة بين المستعار له والمستعار عنه في وصف واحد ، وهو أن الفاعل سبب على الجملة والسراج سبب الضوء والشمس سبب النور • ولكن الفاعل لم يسم فاعلا صانعا بمجرد كونه سببا بل بكونه سببا على وجه مخصوص ، وهو على وجه الارادة والاختيار ، حتى لو قال القائل : الجدار ليس بفاعل ، والحجر ليس بفاعل ، والجماد ليس بفاعل ، وانما الفعل للحيوان ، لم ينكر ذلك ، ولم يكن قوله كاذبا • وللحجر فعل عندهم وهو الهوى والثقل والميل الى المركز ووقوع الظل ، فان كل ذلك صادر منه ، وهذا محال • فان قيل : كل موجود ليس واجب الوجود بذاته بل هو موجود بغيره ، فانا نسمي ذلك الشيء مفعولا ، ونسمي سببه فاعلا ، ولا نبالي كان السبب

فاعلا بالطبع أو بالارادة ، كما أنكم لا تبالون أنه كان فاعلا بآلة أو بغير آلة · بل الفعل جنس وينقسم الى ما يقع بآلة والى ما يقع بغير آلة ، فكذلك هو جنس وينقسم الى ما يقع بالطبع والى ما يقع بالاختيار بدليل أننا اذا قلنا : فعل بالطبع لم يكن قولنا بالطبع ضدا لقولنا فعل ، ولا دفعا ونقضا له ، بل كان بيانا لنوع الفعل ، كما اذا قلنا فعل مباشرة بغير آلة لم يكن نقضا ، بل كان تنويعا وبيانا ·

واذا قلنا فعل بالاختيار لم يكن تكرار مثل قولنا : حيوان انسان ، بل كان بيانا لنوع الفعل كقولنا فعل بآلة ، ولو كان قولنا فعل يتضمن الارادة وكانت الارادة ذاتية للفعل من حيث أنه فعل لكان قولنا فعل بالطبع متناقضا كقولنا فعل وما فعل · واذا كان الجماد لا فعل له ، فهذه التسمية برأي الغزالي فاسدة لا يجوز أن يسمى كل سبب بأي وجه كان فاعلا ولا كل مسبب مفعولا ، ولو كان كذلك لما صح أن يقال الجماد لا فعل له وانما الفعل للحيوان ، وهذه الكلمات المشهورة الصادقة ·

فان سمي الجماد فاعلا فبالاستعارة كما قد يسمى طالبا مريدا على سبيل المجاز ، اذ يقال الحجر يهوي لأنه يريد المركز ويطلبه ، والطلب والارادة حقيقة لا يتصور الا مع العلم بالمراد المطلوب ، ولا يتصور الا من الحيوان · وأما قولكم : ان قولنا فعل عام وينقسم الى ما هو بالطبع والى ما هو بارادة ، غير مسلم وهو كقول القائل : قولنا أراد عام وينقسم الى من يريد ، مع العلم بالمراد والى من يريد ولا يعلم ما يريد وهو فاسد ، اذ الارادة تتضمن العلم بالضرورة ، فكذلك الفعل يتضمن الارادة بالضرورة · وأما قولكم : ان قولنا فعل بالطبع ليس بنقض

للأول ، فليس كذلك فانه نقض له من حيث الحقيقة ، ولكن لا يسبق الى الفهم التناقض ولا يشتد نفور الطبع عنه لأنه يبقى مجازا ، فانه لما أن كان سببا بوجه ما والفاعل أيضا سبب سمي فعلا مجازا • واذا قال فعل بالاختيار فهو تكرير على التحقيق كقوله أراد وهو عالم بما أراده • الا أنه لما تصور أن يقال فعل وهو مجاز ويقال فعل وهو حقيقة لم تنفر النفس من قوله فعل بالاختيار ، وكان معناه فعل فعلا حقيقيا لا مجازيا كقول القائل : تكلم بلسانه ونظر بعينه ، فانه لما جاز أن يستعمل النظر في القلب مجازا والكلام في تحريك الرأس واليد حتى يقال قال برأسه أي نعم ، لم يستقبح أن يقال : قال بلسانه ونظر بعينه ، ويكون معناه نفي احتمال المجاز • فهذا مزلة القدم ، فلينتبه لمحل انخداع هؤلاء الأغبياء فان قيل : تسمية الفاعل فاعلا انما يعرف من اللغة ، والا فقد ظهر في العقل أن ما يكون سببا للشيء ينقسم الى ما يكون مريدا والى ما لا يكون • ووقع النزاع في أن اسم الفعل على كلا القسمين حقيقة أم لا ؟ ولا سبيل الى انكاره ، اذ العرب تقول : النار تحرق والسيف يقطع ، والثلج يبرد ، والسقمونيا تسهل ، والخبز يشبع ، والماء يروي • وقولنا يضرب معناه بفعل الضرب ، وقولنا تحرق معناه تفعل الاحتراق، وقولنا يقطع معناه يفعل القطع • فان قلتم : أن كل ذلك مجاز كنتم متحكمين فيه من غير مستند • ويصل أخيرا الى قولهم : نعني بكون الله فاعلا أنه سبب لوجود كل موجود سواه وأن العالم قوامه به ، ولولا وجود الباريء لما تصور وجود العالم ، ولو قدر عدم الباريء لانعدم العالم ، كما لو قدر عدم الشمس لانعدم الضوء • فهذا ما نعنيه بكونه فاعلا ، فان كان الخصم

يأبى أن يسمى هذا المعنى فعلا فلا مشاحة في الأسامي بعد ظهور المعنى • وغرضنا أن نبين أن هذا المعنى لا يسمى فعلا وصفا ، وانما المعنى بالفعل والصنع وما يصدر عن الارادة حقيقة • وقد نفيتم حقيقة معنى الفعل ونطقتم بلفظة تجملا بالاسلاميين ، ولا يتم الدين باطلاق الألفاظ الفارغة عن المعاني ، فصرحوا بأن الله لا فعل له ، حتى يتضح أن معتقدكم مخالف لدى المسلمين • ولا يلبسوا بأن الله صانع العالم وأن العالم صنعه فان هذه لفظة أطلقتموها ونفيتم حقيقتها ، ومقصود هذه المسألة الكشف عن هذا التلبيس فقط •

قدم العالم وحدوثه عند الفارابي :

ولما كان الفارابي في طليعة الفلاسفة المسلمين الذين وقفوا تفكيرهم العقلاني على اظهار الحقائق الكامنة وراء الوجود والموجودات فقد استحق بحق أن يلقب بالمعلم الثاني • كونه وضع نظاما اجتماعيا ، وفلسفيا ودينيا ، قدوة مثالية للبشرية جمعاء ذو أهداف ومقاصد لا يزال الفكر البشري حتى عصرنا يبحث لجلاء غوامضه ، وسبر أغواره لاكتشاف رموزه واشاراته، التي أثرت في العقول ، وأخرجتها من حد القوة الى حد الفعل ومن حيز الجمود والتعصب الى حيز الانطلاق والتحرر •

والجدير بالملاحظة أن الفارابي قد ناقش آراء أرسطو وأفلاطون بقدم العالم فرد على مزاعمهم قائلا : أن الذي دعى هؤلاء الى هذا الظن القبيح المستنكر بأرسطو طاليس الحكيم ، هو ما قاله في كتاب « طوبيقا » أنه توجد قضية واحدة بعينها يمكن أن يؤتى على كلا طرفيها قياس من مقدمات ذائعة ، مثال

ذلك ، هذا العالم قديم أم ليس بقديم • وقد وجب على هؤلاء المختلفين ، أما أولا فبأن ما يؤتى به على سبيل المثال لا يجري مجرى الاعتقاد ، وأيضا فان غرض أرسطو في كتاب « طوبيقا » ليس هو بيان أمر العالم ، لكن غرضه أمر القياسات المركبة من المقدمات الذائعة • وكان قد وجد أهل زمانه يتناظرون في أمر العالم : هل هو قديم أم محدث ، كما كانوا يتناظرون في اللذة ، هل هي خير أم شر ، وكانوا يأتون على كلا الطرفين من كل مسألة بقياسات ذائعة • وقد بيَّن أرسطو في ذلك الكتاب وفي غيره من كتبه ، أن المقدمة المشهورة لا يراعي فيها الصدق والكذب لأن المشهور ربما كان كاذبا ، ولا يطرح في الجدل لكذبه ، وربما كان صادقا ، فيستعمل لشهرته في الجدل ، ولصدقه في البرهان • فظاهر أنه لا يمكن أن ينسب اليه الاعتقاد بأن العالم قديم بهذا المثال الذي به في هذا الكتاب (١) •

ومما دعاهم الى ذلك الظن أيضا ، ما يذكره في كتاب « السماء والعالم » أن الكل ليس له بدؤ زماني ، فيظنون عند ذلك أنه يقول بقدم العالم ، وليس الأمر كذلك • اذ قد تقدم فبين في ذلك الكتاب وغيره من الكتب الطبيعية والالهية ، أن الزمان انما هو عدد حركة الفلك ، وعنه يحدث ، وما يحدث عن الشيء لا يشتمل ذلك الشيء • ومعنى قوله : إن العالم ليس بدؤ زماني • انه لم يتكون أولا فأولا بأجزائه ، كما يتكون البيت مثلا ، أو الحيوان الذي يتكون أولا فأولا بأجزائه ، فان أجزاءه يتقدم بعضها بعضا في الزمان • والزمان حادث عن حركة الفلك •

---

(١) الجمع بين راي الحكيمين : الفارابي ص (١٠٠ — ١٠١) •

فمحال أن يكون لحدوثه بدؤ زماني • ويصح بذلك أنه انما يكون عن ابداع الباري جل جلاله ، اياه دفعة بلا زمان ، وعن حركته حدث الزمان (١) • ومن نظر في أقاويله في الربوبية في الكتاب المعروف « بأثولوجيا » لم يشبه عليه أمره في اثباتـه الصانع المبدع لهذا العالم • فان الامر في تلك الأقاويل أظهر من أن يخفى • وهناك تبين أن الهيولى أبدعها الباري ، جل ثناؤه لا عن شيء ، وأنها تجسمت عن الباري سبحانه ، وعن ارادته ، ثم ترتبت • وقد بيَّن في « السماع الطبيعي » أن الكل لا يمكن حدوثه بالبحث والاتفاق ، وكذلك في العالم جملته • يقول في كتاب « السماء والعالم » : ويستدل على ذلك بالنظام البديع الذي يوجد لأجزاء العالم بعضها مع بعض •

وقد بيَّن هناك أيضا أمر العلل ، لِمَ هي ، وأثبت الأسباب الفاعلة • وقد بيَّن هناك أيضا أمر المكون والمحرك ، وأنه غير المتكون وغير المتحرك • وكما أن أفلاطون بيَّن في كتابه المعروف « بطيماوس » أن كل متكون فانما يكون مـن علة مكونة لـه اضطرارا ، وأن المتكون لا يكون علة لكونـه ذاته • كذلـك أرسطو طاليس بيَّن في كتاب « أثولوجيا » أن الواحد موجود في كل كثرة ، لأن كل كثرة لا يوجد فيها الواحد لا يتناهى أبدا البتة • وبرهن على ذلك براهين واضحة ، مثل قوله ان كل واحد من أجزاء الكثير ، اما أن يكون واحدا واما أن لا يكون واحدا ، فان لم يكن واحدا لم يخل من أن يكون أما كثيرا وأما لا شيء • وان كان لا شيء لزم أن لا يجتمع منها كثرة ، وان

---

(١) الجمع بين راي الحكيمين ص (١٠١) .

كان كثيرا فما الفرق بينه وبين الكثرة ؟ ويلزم أيضا من ذلك أن ما يتناهى أكثر مما لا يتناهي ثم بيَّن أن ما يوجد فيه الواحد من هذا العالم فهو لا واحد الا بجهته وجهة ، فاذا لم يكن في الحقيقة واحدا ، بل كان كل واحد فيه موجودا ، كان الواحد غيره وهو غير الواحد • ثم بيَّن أن الواحد الحق هو الذي أفاد سائر الموجودات الواحدية • ثم بيَّن أن الكثير بعد الواحد ، لا محالة • وأن الواحد تقدم الكثرة • ثم بيَّن أن كل كثرة تقرب من الواحد الحق كان أول كل كثرة مما يبعد عنه ، وكذلك بالعكس • ثم يترقى ، بعد تقديمه هذه المقدمات ، الى القول في أجزاء العالم الجسمانية منها والروحانية ، ويبيَّن بيانا شافيا أنها كلها حدثت عن ابداع الباري لها وأنه عز وجل ، هو العلة الفاعلة ، الواحد الحق ، ومبدع كل شيء ، على حسب ما بيَّنه أفلاطون في كتبه في « الربوبية » مثل « طيماوس » و « بوليطا » وغير ذلك من سائر أقاويله وأيضا فان حروف أرسطوطاليس فيما بعد الطبعة انما يترقى فيها من الباري جل جلاله ، في حرف اللام ، ثم ينحرف راجعا في بيان صحة ما تقدم من تلك المقدمات ، الى أن يسبق فيها ، وذلك مما لا يعلم أنه يسبقه اليه من قبله ولم يلحقه من بعده الى يومنا هذا • فهل تظن بمن هذا سبيله أنه يعتقد نفي الصانع وقدم العالم ؟•

ومما يلفت النظر اذا غصنا في فلسفة الفارابي الماورائية نراه قد شرح وعلق بأسلوب عرفاني واضح على الهيات أرسطو وجاءت نظرياته في هذا المجال مطابقة لالهيات أرسطو وأفكاره الماورائية التي ميز فيها بين الماهية والوجود ، ووجود الواجب الوجود المحض ، التام ، المطلق ، ولم يقف نشاطه العرفاني

عند هذا الحد ، بل تعداه الى الموجود الأول فقال : آنه موجود بذاته وليس لوجــوده سبب ، بــل هــو السبــب لوجود سائر الموجودات ، وهو بريء من جميع أنحاء النقص • من أجل ذلك كان وجوده أقدم الوجود وأفضل الوجود معا • والموجود الاول كان دائما موجودا بالفعل ، ولم يكن قط موجودا بالقوة ـــ أي أنه لم يوجد بعد أن لم يكن ـــ وكذلك ليس له أفعال بالقوة ـــ أي أفعال لم تظهر بعد ـــ من أجل ذلك هو أزلي دائم الوجود بجوهره وذاته • ثم هو ليس مادة ، وليس هو في صورة ، لأن الصورة لا تقوم الا في مادة • وكذلك ليس لوجوده غاية ، والا لكانت تلك الغاية أسبق منه في الوجود المطلق ، ولما كان هو موجودا أولا • والموجود الأول مخالف لكل موجود آخر ، فلا يمكن أن يكون ثمة شيء مثله حتى يكون شريكا له • ثم هو منفرد بوجوده وبرتبته لا ضد له • والضد عادة يشرك ضده أو يوازيه ، فيبطل ضده مرة ويبطله مرة أخرى ، وما دام هو موجودا ولم يبطله شيء ، فذلك دليل على أن ليس له ضد • والموجود الأول ليس له حد ، أي تعريف دال على ماهيته ، ان الحد في الاصل وصف لأقسام الشيء المراد تعريفه ، فاذا عرفنا تلك الاجسام عرفناه • وبما أن الموجود الأول واحد من كل جهة وليس فيه أقســام فــلا يمكــن أن يكــون لــه حد أو تعــريــف • وبمــا أن الموجــود الأول لا يشبهه شيء مــن الموجودات كــان كل مــا فيه خاصا به وحده،ولذلك كانت وحدته عين ذاته وعين وجوده• ثم بما أن وجوده ليس مادة ولا صورة ، فانه عقل بالفعل ، لأن العقل هو الموجود الوحيد الذي لا يحتاج في قوامه الى مادة أو صورة • وبما أنه أيضا مخالف لكل موجود آخر ، فلا يمكــن

للموجودات الأخرى أن تدركه · ولا هو محتاج الى أن يدرك شيئا شبيها به من خارجه ليستعين بذلك على ادراك نفسه كما نفعل نحن عادة · ولذلك لا يدركه الا هو · وهذا معنى قولنا : أنه يعقل نفسه · ومثل ذلك قولنا أنه عالم يعلم نفسه · واذا قلنا أنه حكيم ، فاننا نعني أنه يعلم أفضل الاشياء علما دائما · وهو الحق ، لأن حقيقة الشيء هي الوجود الذي يخصه ، والحق انما هو الموجود من جهة ما هو معقول · ثم هو حي لأنه يعقل الموجودات على مـا هي (على نهايـة الكمـال مـن الادراك للموجودات) ·

غير أننا نحن ندرك الموجود الاول ادراكا ناقصا لضعف قوى عقولنا ، لأن تلك القوى متلبسة بالمادة التي من شأنها أن تلحق بما يتلبس بها نقصا · ومن آجل المادة التي فينا كان جوهرا بعيدا عن جوهره · ولكن كلما استطعنا أن نكون مفارقين للمادة – بالعلم وبتخلص النفس من أسر الجسد – أصبح ادراكنـا للموجودات الأول أكثر كمالا · ولله عظمة وجلال ومجد هي له بحسب كماله هو ، وفي جوهره نفسه ، اذ لا يوجد خارجه ما هو أعظم منه أو مثله حتى يقارن بينهما · ولذلك يلتذ الموجود الأول بنفسه ويعشق ذاته لأن ادراكـه لنفسـه هـو الادراك الاتقن (١) · وهو مباين بجوهره لكل ما سواه ، ولا يمكن أن يكون الوجود الذي له لشيء آخر سواه ، لأن كل ما وجوده هذا الوجود لا يمكن أن يكون بينه وبين شيء آخر له أيضا هـذا الوجود مباينة أصلا ، ولا تغاير أصلا ، فلا يكون اثنان ، بل يكون هناك ذات واحد فقط ، لأنه ان كانت بينهما مباينة كان

(١) الفارابي : المدينة الفاضلة ص (٣٨ – ٣٩) ·

الذي تباينا به غير الذي اشتركا فيه · فيكون الشيء الذي باين كل واحد منهما الآخر جزاء مما به قوام وجودهما ، والذي اشتركا فيه هو الجزء الآخر · فيكون كل واحد منهما منقسما بالقول ، ويكون كل واحد من جزئيه سببا لقوام ذاته · فلا يكون أولا ، بل يكون هناك موجود آخر أقدم منه هو سبب لوجوده ، وذلك محال ·

وان كان ذلك الآخر هو الذي فيه ما باين به هذا ، ولم يكن في شيء يباين به ذلك الا بعد الشيء الذي به باين ذلك ، لزم أن يكون الشيء الذي به باين ذلك الآخر هذا هو الوجود الذي يخص ذاك · وجود هذا مشترك لهما ، فاذن ذلك الآخر وجود مركب من شيئين : من شيء يخصه ، ومن شيء يشارك به هذا · فليس اذن وجود ذلك هو وجود هذا ، بل ذات بسيط غير منقسم ، وذات ذلك منقسم · فلذلك اذن جزآن بهما قوامه · فلوجوده اذن سبب ، فوجوده اذن دون وجود هذا وأنقص منه · فليس هو اذن من الوجود في الرتبة الأولى · وأيضا فانه لو كان مثل وجوده في النوع خارجا منه بشيء آخر ، لم يكن تام الوجود ، لأن التام هو ما لا يمكن أن يوجد خارجا منه وجود من نوع وجوده ، وذلك في أي شيء كان ، لأن التام في العظم هو ما لا يوجد عظم خارجا منه ، والتام في الجمال هو الذي لا يوجد جمال من نوع جماله خارجا منه ، وكذلك التام في الجوهر هو ما لا يوجد شيء من نوع جوهره خارجا منه ، وكذلك كل ما كان من الاجسام تاما ، لم يمكن أن يكون من نوعه شيء آخر غيره ، مثل الشمس والقمر وكل واحد من الكواكب الأخر · اذا كان الاول تام الوجود لم يمكن أن يكون ذلك الوجود لشيء آخر غيره · فاذن

هو منفرد الوجود وحده ، فهو واحد من هذه الجهة (١) • وأيضا فانه لا يمكن أن يكون له ضد • وذلك يتبين اذا عرف معنى الضد • وأن الضد مباين للشيء ، فلا يمكن أن يكون ضد الشيء ، هو الشيء أصلا • ولكن ليس كل مباين هو الضد ، ولا كل ما لم يمكن أن يكون هو الشيء هو الضد • لكن كل ما كان مع ذلك معاندا ، شأنه أن يبطل كل واحد منهما الآخر ويفسده اذا اجتمعا ، ويكون شأن كل واحد منهما أنه أن يوجد حيث الآخر موجود يعدم الآخر ، ويعدم من حيث هو موجود فيه لوجود الآخر في الشيء الذي كان فيه الاول • وذلك عام في كل شيء يمكن أن يكون له ضد • فانه ان كان الشيء ضدا للشيء في فعله ، لا في سائر أحواله ، فان فعليهما فقط بهذه الصفة • فان كانا متضادين في كيفيتهما ، فكيفيتهما بهذه الصفة • وان كانا متضادين في جوهرهما ، فجوهرهما في هذه الصفة (٢) •

وان كان الاول له ضد فهو من ضده بهذه الصفة ، فيلزم أن يكون شأن كل واحد منهما أن يفسد وأن يمكن في الأول أن يبطل عن ضده ، ويكون ذلك في جوهره • وما يمكن أن يفسد ، فليس قوامه وبقاؤه في جوهره ، بل يكون جوهره غير كاف في أن يبقى موجودا ، ولا أيضا يكون جوهره كافيا أن يحصل موجودا ، بل يكون ذلك بغيره • وأما ما أمكن أن لا يوجد فلا يمكن أن يكون أزليا ، وما كان جوهره ليس بكاف في بقائه أو وجوده ، فلوجوده أو بقائه سبب آخر غيره ، فلا يكون أولا • وأيضا فان وجوده انما يكون لعدم ضده • فعدم ضده اذن هو سبب وجوده ، فليس

---

(١) الفارابي : المدينة الفاضلة ص ٤٠ •
(٢) الفارابي : المدينة الفاضلة ص ٤٢ •

اذن هو السبب الأول على الاطلاق • وأيضا فانه يلزم أن يكون لهما أيضا حيث ما مشترك ، قابل لهما حتى يمكن بتلاقيهما فيه أن يبطل كل واحد منهما الآخر ، أما موضوع أو جنس أو شيء آخر غيرهما ، ويكون ذلك ثابتا ، ويتعاقب هذان عليه • فذلك اذن هو أقدم وجودا من كل واحد منهما •

وان وضع واضع شيئا ما هو بهذه الصفة ضدا لشيء ، فليس الذي يضعه ضدا ، بل مباينا مباينة الضد ، ونحن لا ننكر أن يكون للأول مباينات أخر سوى مباينة الضد وسوى ما يوجـد وجوده • فاذن لم يمكن أن يكون موجود ما في مرتبة وجوده ، لأن الضدين هما في رتبة واحدة من الوجود • فاذن الاول منفرد بوجوده ، لا يشاركه شيء آخر أصلا موجود في نوع وجوده • فهو اذن واحد • وهو مع ذلك منفرد أيضا برتبته وحده • فهو أيضا واحد من هذه الجهة •

وبعد هذا العرض الشيق حول الموجود الاول وكونه مخالف لكافة الموجودات العلوية والسفلية يرى الفارابي أن وحدته هي عين ذاته ، وأنه حق وحي وحياة فيقول : « فان وجوده الذي به ينحاز عما سواه من الموجودات لا يمكن غير الذي هو به في ذاته موجود » • فلذلك يكون انحيازه عن ما سواه توحده في ذاته • وان أحد معاني الوحدة هو الوجود الخاص الذي بـه ينحاز كل موجود عما سواه ، وهي التي بها يقال لكل موجود واحد من جهة ما هو موجود الوجود الذي يخصه ، وهذا المعنى من معاني الواحد يساوق الموجود الاول • فالأول أيضا بهذا الوجه واحد،وأحق من كل واحد سواه باسم الواحد ومعناه(١) •

---

(١) الفارابي : المدينة الفاضلة ص (٤٦ — ٤٧) .

ولأنه ليس بمادة ، ولا مادة له بوجه من الوجوه ، فانـه بجوهره عقل بالفعل • لأن المانع للصورة أن تكون عقلا وأن تعقل بالفعل ، هو المادة الذي يوجد فيها الشيء • فمتى كان الشيء في وجوده غير محتاج الى مادة ، كان ذلك الشيء بجوهره عقلا بالفعل : وتلك حال الاول ، فهو اذن عقل بالفعل ، وهو أيضا معقول بجوهره • فان المانع أيضا للشيء من أن يكـون بالفعل معقولا هو المادة ، وهو معقول من جهة ما هو عقل ، لأن الذي هويته عقل ليس يحتاج في أن يكون معقولا الى ذات أخرى خارجة عنه تعقله ، بل هو بنفسه يعقل ذاته ، فيصير بما يعقل من ذاته عاقلا وعقلا بالفعل ، وبأن ذاته تعقله يصير معقـولا بالفعل • وكذلك لا يحتاج في أن يكون عقلا بالفعل وعاقـلا بالفعل الى ذات يعقلها ويستفيدها من خارج ، بل يكون عقلا وعاقلا بأن يعقل ذاته • فان الذات التي تعقل هي التي تعقل ، فهو عقل من جهة ما هو معقول ، فانه عقل وأنه معقول وأنه عاقل • هي كلها ذات واحدة وجوهر واحد غير منقسم • فان الانسان مثلا معقول وليس المعقول منه معقولا بالفعل ، بل كان معقولا بالقوة ثم صار معقولا بالفعل بعد أن عقله العقل •

فليس اذن المعقول من الانسان هو الذي يعقل ، ولا العقل منه أبدا هو المعقول • ولا عقلنا نحن من جهة ما هو عقل هو معقول ، ونحن عاقلون لا بأن جوهرنا عقل ، فان ما نعقل ليس هو الذي به تجوهرنا ، فالأول ليس كذلك ، بل العقل والعاقل والمعقول فيه معنى واحد ، وذات واحدة ، وجوهر واحد غير منقسم • وكذلك الحال في أنه عالم • فانه ليس يحتاج في أن يعلم الى ذات أخرى يستفيد بعلمها الفضيلة خارجة عن ذاته ،

ولا في أن يكون معلوما الى ذات أخرى تعلمه ، بل هو مكتف بجوهره في أن يعلم ويعلم • وليس علمه بذاته شيئا سوى جوهره فانه يعلم وأنه معلوم وأنه علم ، فهو ذات واحدة وجوهر واحد• وكذلك في أنه حكيم • فان الحكمة هي أن العقل فضل الاشياء بأفضل علم ، وبما يعقل من ذاته ويعلمه يعلم أفضل الاشياء • وأفضل العلم هو العلم الدائم الذي لا يمكن أن يزول ، وذلك هو علمه بذاته • وكذلك بالنسبة في أنه حق ، وأنه حي •• فان الحركة والزمان واللانهاية والعلوم وأشباهها من الموجودات، فالمعقول من كل منها في نفوسنا معقول ناقص ، اذ كانت هي في أنفسها موجودات ناقصة الوجود • والعدد والثالث والمربع وأشباهها فمعقولاتها في أنفسنا أكمل لأنها هي في أنفسها أكمل وجودا ، فلذلك كان يجب في الاول ، اذ هو في الغاية من كمال الوجود ، أن يكون المعقول منه في نفوسنا على نهاية الكمال أيضا • ونحن نجد الأمر على غير ذلك ، فينبغي أن نعلم أنه من جهته غير معتاص الادراك ، اذ كان في نهاية الكمال ، ولكن لضعف عقولنا نحن وللابستها المادة والعدم ، يعتاص ادراكه ، ويعسر علينا تصوره ، ونضعف من أن نعقله على ما هو عليه وجوده •

كذلك قياس السبب الاول والحق الاول ، وعقولنا نحن • ليس نقص معقولة عندنا لنقصانه في نفسه ، ولا عسر ادراكنا له لعسره في وجوده ، لكن لضعف قوى عقولنا نحن عسر تصوره • ويلاحظ مما تقدم أن الفارابي يبين فلسفته الماورائية على أنه من الثابت من وجود الموجودات ، لا بد من وجود كائن واجب الوجود ، ووجود ذاته ، ووجوده علة وجود كافة الموجودات ،

العلوية والسفلية ، وهذا ما يسميه السبب الاول ، والعقل الاول ، والموجود الاول بذاته ، الذي يمد ولا يستمد ٠

الفيض والابداع بمفهوم الفارابي :

يصور لنا الفارابي فلسفيا وعقلانيا كيفية صدور الموجودات عن الموجود الاول في عالم الابداع ، بعد أن يجعل الموجود الاول ، السبب الاول لوجود سائر الموجودات ، لأنه بريء من جميع أنحاء النقص باعتبار وجوده أفضل الوجود وأقدم الوجود ، لذلك لا يمكن أن يشوب وجوده وجوهره عدم أصلا ٠ ولهذا كانت كافة الموجودات التي أوجدها أقل منه كمالا ٠ ولما كانت هذه الموجودات مكونة من عناصر متنوعة وجب أن تكون متفاوتة بالدرجة والكمال ٠

ويرى الفارابي أن الموجودات تصدر عن الاول من جهة الفيض وجوده ٠ لأن الوجود يفيض فيضا ضروريا الا أنه ليس لغاية ، لأن الخالق لم يوجد لأجل غيره ، بل ان هذا الايجاد جود منه ، فالوجود يصدر عنه ، كما يصدر النور عن الشمس ، والحرارة عن النور ، بموجب ترتيب معين وترابط وثيق محكم « ومتى وجد للأول الوجود الذي له ، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات » ٠

ومن ثم يأتي دور مراتب الموجودات التي فاضت عن الموجود الاول فيرتبها الفارابي كما يلي : « ويفيض عن الاول وجود الثاني ، فهذا الثاني هو أيضا جوهر غير متجسم أصلا ، ولا هو في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل الاول ، فيما يعقل من الاول يلزم

عنه وجود ثالث ، وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه يلزم عنه وجود السماء الأولى » • ثم يستمر الفيض عند الفارابي على هذه الصورة ، فيوجد عن العقل الثالث كرة الكواكب الثابتة ، وعن العقل الرابع كرة زحل ، وعن العقل الخامس كرة المشتري، وعن العقل السادس كرة المريخ ، وعن العقل السابـع كـرة الشمس ، وعن العقل الثامن كرة الزهرة ، وعن العقل التاسع كرة عطارد ، وعن العقل العاشر كرة القمر •

وعند كرة القمر ينتهـي فيض الأجسام السماويـة ، أو الموجودات المطلقة التي لا تقع تحت تأثير عالم الكون والفساد ، لأن السماء الأولى هي أعلى الافلاك ، وكرة القمر أدناها ، وجميع هذه الافلاك محيطة بالارض ، والارض ثابتة بالمركز • وأما بقية الموجودات التي تكون دون فلك القمر فلا تكون كاملة ، بل تترقى صعدا وتبلغ كمالا قاصرا على طبيعة كل نوع من أنواعها •

وأدنى الموجودات التي هي دون فلك القمر عند الفارابي الهيولى التي لا صورة لها ، وفوقها العناصر الاربعة ، ثم الجماد ، ويليه النبات ، فالحيوان البهيم ثم الحيوان الناطـق ، الذي هو الانسان • ومن امتزاج النفس البشرية بالشكل والمادة المعنوية خرج الكون الحسي والانسان والحيوان والنبات والجماد ، وهي كلها تتألف من العناصر الأولية الاربعة التي دارت عليها علوم جميع الفلاسفة القدماء وهي : التراب، والهواء، والماء، والنار•

ولا بد لنا من الاستماع الى الفارابي وهو يتحدث عن كيفية صدور جميع الموجودات عن الموجود الاول فيقول : « والاول

هو الذي عنه وجد · ومتى وجد للأول الوجود الذي هو له ، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات التي وجودها لا بارادة الانسان واختياره ، على ما هي عليه من الوجود الذي بعضه مشاهد بالحس وبعضه معلوم بالبرهان · ووجود ما يوجد عنه انما هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر ، وعلى أن وجود غيره فائض عن وجوده هو · فعلى هذه الجهة لا يكون وجود ما يوجد عنه سببا له بوجه من الوجوه ، ولا على أنه غاية لوجود الأول ، كما يكون وجود الابن ــ من جهة ما هو ابن ــ غاية لوجود الأبوين ــ من جهة ما هما أبوان ــ يعني أن الوجود الذي يوجد عنه يفيده كمالا ما ، كما يكون لنا ذلك عن جل الاشياء التي تكون منا ، مثل انا باعطائنا المال لغيرنا نستفيد من غيرنا كرمة أو لذة أو غير ذلك من الخيرات ، حتى تكون تلك فاعلة منه كمالا ما ·

فالأول ليس وجوده لأجل غيره ، ولا يوجد بغيره ، متى يكون الغرض من وجوده أن يوجد سائر الاشياء ، فيكون لوجوده سبب خارج عنه ، فلا يكون أولا ، ولا أيضا باعطائه ما سواه الوجود ينال كمالا لم يكن له قبل ذلك خارجا عما هو عليه من الكمال ، كما ينال من يجود بماله أو شيء آخر ، فيستفيد بما يبذل من ذلك لذة أو كرامة أو رئاسة أو شيئا من غير ذلك من الخيرات ، فهذه الاشياء كلها محال أن تكون في الاول ، لأنه يسقط أوليته وتقدمه ، ويجعل غيره أقدم منه وسببا لوجوده ، بل وجوده لأجل ذاته ، ويلحق جوهره ووجوده ويتبعه أن يوجد عنه غيره · فلذلك وجوده الذي به فاض الوجود الى غيره هو في جوهره ، ووجوده الذي به تجوهره في ذاته ، هو بعينه وجوده الذي به

يحصل وجود غيره عنه ، وليس ينقسم الى شيئين ، يكون بأحدهما تجوهر ذاته وبالآخر شيء آخر عنه ، كما أن لنا شيئين نتجوهر بأحدهما ، وهو النطق ، ونكتب بالآخر ، وهو صناعة الكتابة ، بل هو ذات واحدة وجوهر واحد ، به تكون تجوهره وبه بعينه يحصل عنه شيء آخر (١) .

ثم ينتقل الفارابي الى التحدث في مراتب الموجودات فيقول : « الموجودات كثيرة ، وهي مع كثرتها متفاضلة . وجوهره جوهر يفيض منه كل وجود كيف كان ذلك الوجود ، كان كلاما أو ناقصا . وجوهره أيضا جوهر ، اذا فاضت منه الموجودات كلها بترتيب مراتبها ، حصل عنه لكل موجود قسطه الذي له من الوجود ومرتبته منه . فيبتدىء من أكملها وجودا ثم يتلوه ما هو أنقص منه قليلا ، ثم لا يزال بعد ذلك يتلو الأنقص الى أن ينتهي الى الموجود الذي ان تخطى عنه الى ما دونه تخطى الى ما لم يمكن أن يوجد أصلا ، فتنقطع الموجودات من الوجود . وبان جوهره جوهرا تفيض منه الموجودات من غير أن يخص بوجود دون وجوده . فهو جواد ، وجوده هو في جوهره ، ويترتب عنه الموجودات ، ويحصل لكل موجود قسطه من الوجود بحسب رتبته عنه ، فهو عدل ، وعدالته في جوهره ، وليس ذلك لشيء خارج عن جوهره . وجوهره أيضا جوهر ، اذا حصلت الموجودات مرتبة في مراتبها ، أن يأتلف ويرتبط وينتظم بعضها مع بعض ، ائتلافا وارتباطا وانتظاما تصير بها الاشياء الكثيرة جملة واحدة ، وتحصل كشيء واحد (٢) ... » .

---

(١) الفارابي : المدينة الفاضلة ــ ص (٥٥ ــ ٥٦) .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .

وبعد هذا الشرح المبسط يصف الفارابي الموجودات الثواني وكيفية صدور الكثير ، فيقـول : « يفيض مـن الاول وجود الثاني » فهذا الثاني هو أيضا جوهر غير متجسم أصلا ، ولا هو في مادة · فهو يعقل ذاته ويعقل الاول ، وليس ما يعقل من ذاته هو شيء غير ذاته · فبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود ثالث ، وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه يلزم عنه وجـود السماء الأولى ·

والثالث أيضا وجوده لا في مادة ، وهو بجوهره عقل · وهو يعقل ذاته ويعقل الاول · فبما يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة الكواكب الثابتة ، ومما يعقله عن الاول يلزم عنه وجود رابع · وهذا أيضا لا في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل الاول ·· فبما يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة زحل ، وبما يعقله من الاول يلزم عنه وجود خامس · وهذا الخامس أيضا وجوده لا في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل الأول · فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة المشتري ، وبما يعقله من الاول يلزم عنه وجود السادس وهذا أيضا وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الاول · فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة المريخ ، وبما يعقله من الاول يلزم عنه وجود سابع · وهذا أيضا وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الاول · فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة الشمس ، وبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود ثامن · وهو أيضا وجوده لا في مادة ، ويعقل ذاته ويعقل الاول · فبما يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة الزهرة ، وبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود تاسع · وهذا أيضا وجوده

لا في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل الاول • فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة عطارد،وبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود عاشر • وهذا أيضا وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الاول ، فبما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة القمر ، وبما يعقل من الاول يلزم عنه وجود حادي عشر • وهذا الحادي عشر هو أيضا وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الاول ، ولكن عنده ينتهي الوجود الذي لا يحتاج ما يوجد ذلك الوجود الى مادة وموضوع أصلا • وهي الأشياء المفارقة التي هي في جواهرها عقول ومعقولات • وعند كرة القمر ينتهي وجود الاجسام السماوية ، وهي التي بطبقتها تتحرك دورا (١)•

ابن رشد وحدوث العالم :

ولما كانت مشكلة حدوث العالم من المشاكل الاساسية التي عالجها حكماء المسلمين كل حسب مفهومه لهذه المشكلة الحساسة فمن الطبيعي أن ينبري فيلسوف حكيم وعالم نحرير مثل ابن رشد فيكوكب أفكاره ويطلق تأملاته العقلانية ليبحث بهذه المشكلة بأسلوب عقلاني يدل على طول باعه في أمثال هذه المواضيع الشائكة التي لا تزال موضع خلاف بين أكثر المفكرين •

وابن رشد من جانبه يجعل القرآن نبراسه في الاستدلال على حدوث العالم وبقية المشاكل الماورائية وهو يرى أن القرآن بصفة خاصة أهاب بنا في آيات كثيرة الى ضرورة معرفة العالم وفهمه ، حتى نصل من هذه المعرفة الى أنه صنع صانع حكيم

---

(١) الفارابي : المدينة الفاضلة ــ ص ٦٢ .

هو الله جلت حكمته . ولم يغفل ابن رشد عن نقد طريقة المتكلمين الأشاعرة لاثبات هذه العقيدة مؤكدا أنها ليست الطريقة الشرعية الحقة التي أشار القرآن اليها وأنها مع هذا لا تصلح للحكماء لأنها ليست يقينية . ولا تصلح للجمهور لأنها ليست بسيطة قليلة المقدمات التي تكون نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها . باعتبار أن أسلوب هؤلاء القوم لاثبات حدوث العالم تقوم على القول بتركيب الاجسام من أجزاء لا تتجزأ ، وأن الجزء الذي لا يتجزأ محدث . والاجسام محدثة بحدوثه . ومسلكهم في بيان حدوث الجزء الذي لا يتجزأ والذي يسمونه الجوهر الفرد طريقة عقيمة صعبة تذهب على كثير من أهل الرياضة في صناعة الجدل فضلا عن الجمهور ، ومع ذلك فهي طريقة غير برهانية ولا تقود يقينا الى وجود الباري (١) . ولا ندري اذا كانت هذه الطريقة برأي ابن رشد لا تصلح وليست يقينية ماهية الطريقة التي يراها تقود الى اثبات وجود العالم عن الله تعالى ؟.. ان هذه الطريقة هي التي نبه الكتاب العزيز عليها ، ودعا الكل من خلالها . واذا تعمقنا في فحوى الكتاب العزيز وجدناها تنحصر في نوعين : أحدهما طريق الوقوف على العناية بالانسان وخلق جميع الموجودات من أجله ، ولنعتبر هذا دليل العناية .

والطريقة الثانية ما يبدو من اختراع جواهر الاشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد ، والادراكات الحسية ، والعقل . ولنعتبر هذا دليل الاختراع (٢) .

---

(١) فلسفة ابن رشد ص ٣٠ .
(٢) الكشف صفحة ٤٥ .

ومن الملاحظ أن ابن رشد عندما يتحدث عن دليل العناية يرى بأن هذا الدليل قطعي وبسيط ، وذلك لأن مبناه على أصلين معترف بهما عند الجميع : أحدهما أن العالم بجميع أجزائه يوجد موافقا في جميع أجزائه لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات ، والاصل الثاني أن كل ما يوجد منسجما في جميع أجزائه لفعل واحد ، وموجها نحو غاية واحدة ، فهو مصنوع ضرورة ، فينتج من هذين الأصلين بالطبع أن العالم مصنوع وأن له صانعا أي أنه محدث لا قديم (١) ، وهذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود في القرآن ، وهذا حق مصدق كما يرى ابن رشد وذلك ظاهر في آيات كثيرة ، يلفتنا القرآن بها الى ضرورة النظر في العالم وفي سائر الموجودات ليتأكد لنا أنها من خلق اله حكيم في صنعه ٠

ويعتمد ابن رشد على آيات كثيرة منها قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا،لنخرج به حبا ونباتا،وجنات الفافا (٢) » ٠

ومن الطبيعي أن يلتفت ابن رشد الى هذه الآيات التي اذا تأملها الانسان وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الانسان ، وذلك أنه تعالى ابتدأ فنبه على أمر معروف بنفسه لنا معشر الناس الابيض والاسود ، وهو أن الارض خلقت

---

(١) فلسفة ابن رشد ص ٨٣ .
(٢) سورة النبأ : من اية ٦ الى ١٦ .

بصفة يتأتى لنا المقام عليها ، وأنها لو كانت بشكل آخر غير شكلها ، أو في موضع آخر غير الموضع الذي هي فيه ، أو بقدر آخر غير هذا القدر لما أمكن أن نخلق عليها ولا أن نوجد فيها ٠ وهذا كله محصور في قوله تعالى : « ألم نجعل الارض مهادا » ٠ وذلك أن المهاد يجمع الموافقة في الشكل والسكون والوضع وزائدا الى هذا معنى الوثارة واللين ، فما أعجب هذا الاعجاز !٠ وقد نبه الله قائلا : « والجبال أوتادا » يعني أن المنفعة الموجودة في سكون الارض بسبب الجبال ، فانها لو كانت أصغر مما هي لتزعزعت من حركات الماء والهواء وخرجت من موضعها ، ولهلك ما عليها من الحيوان ضرورة واذن انسجام سكونها لما عليها من الموجودات لم يكن بالاتفاق ، ولكن عن قصد قاصد وارادة مريد ، فهي ضرورة مصنوعة بذلك القاصد سبحانه وموجودة على الصفة التي قدرها ٠

أما قوله تعالى : « وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا » ليس سوى تنبيها على موافقة الليل والنهار للحيوان والنبات ، اذ يسترها من حرارة الشمس كما يستر اللباس الجسد ويقيه شدة الحرارة ، ومع هذا فالليل يجعل كل ما فيه حياة يستغرق في النوم ، ولذلك قال : « وجعلنا نومكم سباتا » أي متواصلا بسبب الظلام ٠ ثم قال : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » أي السنوات التي عبر عنها بلفظ البنيان عن معنى الاختراع لها ، وكذلك عن معنى ما فيها من نظام واتفاق لما خلقت من أجله ، عبر بلفظ الشدة عما جعل فيها من القوة على الحركة الدائبة الدائمة ، فليس هناك خوف من أن تخر كما تخر السقوف والمباني العالية وهذا كله تحذير من الخالق على موافقة

السماوات والافلاك وسائر ما فيها ، في أعدادها وأشكالهـا وأوضاعها وحركاتها لوجود ما على الارض وما حولها ، حتى أنه لو وقف جرم من الاجرام السماوية لحظة واحدة ، فضلا عن أن تقف كلها ، لفسد ما على وجه الارض • ونبه بقوله « وجعلنا سراجا وهاجا » على منفعة الشمس بخاصة وموافقتها لوجود ما على الأرض ، اذ لولا الضوء لما انتفع الانسان والحيـوان بحاسة البصر ، ونبه على هذه المنفعة لأنها أشرف منافع الشمس وأظهرها • ثم يقول « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات الفافا » وبذلك نبه الخالق سبحانه وتعالى على العناية في نزول المطر ، وأنه ينزل لمكان الحيوان والنبات ، وأن نزوله لهذا بقدر محدود وفي أوقات محدودة لا يمكن أن يكون عن مصادفة ، بل سبب ذلك العناية الالهية بالأرض وما عليهـا •

ويلاحظ أن ابن رشد قد استدل بتلك الآيات على أن العالم صنع من صنع الله وخلق من خلقه ، وذلك بدليل يفهمه الناس جميعا وتؤمن له عقولهم وقلوبهم ، كما وأننا نراه يقرر أن العالم محدث عن ارادة قديمة ، وأنه خلق من لا شيء وفي غير زمان ، أمر لا يمكن أن يتصوره العلماء فضلا عن الجمهور ، ويوقع في شبهة عظيمة تفسد عقائد الجمهور وبخاصة أهـل الجدل منهم •

ولذلك كان أهل علم الكلام بصنيعهم بهذه المسألة وبقولهم أن العالم محدث عن ارادة الله القديمة ليسوا من العلماء الناجين بما وصلوا اليه من العلم البرهاني اليقيني الذين هم أهل له ،

ولا من الجمهور الذين سعادتهم (١) في اتباع الظاهر وما سمح به الشارع ، بل هم من الذين في قلوبهم زيغ ومرض ٠

معرفة الله عند ابن رشد :

قبل أن يقدم ابن رشد الأدلة الشرعية الصالحة الخاصة بمعرفة الله ووجوده يعرض الى أدلة رجال علم الكلام الأشاعرة عليها ، ثم يتبعه بطريقة المتصوفة في الاستدلال وينقد كلا من الطريقتين ٠ ودليل الأشاعرة الذي يذهب الى أن العالم حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث ، وهذا المحدث هو الله ٠ وهذه الطريقة كما يراها ابن رشد ، ليست هي الطريقة الشرعية التي نبه الله عليها ، ودعا الناس للايمان من قبلها ، وهذا لما في اثبات كل هذه المقدمات من شكوك ليس في قوة صناعة الكلام الخروج منها ، كما بيّن ذلك بشيء من التطويل ٠

وأما الطريقة الصوفية فانها لا تقوم على النظر بالعقل في العالم الموجود للاستدلال منه على الله موجده ، ولكنها تقوم على الذوق وحده ٠ وهذه الطريقة كما يرى ابن رشد ليست للناس بما هم ناس ، ولو كانت هي المقصودة لبطل النظر العقلي الذي دعا القرآن اليه ونبه على طريقه ٠

وطالما أن الدليلين مذكورين لم يقبل بهما ابن رشد لمعرفة الله ووجوده فمن البديهي أن ينهج نهج السبيل الذي نبه القرآن نفسه اليه ، وهو ينحصر في دليلين : دليل العناية الذي يقوم على أن جميع الموجودات موافقة لوجود الانسان وسائر ما على وجه

(١) فلسفة ابن رشد ص ٩١ ٠

الأرض من حيوان ، فهي اذن من قبل فاعل قاصد مريد لذلك ·
ثم يعتمد على دليل الاختراع الذي يقوم على أن كل شيء من السماوات والحيوان والنبات مخترع ، وذلك بدليل المشاهدة في هذين ، وبدليل حركات السموات التي تؤذن بأنها مسخرة لنا ، وكل ما كان كذلك فهو مخترع حيثما وكل مخترع لـه مخترع ضرورة ، فيصح من هذين الأصلين أن العالم مخترع ···

الالهيات عند ابن سينا :

يشتم من خلال أبحاث ابن سينا العديدة في العلم الالهـي الماورائي أنه وجه عناية فائقة خاصة الى الله سبحانه وتعالى وأكد عن طريق البحث أنه واحـد وليس سببـا لوجود بعض الموجودات فقط · بل هو سبب لوجود المعلول كلـه ، أي أنه الوجود بمجموعه · وهو تام بذاته ، كل ما يليق به وكل ما يمكن أن يكون له موجود فيه منذ الأزل ، بسيط لا يتكثر ولا يتجزأ ، اذ أنه لا بجسم ولا مادة ولا صورة ، واجب الوجود بنفسه ، لا علة له ، ولا شريك ولا ضد ، ولذلك كان واحدا ، وهو سبب الحركة في العالم ، وهو يعلم أوائل الموجودات منذ الأزل ·

وعالج ابن سينا في مؤلفاته الفلسفية قضية واجب الوجود وممكن الوجود ، وذكر الخلاف بين رجال الدين وبين الفلاسفة حول هذين المدركين : ففي الدين واجب الوجود هو الله وحده · وممكن الوجود كل شيء غير الله سواء أكان ذلك الشيء موجودا بالفعل ، أو لم يكن قد وجد بعد · لأن الدين يرى أن الموجودات كلها ممكنة الوجود ، لأن الله تعالى كان بامكانه ألا يوجدها لو أراد ، ثم انه بامكانه أن يعدمها بعد أن أصبحت موجودة · أما

الفلاسفة فيرون كما يرى رجال الدين أن واجب الوجود بنفسه هو الله • وواجب الوجود بالله هو مجموع العالم بمادته وصورته • وواجب الوجود بغيره هو كل شيء موجود في عالمنا بالفعل ، فالابن مثلا واجب الوجود بأبيه ، والطاولة واجبة الوجود بالنجار ، والسيف واجب الوجود بالحداد •

وأما ممكن الوجود فهو كل شيء لم يوجد بعد ، كالناس الذين سيولدون ، والطاولات التي لم تصنع بعد ، فاذا صنعت تلك الطاولات أصبحت واجبة الوجود • ويعتقد ابن سينا أن عناية الله بالعالم كلية ، أي أن الله خلق هذا العالم حسب نظام حكيم ثم جعل كل موجود مخصوصا بعمل • فكل ما يجري في عالمنا يجري على نظام ويقصد به تحقيق عمل ، تلك العناية الالهية • وليس معنى العناية اكرام شخص دون شخص أو نفر دون نفر بتبديل القوانين الطبيعية حبا ببعضهم أو نصرة لبعضهم على بعض • وليس في نظام العالم الطبيعي خير مطلق أو شر مطلق ، وانما يكون الخير أو الشر بالاضافة الينا : فالعمى مثلا يكون في العين وله أسباب طبيعية • فاذا أصيبت العين بحجر قاس أو بمرض متلف فلا بد من أن تحدث فيها النتائج التي تتعلق باصابتها بالحجر أو بالمرض •

وحول علم الله يرى ابن سينا أن علمنا نحن البشر ، نتيجة للحوادث التي تتأثر بها حواسنا ، أما علم الله فهو سبب تلك الحوادث • ان علم الله كلي كتقدير النتائج التي تحصل أو ستحصل من جريان القوانين الطبيعية في عالمنا • نحن لا نعلم بالكسوف الا اذا حسبناه لكل كوكب بمفرده ، أما الله فانه يعلم

كل كسوف وقع أو سيقع منذ الأزل لأنه عالم بالقوانين التي يجري بها الكسوف ·

أما الجزئيات كالكسوف الذي حصل في يوم كذا من سنة كذا فالله لا يعلمها يوم تقع ، لأنه كان عالما أيضا أنها ستقع ، ومنذ الأزل : أنه لا يعلمها لأنها وقعت كما نعلمها نحن ، بل يعلمها منذ الأزل ، لأنهـا نتيجـة حتميـة للقوانين التي هو خلقهـا ووضعها (١) ·

الفيض عند ابن سينا :

اعتقاد ابن سينا حول الفيض الالهي وخلق العالم لا يختلف كثيرا عن اعتقاد الفارابي وغيره من حكماء الاسماعيلية ، فهو يرى أن الواجب الوجود بنفسه ، الذي هو الخير الأول ، الأول في الوجود ، الموجود الاول ، الحق الاول ، العلة الأولى · واحد ، وهو عقل محض ، ليس بصورة ولا مادة ولا جسما ، يجب أن يعقل أنه يلزمه وجود الكل ، أي وجود هذا العالم عنه ، وأنه مبدأ لنظام الخير في هذا الوجود · وليس في ذلك ما يمنـع أن يصدر هذا الوجود عنه ، ولا أن يكره هو ذلك ، ثم ان الله الواحد القديم القادر العالم الحكيم الجواد يحب أن تظهر قدرته وعلمه وحكمته ووجوده · وبما أن الله أيضا هو العلة الأولى ، فلا بد من أن يكون ثمة معلول عنه ، والا لما كان علة ·

من أجل ذلك صدر عن الاول عقل واحد بالعدد ، لأنـه

---

(١) تاريخ الفكر العربي : ص ٣٢٩ .

لا يصدر عن الواحد الا واحد · وبما أن هذا العقل قد فاض عن الله فانه يشبه الله من جانب ، ولكنه يخالف الله من جانب آخر ، لأنه معلول عن الله ومتأخر عنه بالذات ، ولذلك كان صورة لا في مادة · وهذا المعلول الاول عن العقل المحض هو الثاني في الوجود وأول العقول المفارقة ، ويشبه أن يكون المبدأ المحرك للجرم الأقصى على سبيل التشويق · وفي هذا العقل يبدأ التكثير أنه يعقل ذاته ثم يعقل الاول ضرورة ، هذا الاثنينية في الوجود الثاني هو سبب التكثير في الفيوضات التالية · ان هذا العقل يصدر عنه ثلاثة موجودات : يعقل الاول فيلزم عنه (يفيض منه ضرورة) عقل ثان ، هو الثالث في مرتبة الوجود ، ثم يعقل ذاته وهنا يبدأ التكثر بالتنوع ، فيلزم عنه شيئان : وجود صورة الفلك الاقصى وكمالها ، وهي النفس ، وبما أن الصورة لا تظهر بلا مادة ، فان الصورة تتوسط العقل الذي صدرت هي منه ، أو تشاركه في ايجاد المادة · ثم يستمر الفيض متسلسلا هبوطا على نمط السابق ، عقلا مفارقا وصورة فلك وجرما فلكيا حتى تصبح الفيوضات كلها عشرة ، هي بعد الموجود الأول الله :

١ ــ العقل المفارق الأول ــ المعلول الأول ·

٢ ــ العقل المفارق الثاني ــ ومعه الفلك الاقصى الذي يحرك العالم ·

٣ ــ العقل المفارق الثالث ــ ومعه فلك الكواكب الثوابت فلك النجوم ·

٤ ــ العقل المفارق الرابع ــ ومعه فلك زحل ·

٥ ــ العقل المفارق الخامس ــ ومعه فلك المشتري ·

٦ ـ العقل المفارق السادس ـ ومعه فلك المريخ
٧ ـ العقل المفارق السابع ـ ومعه فلك الشمس ٠
٨ ـ العقل المفارق الثامن ـ ومعه فلك الزهرة ٠
٩ ـ العقل المفارق التاسع ـ ومعه فلك عطارد ٠
١٠ ـ العقل المفارق العاشر ـ وهو العقل الفعال ، ومعه فلك القمر ٠

وهنا يقف فيض المعقول ، ولكن يفيض من العقل الفعال عالم ما دون فلك القمر ، أو تحت فلك القمر ، وهو عالمنا الذي نعيش فيه ، وهو عالم الكون والفساد ، الـذي تتكون فيـه الأجسام وتتفرق ٠

ومن العقل الفعال تفيض العناصر الاربعة ، ثم تتركب من العناصر الاربعة ، بنسب مختلفة ، أجساما ٠ وتتطور تلـك الاجسام صعودا من الجماد الى النبات فالحيوان البهيم فالانسان ٠

والله سبحانه وتعالى لا يقبل أن يفيض الا الخير ، ولكن الشر الموجود في العالم قد أفاض بالعرض (١) ٠ ان الله سبب وجود العالم فالعالم محدث ، لأن له علة سابقة عليه ٠ ولكنه في الوقت نفسه قديم لأنه فاض عن الله منذ الأزل ٠

ابن سينا والعقل والنفس :

في أغلب مؤلفات ابن سينا خصص مؤلفاته الفلسفية للتحدث عن العقل وماهيته ووجوده وانفعالاته واستشهد كما يستشهد

---

(١) تاريخ الفكر العربي : ص ٣٣٠ .

عادة فلاسفة المسلمين بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ليدعم نظرياته وأفكاره · لقد جعل ابن سينا العقول في خمس مراتب :

١ ـ العقل الهيولاني : ويعني العقل الانساني في أولى أطواره ·

٢ ـ العقل الملكة : وهو المرحلة الثانية التي تقبل فيها المعقولات الأولى من العقل الفعال ·

٣ ـ العقل بالفعل : وهو المرحلة الثالثة حينما تفيض على العقل بالملكة معلومات ومعقولات أخرى من العقل الفعال ·

٤ ـ العقل المستفاد : هو العقل الذي تكون الصورة المعقولة حاضرة فيه ، فيعقلها ويدركها أنه يعقل بالفعل ·

٥ ـ العقل القدسي : يعتبر بنظر ابن سينا من أرفع العقول وأسماها ، وليس مما يشترك فيها الناس جميعا ، فمن الناس من يهبه الله سبحانه وتعالى شدة الصفاء ، وقدرة الاتصال بالعقل الفعال ، موجد هذا الكون ، فترتسم في هذه العقول السامية ، كثيرا من الصور التي هي في العقل الفعال · كعقول الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، الذين وقفوا نفوسهم على استنباط العلوم الالهية ، والارتشاف من رحيق المعرفة الماورائية ·

أما النفس عند ابن سينا واهتمامه بها فقد فاق الوصف، وكسب قصب السبق على كافة العلماء الذين سبقوه في التحدث عنها ، من قبل ومن بعد ، ومع أن أكثر أفكاره وآرائه فيها أرسطو طاليسية ، فان له نظريات وتعليلات مخالف بها أرسطو ،

متأثرا بما يعتلج في أعماقه من ايمان عميق بالاسلام ، وعقائده السمحاء • ولقد قدم ابن سينا البراهين العقلية المقنعة التي تثبت وجود النفس كجوهرة روحانية قائمة بذاتها ، كأصل للقوى المدركة ، والمحركة ، والمحافظة للمزاج ، والمتصرفة في أجزاء الجسم الانساني ، كونه محتاج اليها تمام الاحتياج في حين أن النفس لا تحتاج اليه في شيء •

ويرى ابن سينا أنه لا يتعين جسم ولا يتحدد الا اذا اتصلت به خلصته • بينما النفس هي هي سوداء اتصلت بالجسم أم لم تتصل به ، ولا يمكن حسب رأي ابن سينا أن يوجد جسم بدون النفس ، لأنها مصدر حياته وحركته ، وعلى العكس تعيش النفس بمعزل عن الجسم ، ولا أدل على هذا من أنها متى انفصلت عنه تغير الجسم ، وأصبح شبحا من الأشباح • في حين أن النفس بالانفصال والصعود الى العالم العلوي تحيا حياة كلها بهجة وسعادة ، فالنفس اذا جوهرة روحانية قائمة بذاتها •

والنفس كما يرى ابن سينا تسوس البدن كما أنها تدرك المعقولات ، وكونها تسوس البدن يوجد شبه بينها وبين القوة الحيوانية النزوعية التي تحدث فيها هيئات تخص الانسان • فيتهيأ بها بسرعة فعل أو انفعال مثل الخجل والحياء والضحك والبكاء وما أشبه ذلك • فالنفس تستعمل هذه القوة في استنباط التدابير في الأمور الكائنة واستنباط الصناعات الانسانية وتوجه الجسم في عمله وترشده في أفعاله فتتولد من جراء ذلك الآراء الذائعة المشهورة ، مثل أن الكذب قبيح ، والظلم قبيح ، أما الوظيفة الثانية التي تقوم بها النفس فهي ادراكها المعقولات ،

وهذا يدل على تحرر النفس عن الجسم · ويلاحظ ابن سينا أن النفس لها جانبين : من جانب يشترك فيه الانسان مع الحيوان والنبات ، ويكون تعريف النفس من هذا الجانب أنها كمال بجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة · أما الجانب الآخر الذي يشترك الانسان فيه مع الملائكة فتعريف النفس فيه أنها جوهرة روحانية تكمل الجسم وتحركه بالاختيار عن مبدأ نطقي عقلي بالقوة في النفس الانسانية أو بالفعل للنفس الكلية ، ويعرف هذا الجانب من النفس بالنفس الكلي أو نفس الكل أو العقل الكلي أو عقل الكل (١) ·

ويعتقد ابن سينا أن النفس صورة الجسم تمكنه من الظهور بمظهره المخصوص به ومن القيام بأعماله وواجباته الخاصة به · ان السيف مثلا : حديدة مسنونة تقطع ، فحديدته هي جسمه المادي وحدته الناتجة من أنه مسنون والتي يقطع بها هي صورته الروحانية أو نفسه · وكذلك الانسان لا يسمى انسانا بالأجزاء التي فيه من العناصر الاربعة ، التي هي النار ، والماء ، والهواء ، والتراب ، بل بعقله الذي به يتأمل ويفكر ويخلق ويبدع · والنفس ليس لها وجود سابق على وجود بدنها ، بل كلما حدث بدن صالح للحياة حدثت له نفس خاصة به ، ويكون البدن الحادث مملكة تلك النفس وآلتها · والنفس لا يمكن أن تأتي من شيء مادي كالجسم ، لأنها مخالفة للجسم ، لذلك فهي متصلة بالفيض في ثنايا ترتيب العقول · واذا امتزجت مقادير من العناصر الاربعة امتزاجا فيه اعتدال وتكافؤ ، نشأ من هذا

---

(١) ابن سينا : النجاة ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

الامتزاج أجسام مستعدة لقبول نفوسها الخاصة بها • وكلما كان الامتزاج أكثر اعتدالا كان الجسم الناتج منه أرقى ، فتقبل من أجل ذلك نفسا ألطف • ان الاجسام الكثيفة الناتجة من امتزاجات قليلة الاعتدال ، كالحجارة والحديد وماء البحر تقبل نفوسا كثيفة نسميها الطبيعة ونفوس النبات على هذا القياس ألطف من نفوس الجماد ، ونفوس الحيوان البهيم ألطف من نفوس النبات • وبما أن جسم الانسان أحسن اعتدالا من أجسام الحيوان البهيم والنبات والجماد ، فانه يقبل نفسا ألطف من نفوسها كلها • فاتصال النفس بالجسم هو استعداد في كل جسم لتقبل نفس مكافئة في اعتدالها لاعتدال ذلك الجسم •

وحتى يتمكن ابن سينا من اقامة الدليل على وجود النفس في الانسان يرى أن هناك طريقتان :

طريق الحدس وطريق النظر العقلي • أما طريق النظر العقلي الذي هو دليل التفكير والتأمل ، فيأتي من ادراك المعقولات الذي لا يأتي عن طريق الحواس التي لها أعضاء ظاهرة في البدن ، لذلك تدرك تلك المعقولات بقوة مخالفة للبدن وزائدة عليه ، وهي غير الحواس التي لها أعضاء ظاهرة في البدن، تلك هي النفس الجوهرة الروحانية التي هي جزء من النفس الكلية •

أما طريق الحدس فيأتي كما يعتقد ابن سينا عندما يدرك دائما الانسان أنه موجود ، وأنه هو ، وأن وجوده متصل ، وفق البراهين الثلاثة التالية : فالبرهان الاول يقوم على استمرار الحياة العقلية فينا ، ان الجسد يتغير ، ينمو بالغذاء

ويهزل ويضحك بالمرض ، أو تتعطل بعض أعضائه • أما ادراك الانسان وشعوره ببقاءه وتذكره لما مضى من عمره ومعرفته بالمحسوسات والمعقولات ، فلا يتغير بذلك ، فهو دليل على أن الذات أو النفس العاقلة مغايرة للبدن ولأجزائه الظاهرة والباطنة ، ففينا شيء اذن غير الجسد ، ذلك هو النفس تلك الجوهرة الروحانية الخالدة (١) •

والبرهان الثاني والثالث يقومان على الموازنة بين المعرفة من طريق الحواس والمعرفة من غير طريق الحواس • فحينما يفقد الانسان عضوا من أعضائه يبطل الحس المتعلق بذلك العضو ، ففقدان العين أو تلفها يؤدي الى بطلان البصر ، وفقدان الذراع يؤدي الى بطلان تناول الانسان الاشياء بالطريق المألوفة المعتادة ، ولكن ذاته أي نفسه العاقلة لا تتأثر في معارفها بشيء من ذلك • حتى أن الانسان حينما يقول : رأيت بعيني أو سمعت بأذني أو مشيت برجلي ، فانما يعني أنه هو ذاته الذي فعل كل ذلك • والعين كانت في الحقيقة آلة للرؤية ولم تكن المنتفعة بالرؤية •

أما المقصود بالمنفعة من الرؤية فكان ذات الانسان • ولذلك يقول الانسان دائما : أنا رأيت ، أنا سمعت ، أنا مشيت • فهذا المدرك المنطوي في قوله : أنا هو النفس على الحقيقة وهو مخالف لجسمه وللحواس المتصلة بأعضاء من جسمه ، ويتبع البرهان الثاني خاصة أن الانسان قد يفكر أو يفعل ، وهو في

---

(١) ابن سينا : الاشارات ص ٣٠٥ •

أثناء ذلك كله غافل عن أعضاء بدنه وحواسه ، حتى أنه قد يكون مستغرقا في تفهم قضية ثم ينادي باسمه بصوت مرتفع من قريب فلا يسمع ، ولكنه لا يغفل عما هو بسبيله من التأمل والتفكير • وهذا أيضا دليل على أن نفسه غير بدنه وغير حواسه المتصلة ببدنه •

ويرى ابن سينا لو أن انسانا خلق دفعة واحدة وكاملا ثم حجب بصره أيضا ، وكان يهوي هويا لا تتلاقى فيه أعضاؤه ولا تتماس ، ولا كان ثمة هواء في الفضاء يصدم جسمه ، أو كان في الفضاء هواء ولكن لا يكفي لأن يصدم جسمه صدما يحس به ، فان هذا الانسان الهاوي في الفضاء يظل مثبتا لذاته ، ومدركا أنه موجود •

واعتمادا على ما ذكرناه يمكننا أن نقول بأن النفس ليست جسما انما هي جوهرة روحانية غير قابلة للكون والفساد ، ولا تتكثر ولا تتألف من أشياء ، بل قائمة بالذات لا تحتاج في وجودها الى شيء هو غيرها • وهي روحانية ليست مادية ولا تعلق لها بالمادة ، ثم هي مفارقة بنفسها غير محتاجة في قوامها الى مادة ،وهي موجودة فعلا مستقلة عن البدن•

ابن سينا وخلود النفس :

استطاع ابن سينا عن طريق التحليل والمطابقة أن يبرهن على روحانية النفس الانسانية عن طريق ادراكها للمعقولات ، كون طبيعتها تختلف عن طبيعة البدن ، كما وان وظيفتها تختلف عن وظيفته • لذلك يرى : أنها لا تموت بموت البدن ولا تقبل الفساد أصلا • أما أنها لا تموت بموت البدن ، فلأن كل شيء

يفسد بفساد شيء آخر فهو متعلق به نوعا من التعلق • وكل متعلق بشيء نوعا من التعلق فاما أن يكون تعلقه به تعلق المكافىء في الوجود وأما أن يكون تعلقه به تعلق المتأخر عنه في الوجود ، وأما أن يكون تعلقه به تعلق المتقدم عليه في الوجود الذي هو قبله بالذات لا بالزمان (١) •

وبعد هذا الرأي يناقش ابن سينا ثلاث فرضيات فيقول :

١ ـ ان كان تعلق النفس بالبدن تعلق المكافىء في الوجود ، يكون كل واحد منها جوهرا ، فاذا فسد أحدهما بطلت الاضافة بينهما ، وهي اضافة عارضة ، وبقي الجوهر الآخر •

٢ ـ ان كان تعلق النفس بالبدن تعلق المتأخر عنه في الوجود ، فيكون البدن علة النفس ويعتمد على أربعة علل هي :

أ ـ أما أن يكون البدن علة فاعلية للنفس ، معطية لها الوجود ، وهذا مستحيل لأن الجسم بما هو جسم لا يفعل شيئا ، وانما يفعل بقواه التي هي من النفس •

ب ـ أما أن يكون البدن علة فاعلية للنفس ، وذلك محال أيضا لأن النفس ليست منطبعة في البدن بوجه من الوجوه ، فلا يكون اذن البدن متصورا بصورة النفس •

جـ ـ أما أن يكون البدن علة صورية للنفس ، وهذا يستحيل اذ أن النفس هي التي تعطي الصورة للبدن •

---

(١) النجاة : القسم الثاني ، المقالة السادسة ، الفصل الثالث عشر .

د ــ أما أن يكون البدن علة كمالية للنفس ، وهذا أيضا مستحيل اذ أن الامر عكس ذلك . فاذن ليس تعلق النفس بالبدن تعلق معلول بعلة ذاتية .

٣ ــ ان كان تعلق النفس بالجسم تعلق المتقدم في الوجود ، فاما أن يكون التقدم مع ذلك زمانيا ، فيستحيل في هذه الحالة أن يتعلق وجود النفس بالجسم ، اذ أنها تكون قد قدمت الجسم في الزمان ، أي وجدت قبل الجسم ، وهذا مستحيل ، وأما أن يكون التقدم في الذات بمعنى أنه اذا وجدت الذات المتقدمة استفاد عنها الجسم وجوده ، وهذا مستحيل اذ أن البدن لا يبقى ما بقيت النفس ، بل ينحل .

ويخلص ابن سينا الى أن لا تعلق للنفس في الوجود بالبدن ، بل يكون تعلقها في الوجود وفق المباديء الأخر التي لا تستحيل ولا تبطل ، وهي العقول المفارقة والنفس الكلية . فالنفس صادرة عن العقل الفعال ، واهب الصور وهو جوهر عقلي أزلي باق ، ويبقى المعلول ببقاء علته (١) .

ولما كانت النفس جوهرا بسيطا ، والبسيط لا ينحل ولا ينعدم ، فاذن النفس خالدة ، مصيرها مصير البدن المركب والقابل للانحلال .

مبدع الهويات عند اخوان الصفا :

يعتقد جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء أنه من المفروض

(١) ابن سينا : رسالة في معرفة النفس الناطقة ص ١٣ .

أن يكون المبدع أو الموجد أقدم من المدْع والموجد لأنه علة ابداعه ووجوده منذ البدء ، باعتبار كل مصنوع هو حادث بالنسبة لأزلية الصانع · والناس على اختلاف أهوائهم وتفكيرهم وتأملهم ، ميالون بالفطرة الى الاقرار بوجود كائن عظيم ، عاقل حكيم ، أرفع من جميع الموجودات لأنه علة ايجادها وأصل خلقها وابداعها وتنظيمها وترتيبها في حركة دائمة ، لحفظها وخيرها واستمرارها الى ما لا نهاية ، وهو المبدع أو الخالق ، أو الله سبحانه وتعالى ·

وهذا المبدع أو الصانع يتمتع بقوة جبارة عظيمة مهما اختلفت الزوايا التي ينظر منها الانسان الى هذه القوة فستظل القوة الاصلية الثابتة ، والحافظة العوالم في حركة مستمرة ، ورباط وثيق ، كارتباط المعلول بالعلة ، والمخلوق بالخالق ، والصنعة بالصانع · لأنه مبدأ ومرجع كل شيء ، ذو كمال متناه باعتباره الكائن الموجود من ذاته ، أي الموجود الذي يوجد بمجرد ماهيته ، فلا يحتاج الى علة خارجة تعطيه الوجود ، لكون ما لا يوجد من ذاته ، يحتاج في وجوده الى علة فاعلة تحدثه ، ووجود العلل الفاعلة المترتبة بالذات دليل بين على وجود علة أولى لها يتعلق بها وجودها ، وهي غير معلولة ·

وهذا الوجود الذي أقرت به معظم الأمم والشعوب ، في كل زمان ومكان ، ووقف أمام قوته وقدرته العقل البشري موقف الدهشة والعجز والتواضع ، باعتباره العلة الأولى والغاية القصوى لكل الموجودات الحادثة والغير موجودة من ذاتها ، أزلي غير متغير في وجوده وقوته ، لا مثيل له ولا شريك ، لا بدء

ولا نهاية له ، ندعوه الله ونتوسل اليه في صلواتنا وعباداتنا الظاهرة والباطنة • والله سبحانه وتعالى هو علة العلل ، والعلة الأولى اللامعلومة التي يتعبنا ادراك ماهيتها لأننا عاجزين عن ادراك وجودها ، لأن وجودها هو ذاتها ، والذات والوجود واحد في الله • والعقل البشري مهما بلغ من السمو والارتقاء يقف عاجزا عن ادراك الله بنوره الا ادراكا ناقصا ، وهذا الادراك لا يكون الا من جهة آثاره • ولما كانت هذه الآثار غير كاملة متناهية والله غير متناه ، فقد صح العجز عن ادراك الماهية الالهية بنور العقل البشري ، والله تعالى الموجود بذاته ، الذي يوجد عنه كل ما في الامكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال ، منزه عن جميع الصفات التي تتصف بها موجوداته ، ومبدعاته ، ومكوناته لا مثال له ، مبدأ كل موجود لاستناد جميع الموجودات اليه ، ولصدورها عنه •

من هذه المنطلقات العرفانية الماورائية تكون المحور الاساسي الذي تدور عليه كافة الشرائع والأديان في ايمانها بوجود اله خالق مبدع نظم الطبيعة وسيرها بقدرته الخالقة ، وقوته العظيمة ، أمر فكان الليل والنهار وتعاقب الفصول ، وكانت السماء بكواكبها ، والكواكب بمنازلها وبروجها وأفلاكها ، والرياح بجريانها ، والارض وما عليها ، فسبحت له كافة الموجودات العلوية ، والمخلوقات الجسمانية ، والمبدعات الروحانية ، ناطقة بعظمته ، ومنبئة عن باهر قدرته ، فذلت العقول خاضعة لنور وحدته •

ولما كانت فلسفة جماعة « اخوان الصفا وخلان الوفاء (١) »

---

(١) رسائل أخوان الصفاء ج ٣ ص ١٧٩ منشورات صادر-بيروت .

تنطلق من اثبات الخالق المبدع المصور ولزوم عبادته ، وتبحث عن الله تعالى وكمالاته ، وتدعو الى الايمان بوجوده ، وتهدف الى توحيده ، وتجريده ، وتنزيهه ، رأينا أن نقدم بعض آراء هذه الجماعة في المبدع ، لنلاحظ الى أي حد تنسجم مع الفلسفة العرفانية المعروفة في الحياة ٠

يرى جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء أن الباري تعالى هو مبدع علة الموجودات ، وخالق المخلوقات ومخترعها ، وهو واحد بالحقيقة من جميع الوجوه : « اعلم ، أيدك الله وايانا بروح منه ، أن الوجود متقدم على البقاء ، والبقاء متقدم على التمام ، والتمام متقدم على الكمال ، لأن كل كاملٍ تام ، وكل تام باق ، وكل باق موجود ٠

ولكن ليس كل موجود باقيا ، ، ولا باق تاما ، ولا كل تام كاملا ، وذلك أن الباري ، جلت أسماؤه ، الذي هو علة الموجودات ومبدعها ومبقيها ٠ ومتممها ومكملها ، أول فيض فاض منه الوجود ، ثم البقاء ، ثم التمام ، ثم الكمال » ٠ وبالاضافة الى ايمانهم بأن الله تعالى واحد بالحقيقة يؤكدون بأنه علة الموجودات ومبدعها ومبقيها ومتممها ومكملها ، لأن أول فيض فاض منه الوجود ، ثم التمام ثم الكمال ، ثم البقاء وذلك ليدلوا على أن البقاء أفضل وأسمى مرتبة من التمام والكمال ،معتمدين على نظريتهم في خواص العدد التي تثبت الفرق بين التمام والكمال ٠ ويعتبرون بأن علم العدد هو فيض العقل على النفس ، وذلك أثناء عملية الابداع الأول ٠ ولنستمع اليهم

ماذا يقولون في الرسالة الجامعة (١) : « الحمد لله مبدع الوجود، الذي لم يكن من قبله موجود يقبل منه فيض الجود ، فسبحان من موجوده قابل لجوده مقر بوجوده معترف بتوحيده • فهـو موجد الموجود ، ومفيض الجود على الموجود ، فبدأ كل موجود يقبل فيض الجود ، مرتب الجد الذي هو مرتب الحدود ، وكل حد ينتهي الى حد له محدود وأجل معدود (وما منا الا له مقام معلوم • وانا لنحن الصافون • وانا لنحن المسبحون) • والحمد لله جاعل أول ما أبدعه عرشه المحيط ، وثانيه كرسيه الذي وسع السموات والارض ، فعرشه هو القلم الجاري بأمره ، فخط في اللوح الكريم سطور المشيئة ، وأحرف الارادة ، وقول الحق ، ووعد الصدق ، وكلمات التمام ، والاسماء العظام » •

وحول خلـق الصورة الانسانية باعتبارهـا خليقـة الله في أرضه يقولون (٢) : « اعلم أيها الأخ أيدك الله وايانا بروح منه أن الباري عز اسمه لما خلق هذا العالم على هذه الهيئـة الشريفة والبنية العجيبة ، وجعل صورة الانسان خليفته في أرضه لتدبير خلقه في العـالم السفلي ليصير عند نقلته زينة للعالم العلوي ، وجعل نفسه علامة بالقوة فعالة بالطبع ، ولم يخله من الفوائد العقلية والتأييدات الالهية ، ليتوصل بذلك الى معرفة جميع ما في هذا العالم • وكان من الفضل الذي جاد به عليه والاحسان الذي أسداه اليه ما أفاضه على النفس أولا من الفكر في الاقرار بالمبدع الحق الاول ، ومعرفة العقل الذي

---

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق الدكتور مصطفى غالـب منشورات صادر ص ٢٥ •

(٢) المصدر نفسه صفحة (٢٥ ــ ٢٦) •

هو أصل لها وأب ، وأنه ليس هو المستحق للعبادة المحضة وأن له خالقا ومبدعا ، وكان هذا من العقل اقرارا بخالقه ومبدعه ، وتعريفا لمن هو دونه أنه لا يعرف الا هو ، ان ليس هو الا هو ، فعند ذلك شهد الله أنه لا اله الا هو » ·

ويذهب جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء الى أن الله تعالى تام الوجود ، كامل الفضائل ، عالما بالكائنات قبل كونها ، قادرا على ايجادها متى شاء ، وهو أول الموجودات ، كما أن الواحد هو قبل كل الأعداد · وكما أن الواحد هو نشوء الاعداد، كذلك الباري موجد الموجودات (١) ·

وفي رأي اخوان الصفاء أن الباري هو المعشوق الأول ، والفلك انما يدور شوقا اليه ، ومحبة للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات ، وأكمل الغايات ، وأفضل النهايات · وفي نظرهم أن أجل المعارف ، وأشرف العلوم هي معرفة الله وصفاته اللائقة به · وأن العلماء قد تكلموا في ماهية ذاته ، وأكثروا القيل والقال في حقيقته وصفاته ، وتاه أكثرهم في العجاج عن المنهاج والعلم ، والعلة في ذلك هو من أجل أن هذا المطلوب من أبعد المرامي اشارة ، وهو أقرب المذاهب وجدانا (٢) ·

ويعتقد جماعة اخوان الصفاء أن الواحد الموصوف بالجلالة والعظمة المشار اليه بالوجود ، وأنه مبدأ كل موجود يقبل فيض الجود ، واليه ينتهي الحدود فهو العقل الاول ، ومبدعه

(١) رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ج ٣ ص ١٩٦ ·
(٢) رسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص ٣٨ ·

يجل عن صفة الواصفين ونعت الناعتين وانما يقال هو لا اله الا هو ايمانا وتسليما • فهذا القول اثبات التوحيد • ولذلك صار الاصل المعتمد عليه في كل شريعة ودين • وذلك أن العقل نفى عن ذاته الألوهية وأثبتها لمبدعه • فقال : لا اله الا هو فوحد مبدعه ، فهو عقل بمعنى اثبات الوحدة المحضة وذلك لاتصال التأييد به متواترا لا يفتر ولا ينقطع بل متصلا دائما أبدا • وحتى لا يفوت من فاته وجدانه سبحانه وتعالى من أجل خفاء ذاته ودقة صفاته وكتمانها ، ولكن من شدة ظهوره وجلاله ونوره ، وانما ذهب على من ذهب معرفة ذاته وحقيقة صفاته • من أجل أنهم طلبوه كطلبهم سائر الاشياء الجزئية المحسوسة ، وبحثوا عنه كبحثهم عن سائر الموجودات الكليات المبدعات المخترعات المصنوعات الكائنات ، من الجواهر والاعراض والصفات الموصوفات ، المحتوية عليها الاماكن والازمان والاكوان والاشخاص والانواع والاجناس (١) •

وذلك أن كل واحد من هذه الموجودات يطلب فيه ويبحث عنه بتسعة مباحث هي : هل هو ؟ وما هو ؟ وكم ؟ وكيف هو وأي هو ؟ وأين هو ؟ ومتى هو ؟ ولم هو؟ ومن هو ؟• ثم اعلم أن مبدع الهويات ، وممهي الماهيات ، وموجد الكميات ، ومكيف الكيفيات، ومميز الأينيات ، ومرتب الاينيات ، وعلة اللميات لا يقال له : ما هو ؟ ولا يسأل عنه كيف هو ؟ وكم هو ؟ وأي هو ؟ ومتى هو ؟ ولم هو ؟ وانما يجوز ويسوغ فيه وعنه • من هذه المباحث والسؤالات ، اثنان حسب وهما : هل هو ؟ ومن هو ؟ كما يقال : هو الذي فعل كيت وكيت ، وهو الذي وضع كيت وكيت ومن

---

(١) رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء — ج ٣ ص ٥١٣ .

أجل هذا ، أجاب موسى عليه السلام فرعون ، اذ سأله : ما رب العالمين ؟ فلم يجبه موسى عن جواب (ما) بل أجاب عن جواب (من) الذي يليق به وبربوبيته،فقال : « رب السموات والارض وما بينهما » • فلم يرضي فرعون الجواب ، فقال لمن حوله من الناس المتكلمين : ألا تستمعون ؟ اسأله ما هو ؟ ويجيبني من هو ؟• وكذا سأل مشركو قريش ومجادلوهم النبي ، عليه السلام، فقالوا : نعبد أصنامنا وآلهتنا ، ونحن نراها ونشاهدها ونعرفها، فأخبرنا عن الهك الذي تعبده ما هو ؟ فأنزل الله تعالى قوله : « قل هو الله أحد (١) » • فقالوا لا يفهم ولا يعرف أيريدون ماهية ذاته ، أجوهر هو أم عرض ؟ أنور أم ظلمة ؟ أجسم هو أم روح ؟ أداخل هو أم خارج ، أقائم هو أم قاعد ؟ أفارغ هو أم مشغول ؟ وما شاكل هذه المباحث والمطالب التي لا تليق بربوبيته ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا •

هذه الأمور العقلانية الماورائية جعلت اخوان الصفا وخلان الوفاء يتعرضون للخلاف حول الذات والصفات فيقولون : « ثم اعلم أن مسألة الخلاف للذات والصفات هي أيضا من احدى المسائل الخلافية بين العلماء في الآراء والمذاهب ، وذلك أن كثرة النساء والصبيان والجهال ، ومن لا يعلم شيئا من العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية الالهية ، لأنهم اذا اعتقدوا فيه هذا الرأي تيقنوا عند ذلك وجوده ، وتحققوا وعلموا وصاياه التي جاءت بها الانبياء عليهم السلام ، من الأوامر والنواهي ، وعلموا علمها وعملوا بها خوفا ورجاء من الوعد والوعيد ، وتجنبوا

---

(١) سورة الاخلاص اية ١ •

الزور والشرور ، وعملوا الخير والمعروف ، وكان في ذلك صلاح لهم ولمن يعاملهم ويعاشرهم من الخاص والعالم ، وليس يضر الله شيئا مما اعتقدوه .

ومن الناس طائفة أخرى فوق هؤلاء في العلوم والمعارف ترى بأن هذا الرأي باطل ، ولا ينبغي أن يعتقدوا في الله أنه شخص يحويه مكان ، بل هو صورة روحانية سارية في جميع الموجودات ، حيث ما كان لا يحويه مكان ولا زمان ما ولا يناله حس ولا تغيير ولا حدثان ، وهو لا يخفى عليه من أمر خلقه ذرة في الارضين والسموات ، يعلمها ويراها ويشاهدها في حال وجودها ، وكان يعلمها قبل كونها وبعد فنائها . ومن الناس طائفة أخرى فوق هؤلاء في العلوم والظنون والتخيلات العارضـــة للافهام ، اذا تفكرت النفوس في ماهية الله ، وكيفية صفاته اللائقة ، فـــلا تهتدي الظنون ولا تقر الافهام عن الجولان ، ولا تسكن النفوس اليه ، ولا تطمئن القلوب له ، حتى يعتقد الانسان رأيا مـــن الآراء ، وتسكن نفسه اليه ويطمئن قلبه به . فمن الناس من يرى ويعتقد أن الله تعالى شخص من الاشخاص الفاضلة ، ذو صفات كثيرة ممدوحة وأفعال كثيرة متغايرة ، لا يشبه أحدا من خلقه ، ولا يماثله سواه من ربوبيته ، وهو منفرد من جميع خلقه في مكان دون مكان . وهذا رأي الجمهور من العامة وكثير من الخواص . ومنهم من يرى ويعتقد أنه في السماء فوق رؤوس الخلائق جميعا . ومنهم من يرى أنه فوق العرش في السموات ، وهو مطلع على أهل السموات والارض ، وينظر اليهم ، ويسمع كلامهم ، ويعلم ما في ضمائرهم ، لا يخفى عليه خافيـــة مـــن

أمرهم (١) .

واعلم أن هذا الرأي والاعتقاد جيد للعامة من المعارف والعقل وتعتقد أنه ليس بذي صورة ، لأن الصورة لا تقوم الا في الهيولى، بل ترى أنه نور بسيط من الانوار الروحانية لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار . ومن الناس ممن فوق هؤلاء في العلوم والمعارف والنظر والمشاهد يرى ويعتقد أنه ليس بشخص ولا صورة بل هوية وحدانية ، ذو قوة واحدة وأفعال كثيرة وصنائع عجيبة ، لا يعلم أحد من خلقه ما هو ، وأين هو ، وكيف هو ، وهو الفائض منه وجود الموجودات ، وهو المظهر صور الكائنات في الهيولى ، المبدع جميع الكيفيات بلا زمان ولا مكان ، بل قال : كن فكان ، وهو موجود في كل شيء من غير المخالطة ، ومع كل شيء من غير الممازجة ، كوجود الواحد في كل عدد (٢) .

ويحظر اخوان الصفا في نهاية المطاف على الناس أن يتكلموا في ذات الله سبحانه وتعالى ، ولا في صفاته بالحذر والتخمين ، بل يجب أن لا يجادلوا فيه الا بعد تصفية النفس ، حتى لا يؤدي ذلك الى الشكوك ، والحيرة والضلال ، معتمدين في هذا الرأي على قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ثم يصرون على أن الباري لا يوصف بصفات الروحانيين من حيث هم محدثون فاعلون ومنفعلون ، ولا بصفة الجسمانيين المدركين بالحواس ، وانما صفته من حيث أفهامنا أنه قديم أزلي ، معلل العلل ، فاعل غير منفعل ، موجد

---

(١) رسائل اخوان الصفاء جـ ٣ ص ٥١٤ .

(٢) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٣ ص ٥١٦ .

مبدع مجوهر يبدي ما يشاء ويفعل ما يريد ، كل يوم في شأن لا يشغله شأن عن شأن ·

من هذه الأسس العرفانية التوحيدية صاغ اخوان الصفا وخلان الوفاء فلسفتهم الالهية ، ودعوا الناس الى توحيد الله تعالى وتنزيهه وتجريده ، من خلال منطلقاتهم العلمية المنبثقة من صميم الكتب السماوية المنزلة ، فكانت تعاليمهم المدماك الذي شيد عليه مبدأ التأويل الباطني،والتصوف في الاسلام (١)·

ومن الواضح أن الصور التوحيدية التي رسمها جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء تنفي كل الفريات والاتهامات والأساطير التي نسجت وصنفت حول مسلكهم التوحيدي ، فهم كما نلاحظ ونلمس لا يختلفون عمن حلقوا خالدين في آفاق العرفان الماورائي وجواهره السرمدية · باعتبارهم أول من حمل لواء فلسفة التوحيد في الاسلام وخاضوا على ضوئه غمار أكبر صراع عقلاني عرفه الاسلام في تاريخه القديم والحديث · ولا غرو فقد أثبتوا مبدع الهويات الذي تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ، فلا يشبههم بوجه من الوجوه ، ولا يشبهونه بشيء من الاشياء ، لأنه مُبدع مخترع خالق مكون قادر عليهم حي موجود مبدع قديم ·

الفيض الالهي والابداع عند اخوان الصفا :

الفيض عند جماعة اخوان الصفا يختلف عن الابداع الذي يقول به بعض الفلاسفة فهم يرون أن كل موجود تام فانه

---

(١) رسائل اخوان الصفا : جـ ٤ ص ١٠٩ و ٢٠٩ .

يفيض منه على ما دونه فيض ما ، وأن ذلك الفيض هو من جوهره ، يعني صورته المقومة التي هي ذاته . أما الابداع فهو يعني أن الأمور أبدعت وأخرجت من العدم الى الوجود ، وخاصة الأمور الروحانية الالهية التي هي العقول . ولنستمع اليهم وهم يتحدثون عن الفيض والابداع فيقولون (١) : « ثم اعلم أنه ما دام الفيض من الفائض يكون متواترا متواصلا ، دام ذلك المفاض عليه ، ومتى لم يتواتر متصلا عدم وبطل وجوده ، لأنه يضمحل الاول فالأول . والمثال في ذلك الضوء في الهواء ، اذا تواتر البرق واتصل ، بقي الهواء مضيئا مثل النهار ، لأن الشمس تفيض الفيض منها على الهواء متواترا متصلا ، فاذا حجز بينهما حاجز عدم ذلك الضوء من الهواء ، لأنه يضمحل ساعة ساعة ، ولا يتواتر الفيض عليه . وهكذا الحياة من النفس على الاجسام ما دامت متصلة متواترة ، تدوم الحياة ، فاذا فارقت النفس الجسد بطلت حياة الجسد من ساعته واضمحلت . وهكذا حكم وجود العالم وبقائه من الباري تعالى ، فما دام الفيض والجود والعطاء متواترا متصلا ، دام وجود العالم من الله تعالى » .

ويأتي دور كيفية حدوث العالم وابداعه من لا شيء فيرون أن كل لبيب عاقل اذا فكر في كيفية حدوث العالم وابداع الباري له ، وخلقه أطباق السموات والارض ، وتركيبه أكبر الافلاك ، وتدويره أجرام الكواكب البسيطة والاركان الاربعة ، وتكوينه المولدات الثلاثة منها فلا بد من أن يعتقد فيها أحد الآراء الثلاثة:

---

(١) رسائل اخوان الصفا : ج ٣ ص ٣٥٠ .

أما أن يظن ويتوهم بأنها أبدعت دفعة واحدة ، وأخرجها الباري تعالى من العدم الى الوجود على ما هي عليه الآن ، أو يظن ويتوهم بأنها أبدعت على تدريج ، فأخرجت على ترتيب أولا فأولا الى آخرها على ممر الدهور والأزمان ، أو يقول بعضها دفعة ، وبعضها على التدريج اذ ليس في القسمة العقلية غير هذه الثلاثة • فأما من يظن ويقول أنها أبدعت دفعة واحدة بلا زمان، فلا يجد كما يقول عليه دليلا من المشاهد فيتشكك فيما يقول (١) •

وأما من يقول أنها أبدعت وأخرجت من العدم الى الوجود على تدريج ونظام وترتيب فهو يجد على ما يقول شواهد كثيرة من الموجودات باستقراء واحد •

وأما من يقول أن بعضها أبدع وأحدث دفعة واحدة ،وبعضها على التدريج ، فهو يحتاج الى أن يبينها ويشرحها ويفصلها •

وهنا ينطلق اخوان الصفا وخلان الوفاء ليفصلوا ويشرحوا فيقولون : « أن الأمور الطبيعية أحدثت وأبدعت على تدريج ممر الدهور والازمان ، وذلك أن الهيولى الكلي ، أعني الجسم المطلق ، قد أتى عليه دهر طويل الى أن تمخض وتميز اللطيف منه من الكثيف ، والى أن قبل الاشكال الفلكية الكروية الشفافة وتركب بعضها في جوف بعض ، والى أن استدارت أجرام الكواكب النيرة ، وركزت مراكزها ، والى أن تميزت الاركان الاربعة ، وترتبت مراتبها وانتظمت نظامها • والدليل على ذلك قوله تعالى : « خلق السماوات والأرض في ستة أيام » وقوله تعالى : « وأن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » •

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج ٣ ص ٣٥١ •

فأما الأمور الالهية الروحانية فحدوثها دفعة واحدة مرتبة منتظمة بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان ، بل بقولـه : « كن فيكون » ·

والأمور الروحانية الالهية هي العقلُ الفعال ، والنفس الكلية ، والهيولى الأولى ، والصورة المجردة · والعقل هو نور الباري تعالى وفيضه الذي فاض أولا ، والنفس هي نور العقل وفيضه الذي أفاض الباري منه ، والهيولى الأولى هي ظل النفس وفيئها ، والصور المجردة هي النقوش والاصباغ والاشكال التي عمتها النفس في الهيولى باذن الله تعالى وتأييده لها بالعقل · وهذه الأمور كلها بلا زمان ولا مكان ، بل بقوله : « كن فيكون »· والمثال حدوث البرق ، واشراق نور الشمس في الهواء ، واضاءة الأبصار ، ورؤية الاشياء دفعة واحدة بلا زمان · وحتى نتوصل الى معرفة الطرف الأعلى والطرف الادنى والبرهان عليهما يقولون (١) : « واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، أن النفس لما كانت عن الحد الاول بالأمر السابق اليه من قوة الكلمة الابداعية ، كان منه الأمر الانفعالي بالكلمة المبدعة ، وظهر القول وترتب وجهه وأشرق ، ليكون منه الموجودات ، فارتبط الاول بالأول ارتباطا ذاتيا ، واشتم الأمر بالقوة المحركة ، الصادرة عن السكون ، البعيدة منه أوهام المخلوقات كلها ، نور الله ، المتحد بالتنزيه ، فأسرعت الأنوار باشراقها ، وبادرت الى قبول الامر من أعلاها ، وتسابقت ، فتكونت من

---

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص (٢٤٨) منشورات دار صادر بيروت .

حركتها مواضعها اللائقة بكل واحد منها ، ثم نطقت كلها بالسنة التوحيد ، والتجريد ، والتنزيه لمبدعها ، واستقرت لطائفها في كثائفها اللائقة بها ، الكائنة عنها ومنها ، فصارت الكثائف أماكن وأجسادا ، واللطائف متمكنات وأرواحا ناطقة بتوحيد خالقها ، واتصل بها الجود والافاضة ، فأفيض على كل واحد منها بحسب قوته وطاقته ، وصارت كلها ذوات أماكن ومتمكنات وأرواح وأجسام ، وتنزه مبدعها عن صفات ما هي موصوفة به ، وناداها ربها فأجابت بأجمعها : « أن لا اله الا أنت » كما قال سبحانه وتعالى حكاية عن السموات والارض لما قال لهما : « ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » • فكانت الاشخاص السماوية ، وسكان الافلاك العالية أسبق بالاجابة ، وأقرب الى الطاعة ولحقت بها الاشخاص الارضية •

ولما ترتب الوجه الثاني ، مما يلي مركز الارض ، ترتب ما دونه ، وصار هو ربا له ، يربيه ، ويسوسه سياسة لطيفة ، فهو دائب في كماله حريص على ما يعود عليه بجماله ، فهو دائب يسري في بروجه ، ويمر في منازله ، ويقتبس من أنوار من فوقه، حتى يمتلي بحسب طاقته ويشرق ويستدير ، ويحاكي ما فوقه الممد له ، ثم ينحصر عن قبول ما ليس في وسعه ، ويؤدي ما فيه ، وتسري روحانياته ، وما يقبله من روحانيات من فوقه ، وتنحط كلها مع ملائكة الله ، وجنود لا يعلمها الا هو ، فتسري الأركان والأمهات فتكون منها غرائب المخلوقات ، وعجائب المصنوعات ، مما هو معاين في الموجودات (١) •

---

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص ٢٤٩ •

ولم تغفل جماعة اخوان الصفا ترتيب عالم الابداع فاعتبروا العقل هو أول موجود أوجده الباري وأبدعه من غير واسطة ، وهو جوهر بسيط نوراني فيه صورة كل شيء ، وهو باق تام . ثم أوجد النفس بواسطة العقل وهي جوهرة بسيطة روحانية حية علامة فعالة ، وهي صورة من صور العقل الفعال ، وهي باقية تامة غير كاملة . ثم أوجد الهيولى الأولى جوهر روحاني فاض من النفس وهو باق غير تام ولا كامل : « اعلـم أن علة وجود العقل هو وجود الباري ، عز وجل . وفيضه الذي فاض منه . وعلة تمامية العقل هي قبول ذلك الفيض والفضائل على النفس بما استفاده من الباري عز وجل . فبقاء العقل اذا علة لوجود النفس ، وتمامية العقل علة لبقاء النفس ، وكماله علة لتمامية النفس ، وبقاء النفس علة لوجود الهيولى ، وتمامية النفس علة لبقاء الهيولى .

فمتى كملت النفس تمت الهيولى . وهذا هو الغرض الاقصى من رباط النفس بالهيولى ، ومن أجل هذا دوران الفلك وتكوين الكائنات لتكمل النفس باظهار فضائلها في الهيولى ، وتتم الهيولى بقبول ذلك . ولو لم يكن هذا هكذا لكان دوران الفلك عبثا . واعلم يا أخي أن العقل انما قبل فيض الباري تعالى وفضائله التي هي البقاء والتمام والكمال دفعة واحدة بلا زمان ولا حركة ولا نصب لقربه من الباري ، عز وجل ، وشدة روحانيته . فأما النفس فانه لما كان وجودها من الباري ، جل ثناؤه ، بتوسط العقل ، صارت رتبتها دون العقل ، وصارت ناقصة في قبـول الفضائل ، ولأنها أيضا تارة تتوجه نحو العقل لتستمد منه الخير والفضائل ، وتارة تقبـل على الهيولى لتمدهـا بذلك الخير

والفضائل . فاذا هي توجهت نحو العقل لتستمد منه الخير ، اشتغلت عن افادتها الهيولى ذلك الخير . واذا هي أقبلت على الهيولى لتمدها بذلك الفيض ، اشتغلت عن العقل وقبول فضائله (١) .

ولما كانت الهيولى ناقصة الرتبة عن تمام فضائل النفس ، وغير راغبة في فيضها، احتاجت النفس أن تقبل عليها اقبالا شديدا ، وتعنى باصلاحها عناية تامة ، فتتعب ويلحقها العناء والشقاء في ذلك ... وأما العقل فليس يناله في تأييده النفس وفيضه عليها فضائله تعب ولا نصب ، لأن النفس جوهرة روحانية سهلة القبول ، تطلب فضائل العقل ، وترغب في خيراته ، وهي حية بالذات ، علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، قادرة صانعة بالعرض . وأما الهيولى ، فلبعدها عن الباري ، تعالى ذكره ، صارت ناقصة المرتبة ، عادمة الفضائل ، غير طالبة لفيض النفس ولا راغبة في فضائلها ، ولا علامة ولا مفيدة ولا حية ، بل قابلة حسب ، فمن أجل هذا يلحق النفس التعب والعناء والجهد والشقاء في تدبيرها الهيولى وتتميمها لها . ولا راحة للنفس الا اذا توجت نحو العقل وتعلقت به واتحدت معه ... » .

هذه خلاصة ترتيب الابداع والفيض والاختراع عند جماعة اخوان الصفا يقابله عوالم ثلاث هم : عالم الأجرام ، وعالم الأجسام ، وعالم الدين ، وكل عالم من هذه العوالم ممثول للاثنين الآخرين .

---

(١) رسائل اخوان الصفا : ج ٣ ص ١٨٦ .

هبوط النفس عند اخوان الصفا :

لم يهمل الانسان منذ وجوده على هذا الكوكب البحث والاستقصاء حول هبوط النفس من العالم الروحاني العلوي وتعلقها بالأجسام في العالم الارضي ، أي كيفية بدء الخليقة ، لذلك نلاحظ أن لجماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء آراء ونظريات تنسجم مع ما ورد في الكتب السماوية من جهة ،وتوافق الآراء الفلسفية التي تتحدث عن هبوط النفس نتيجة خطيئة ارتكبتها في العالم الروحاني من جهة ثانية • لذلك رأينا أن نستعرض الموضوع من كلا الجانبين نظرا للفائدة المتوخاة •

يقول اخوان الصفا (١) : « اعلم يا أخي ، أيدك الله وايانا بروح منه ، بأن الله جل ثناؤه ، لما أراد أن يجعل في الارض خليفة له من البشر ليكون العالم السفلي الذي هو دون فلك القمر عامرا بكون الناس فيه ، مملوًا من المصنوعات العجيبة على أيديهم،محفوظا على النظام والترتيب بالسياسات الناموسية والملكوتية والفلسفية والعامية والخاصية جميعا ، ليكون العالم باقيا على أتم حالاته وأكمل غاياته ، كما ذكر في السفر الرابع من صحف هرمس وهو ادريس النبي ، عليه السلام ، وذكرناه في رسالة الجامعة ، وأشرنا اليه في رسائلنا ، وكما سنبين في هذه الرسالة ، فبدأ أولا ربنا تعالى فبنى بخليفته هيكلا من التراب عجيب البنية ، طريف الخلقة ، مختلف الاعضاء ، كثير القوى . ثم ركبها وصورها في أحسن صورة من سائر الحيوانات ، ليكون

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ١ ص ٢٩٧ .

بها مفضلا عليها ، مالكا لها ، متصرفا فيها كيف يشاء ، ثم نفخ فيه من روحه ، فقرن ذلك الجسد ي بنفس روحانية من أفضل النفوس الحيوانية وأشرفها ، ليكون بها متحركا حساسا دراكا عالما كاملا فاعلا ما يشاء ، ثم أيد نفسه بقوى روحانية سائر الكواكب في الفلك ، ليكون متهيأ له بها ، وممكنا له قبول جميع سائر الاخلاق ، وتعلم جميع العلوم والآداب والرياضيات والمعارف والسياسات ، كما مكنه وهيأ له بأعضاء بدنه المختلفة الاشكال والهيئات وتعاطي جميع الصنائع البشرية، والافعال الانسانية ، والاعمال الملكية . وذلك أنه قد جمع في بنية هيكله جميع أخلاط الاركان الاربعة ، وكل المزاجات التسعة في غاية الاعتدال ، ليكون بها متهيأ وقابلا لجميع أخلاق الحيوانات ، وخواص طباعها ، كل ذلك كيما يسهل عليه ويتهيأ له اظهار جميع الافعال ، والصنائع العجيبة ، والاعمال المتقنة المختلفة ، والسياسات المحكمة ، اذ كان اظهارها كلها بعضو واحد ، وأداة واحدة ، وخلق واحد ، ومزاج واحد يتعذر على الانسان ، والغرض من هذه كلها هو أن يتمكن للانسان ويتهيأ له التشبه بالهه وباريه الذي هو خليفته في أرضه ، وعامر عالمه ، ومالك ما فيه ، وسائس حيوانها ، ومربي نباتها ، ومستخرج معادنها ، ومتحكم ومتسلط على ما فيها ، ليدبرها تدبيرات سياسية ، ويسوسها سياسة ربوبية ، كما رسم له الوصايا الناموسية والرياضيات الفلسفية ، كل ذلك كيما تصير نفسه بهذه العناية والسياسة والتدبير ملكا من الملائكة المقربين ، فينال بذلك الخلود في النعيم أبد الآبدين ودهر الداهرين .
ويعتقد اخوان الصفا أن الله سبحانه وتعالى حين ابتدع واخترع

آدم وكون جسده ، قال : اني خلقت آدم وركبت بدنه من أربعة أشياء ، ثم جعلتها وراثة في ولده وذريته تنشأ في أجسادهم ، وينمون عليها الى يوم القيامة : ركبت جسده من رطب ويابس، وحار وبارد ، وذلك أني خلقته من تراب وماء ، ثم نفخت فيه نفسا وروحا ، فيبوسة جسده من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من النفس ، وبرودته من الروح . ثم جعلت في الجسد بعد هذا أربعة أنواع أخر ، هن ملاك أمور الجسد ، لا يقوم الجسد الا بهن ، ولا تقوم واحدة منهن الا بالأخرى ، فمنهن المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم ، والبلغم ، ثم أسكنت بعضها في بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء ، والحرارة في المرة الصفراء ، والرطوبة في الدم ، والبرودة في البلغم . فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الاربعة الاخلاط التي جعلتها ملاكه وقوامه ، وكانت كل واحدة منهن ربما لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت نيته ، وان زادت واحدة منهن على أخواتها وقهرتهن ومالت بهن ، دخل السقم على الجسد من ناحيتها ، بقدر ما زادت ، واذا كانت ناقصة ضعفت طاقتها عن مقاومتهن فغلبنها ودخل السقم على الجسد من نواحيهن بقدر قلتها عنهن وضعف طاقتها عن مقاومتهن (١) » .

ويشيرون الى أن الله سبحانه وتعالى عندما تبين له بأن جسد آدم سيكون معرضا للأمراض والأسقام علمه الطب وكيفية العلاج حتى يعتدل أمر جسده ، ويستقيم على فطرته ، ثم نفخ

---

(١) رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٣٠١ .

فيه من روحه نفسا وروحا قرنها بجسده ، فبالنفس يسمع ابن آدم ويبصر ويشم ويذوق ويلمس ويحس ويأكل ويشرب وينام ويقعد ويضحك ويبكي ويفرح ويحزن ، وبالروح يعقل ويدري ويتعلم ويستحي ويحلم ويحذر ويتقدم ويمنع ويتكرم ويقف ويهجم ، فمن النفس تكون حدته وخفته وشهوته ولهوه وضحكه وسفهه وخداعه ومكره وعنفه وخرقه ، ومن الروح يكون حلمه ووقاره وعفافه وحياؤه وبهاؤه وفهمه وتكرمه وحذقه وصدقه ورفقه وصبره ، فاذا خاف ذو اللب أن يغلب عليه خلق من أخلاق النفس ، قابله بضده من أخلاق الروح ، وألزمه اياه فيعد له به ويقومه ...

وحول قصة آدم وحواء والشجرة المنهي عنها والخطيئة التي من أجلها أهبط آدم من الجنة يقولون (١) : « اعلم أيها الأخ الفاضل الخير الدين العادل ، أعانك على طاعته وجنبك معصيته وألهمك التأييد بروح القدس ، ويهديك الى جنته ، ويبعدك عن جهنم دار البوار ، ومحل الاشرار ، انا لما شرطنا في كتبنا المؤلفة ورسائلنا المصنفة في فنون العلم وغرائب الآداب ، وطرائف الحكم ، وجعلناها بساتين العقول ، ورياضا تتنزه فيها النفوس ، وتتنسم بها الأرواح ، ان رسالتنا الجامعة هي الغرض الاقصى ، وانا نبين فيها البراهين الشافية لجميع ما شرحنا بعضه في رسائلنا بطريق الاقناع ، وكان هذا الفصل الذي نذكره من العالم غامضا دقيقا ظاهره علم جليل ، وباطنه سر نبيل مستور خفي لا يصل اليه الا أهل البصائر المرتاضون بالعلوم العقلية

---

(١) الرسالة الجامعة : تحقيق مصطفى غالب ص ٦٥ .

المؤيدة بالتأييدات الربانية مما ألقته اليهم الملائكة وما أيدوا به من روح القدس وما جاء به في الكتب المنزلة ، فاذا أنت أيها الأخ البار الرحيم وقفت على هذا العلم العظيم والبناء الكريم فكن عليه قويا أمينا وكن به ضنينا ، ولا تكن من المبذرين الذين هم اخوان الشياطين ، ومع هذا فانه لا يحل لنا ولا يسعنا في شرط حكمتنا أن نجعله بغير حجاب يحجبه ، ولا باب يغلق عليه فيستره، ولكنا فتحنا لك فرد بابه وسهلنا عليك كشف حجابه لتطلع عليه وتقف ان وفقك الله وهداك .. » .

وبعد هذه المقدمة العميقة السهلة التي بينوا فيها أهمية هذه العلوم الماورائية وضرورة المحافظة على حجبها عن غير أهلها يبدأون بذكر آدم وحواء والشجرة المنهي عنها وحيلة ابليس عليهما ووصوله بالمكر اليهما . فقالوا (١) : « قال الحكيم أن الله سبحانه لما خلق آدم وأسكنه الجنة التي هي دار كرامته ومحل نعمته في جواره الأمين ، وقراره المكين ، ومقر عباده المصطفين ، من الملائكة المقربين ، وعهد اليه أن لا يقرب شجرة عرفه بها ونهاه عن أكلها وأعلمه أنها مذخورة الى وقت معلوم وان بها يكون العود الى البداية وأنها لا تبدو ثمرتها ، ولا يحل أكلها الا عند النهاية ، وأنها بغية دور الكشف الاول فتكون مدة الستر الذي قدر الله سبحانه أن آدم أول المستخلفين فيه ، وأن ثمر تلك الشجرة يكون مستورا في اكمامها ، مخبوءا تحت ورقها ، مكمنا في أغصانها ، مستورا مخفيا لا يكاد مخلوق في دور الستر أن يقف عليها ولا يصل اليها ، ولا يتناول شيئا

---

(١) الرسالة الجامعة ص (٦٦ — ٦٧) .

منه الا في الوقت الذي قدره والزمان الذي يسره ، اذا بدا دور السعادة بظهور النفس الزكية في العرض الثاني اذا تجلت النفس الكلية لفصل القضاء فعند ذلك تبدو شجرة سدرة المنتهي وبها تكون النشأة الأخرى وعهد الله الى آدم وأطلعه على ذلك وأعلمه أنه لا يكون في وقته ولا يتهيأ له في زمانه ، وأباحه ما سوى ذلك من أكل الشجر والتناول من أصناف الثمر ما يكون غذاء له ولمن هو معلم له ، فلما زين له الشيطان سوء عمله ، وحمله على ارتكاب ما نهى عنه ، وأخذ ما لا يحل له ، وتناول ما حظر عليه ، ولم يمكنه ذلك منه الا بالحيلة عليه ، والملاطفة له ولزوجته ، فكان من حاله أنه جاءه في صورة الناصح الأمين الشفيق ، يطلب منه الفائدة بالسؤال والتذلل ، فقال له : انك قد أتاك الله من العلم والحكمة والمعرفة ما لم يعرفه أحدا قبلك ، وقد فضلك الله على جميع الملائكة الذين أمرهم بالسجود لك ، والخضوع بين يديك ، جعلك معلما لهم تعلمهم أسماء ما يكون ، ولم يبق عليك الا معرفة شيء واحد لو عرفته لكنت من الملائكة العاليين الذين لم يؤمروا بالسجود لك ، ولم يدخلوا في طاعتك ، ولهم المقامات العالية ، والدرجات السامية عند الله • فقال له آدم : وما هذا العلم الذي أخفاه الله عني ، ولم يطلعني عليه ، وقد علم أني محتاج اليه وغير مستغن عنه ؟•

فقال له عدوه ، يريه أنه له من الناصحين : هو علم القيامة ، وكون النشأة الآخرة ، والبروز لفصل القضاء ، وكيفية بروز الصور الروحانية المعراة من الاشخاص الهيولانية في دار البقاء ، ولو علمت هذا العلم أنت وزوجتك ، لكنتما ملكين وكنتما من الخالدين ، على أنهما لو كانا من أهل دور الكشف لكانت

خلقتهما روحانية ولم تكن جسمانية ، اذ كان البقاء والخلود على الحال الأفضل بالنفس أشبه من الجسم • فعند ذلك اشتاقت نفس آدم الى ذلك ، وأراد الاطلاع عليه بالاظهار له من حد القوة الى حد الفعل ، ليرى كيف يكون دور الكشف وكيف يكون قبول أهل ذلك الزمان واستجابتهم اليه وكيف تكون منزلة النفس الزكية في ذلك الوقت ، فأبدى شيئا مما نهى عنه الى غير أهله ، وأطلع عليه غير مستحقه ، ووضع منه شيئا في غير موضعه ، فكان بمنزلة الأكل الذي نهى عنه • فلما بدا ذلك منه اضطربت عليه أحواله واستوحشت منه أعماله ، وقبحت أعماله ونفرت منه الوحوش التي كانت قد أنست به وتباعدت منه الطيور التي كانت قد ألفت صورته ونزع عنه لباسه ، وبدت عنه سوأته ، وانكشفت عورته ، وظفر به عدوه ، وأقبل يفرق عنه جموعه ، ويبعد أهل الجنة عنه ويدعوهم الى نفسه ، فعند ذلك ناداهما ربهما : « ألم أنهكما عن تلك الشجرة • قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا » بوضعنا ما نهيتنا عنه في غير موضعه ودفعه الى من لا يستحقه ، قال : « اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو » فأهبط من دار الملائكة التي كان فيها ، وأخرج منها اذ كان أهل الجنة قد سئموا موضعه ، واستوحشوا من شخصه ، لما بدت سوأته وانكشفت عورته ورأوه بعين من جاءهم بما لا يعرفونه ، وبما ينكرونه من المعصية فظفر به عدوه ، وخرج آدم وزوجته من الجنة سائحين في الارض لا يدريان أين يتوجهان من بلاد الله ، وبهما من الندامة ما جاوز وصف الواصفين ، وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وقد زالت الرياسة عنهما وتدبير السياسة النبوية منهما فلما طالت المحنة

بآدم استرجع القول ، وناجى ربه وتوسل اليه بالقائم في ذلك الوقت الذي فيه ظهور الحقائق ، وبأصحاب المقامات العالية في ذلك الزمان الذين هم الكلمات التامات ، والآيات الباهرات ، وانه لم يتعمد ذلك ، وانما اشتاق الى تلك المنزلة الجليلة والدرجة الرفيعة بغير انكار لها ولا استكبار عن الاقرار بفضل صاحبها ، فعند ذلك تاب الله سبحانه عليهما ، ويسر لهما العيشة . وبعث اليهما ملكا من الملائكة فعلمهما الحرث ، والنسل ، والزرع ، والبذر ، والحصاد ، والغرس ، واللباس ، وما يحتاجان اليه في الحياة الدنيا لقوام الاجساد في محل الكون والفساد ، وتلقى آدم التأييد والالهام والوحي ، وأمر باقامة الشريعة والسجود لله ، والعمل بالجسم ، واظهار الصنائع ، وكثر أولاده ، وانتشر نسله ، واتسعت دعوته ، وعمرت داره ، وقر في قراره ، وكان على ذلك مدة ما شاء الله تعالى سبحانه أن يبقى على تلك الحال الى أن استكمل أجله فنقل الى دار كرامته ودار البقاء ، وأراه ما عجل فيه ليراه وهو في محل الاجساد ، فلم يخب سعيه ، ولا أحبط عمله لما تاب وأناب (١) » .

هذه مجمل آراء وأقوال جماعة اخون الصفا وخلان الوفاء في بدء الخليقة ووجود الانسان الاول بحثوه وفق ما تحدثت به الكتب السماوية المنزلة ، وكما أشارت اليه بعض الأساطير التي ترويها الأجيال خلف عن سلف من آلاف السنين ، أما رأيهم في الشق الثاني من الموضوع ، أي (المبدأ) من الناحية الروحية الفلسفية ، فهم يرون أن الابتداء كان نتيجة خطيئة ، أو

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٤٧٩ .

بالأحرى مجرد سهو وقع على بعض العالم الروحاني فأوجب الهبوط والتكثف • فقالوا : « اعلم أن الله تعالى لما خلق جسد آدم ، عليه السلام أبي البشر من التراب ، وصوره في أحسن تقويم ، وأحسن صورته ، وأحكم بنيته ، ثم نفخ فيه من روحه ، صار ذلك الجسد الترابي بتلك الروح الشريفة حيا عالما قادرا • ثم فضله بما علمه من الأسماء على بعض الملائكة لا عليهم كلهم ، وأمرهم بالسجود له من أجل الجسد الترابي • وابليس اللعين لما نظر الى الجسد الترابي ، وعرف ورأى تلك الروح الشريفة الفاضلة العالمة قال : « أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين » اذ النار خير من التراب ، لأن النار جسم مضيء متحرك يطلب العلو ، والتراب جسم مظلم ساكن يطلب السفل • وكل هذا منه قياسا خطأ ، لأن الانسان انما يأكل ويشرب وينام من أجل الجسد ، ويتحرك ويحس ويتكلم ويعلم بالنفس الشريفة التي من أمر الله (١) » •

وفي حديثهم عن مهنة النفوس واخراجها من عالم الأرواح لجناية كانت منها يقولون (٢) : « اعلم أيها الأخ أن النفس الجزئية لما أهبطت من عالمها الروحاني ، وأسقطت من مرتبتها العالية للجناية ، وغرقت في بحر الهيولى وغاصت في قعر أمواج الأجسام وقيل لها : « انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب ، فغرقت في هياكل الأجسام ، وتفرقت بعد وصلتها وتشتت شمل الفتها ، كما ذكر الله ، عز وجل اسمه بقوله : « اهبطوا منها جميعا » الآية الى قوله : « ومنها تخرجون » عرض لها عند ذلك من

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج٣ ص (١٨ — ١٩) •

(٢) المصدر نفسه : ج٤ ص (١٨٤ — ١٨٥) •

الدهشة والأهوال والمصائب ، فمن أجل هذه الشدائد والمصائب صارت النفس لا تذكر شيئا مما كانت فيه من أمر عالمها ومبدأها ومعادها كما قال الله جل ذكره : « واذا ذكروا لا يذكرون » ٠

ويعتقد جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء أنه قد أتى على النفس دهر طويل قبل تعلقها بالبدن ذي الأبعاد ، وكانت هي في عالمها الروحاني ومحلها النوراني ودارها الحيوانية مقبلة على علتها العقل الفعال تقبل منه الفيض والفضائل والخيرات ، وكانت منعمة متلذذة ، مستريحة ، مسرورة فرحانة ٠ فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات ، أخذها شبه المخاض ، فأقبلت تطلب ما تفيض عليه تلك الخيرات والفضائل ٠ وكان الجسم فارغا قبل ذلك من الأشكال والصور والنقوش ، فأقبلت النفس على الهيولى تميز اللطيف من الكثيف ، وتفيض عليه تلك الفضائل والخيرات ٠ فلما رأى الباري تعالى ذلك منها مكنها من الجثث وهيأ لها ، فخلق من ذلك الجسم عالم الأفلاك وأطباق السماوات من لدن فلك المحيط الى منتهى مركز الارض ، وركب الأفلاك بعضها في جوف بعض ، وركز الكواكب مراكزها ، ورتب الاركان مراتبها على أحسن النظام والترتيب بما هي عليه الآن ، لكيما تتمكن النفس من ادارتها وتسيير كواكبها ، ويسهل عليها اظهار أفعالها وفضائلها والخيرات التي قبلتها من العقل الفعال ٠ فهذا الذي كان سبب كون العالم ، أعني عالم الاجسام، بعد ان لم يكن ٠٠٠

اخوان الصفا والنفس :

يعتبر اخوان الصفا وخلان الوفاء ، النفس جوهرة روحانية

سماوية حية بالذات علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، تظل بعد مفارقة الجسد ، أما ملتذة فرحانة ، وأما مغتمة خاسرة • وهذه النفس باعتقادهم جزء من النفس الكلية ، ولكنها غير منفصلة منها ولا هي هي بعينها ، ولنستمع اليهم ماذا يقولون (١) :
« وأما الصفات المختصة بالنفس بمجردها فهي أنها جوهرة روحانية سماوية نورانية حية بذاتها علامة بالقوة ، فعالة بالطبع ، قابلة للتعاليم ، فعالة في الاجسام ومستعملة لها ، ومتممة للأجسام ومفارقة لها ، راجعة الى عنصرها ومعدنها ومبدئها كما كانت أما بربح وغبطة أو ندامة وحزن وخسران ، كما ذكر الله عز وجل بقوله : « كما بدأكم تعودون ، فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة » • وقال عز وجل : « كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين » • وقال تعالى : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » •

ويرى اخوان الصفا أن النفوس من حيث النفسية ، جوهر واحد وانما تختلف النفوس بحسب اختلاف قواها ، واختلاف قواها بحسب اختلاف أفعالها ومعارفها وأحلامها ، كما أن اختلاف الاجسام بحسب اختلاف أشكالها ، واختلاف أشكالها بحسب اختلاف اعراضها : « واعلم بأن نفس العالم نفس واحدة ، كما أن جسمه جسم واحد بجميع أفلاكه وكواكبه وأركانه ومولداته ، ولكن لما كانت لنفس العالم أفعال كلية بقوى كُلية ، وأفعال جنسية بقوى جنسية ، وأفعال نوعية بقوى نوعية ، وأفعال شخصية بقوى شخصية ، وهي حركتها من المشرق

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : ج١ ص ٢٦٠ .

الى المغرب وبالعكس ، ومن الشمال الى الجنوب وبالعكس ، ومن فوق الى أسفل وبالعكس ، سميت هذه القوى بأفعالها نفوسا جنسية ونوعية وشخصية ، فتكثرت النفوس بحسب قواها المختلفة ، وتكثرت قواها بحسب أفعالها المفتنة ، كما تكثر جسم العالم بحسب اختلاف أعراضه ، فأفعال نفس العالم الكلية هي ادارتها وأفعالها الجنسية ما يختص بكل فلك وكل كوكب من الحركات الست العارضة ، وما يختص بالأركان الاربعة التي تحت فلك القمر من الحركات الطبيعية ، وأفعالها النوعية ما يختص بالكائنات المولدات التي هي الحيوان والنبات والمعادن وأفعالها الشخصية التي تظهر من أشخاص الحيوانات وما يجري على أيدي البشر من الصنائع » ٠

وعندما أبدع الباري تعالى النفوس واخترعها وأبرز المستكن والمستهجن من الكائنات ، رتبها ونظمها كمراتب الأعداد المفردات ، نذكر طرفا من مراتبها ومقالاتها الجنسية ، اذ كانت الانواع والاشخاص لا يمكن تعديدها ولا يعلمها الا هو ٠ « واعلم يا أخي بأن مراتب النفوس ثلاثة أنواع ٠٠ فمنها مرتبة الأنفس الانسانية ، ومنها ما هي دونها ، فالتي هي دونها سبع مراتب ، والتي هي فوقها سبع أيضا ، وجملتها خمس عشرة مرتبة ، والمعلوم من هذه المراتب التي ذكرناها عند العلماء ، ويمكن لكل عاقل أن يعرفها ويحس بها ، خمس ، منها اثنتان فوق رتبة الانسانية وهي رتبة الملكية والقدسية ، ورتبة الملكية هي رتبة الحكمية ، ورتبة القدسية هي رتبة النبوة والناموسية ، واثنتان دونها وهي مرتبة النفس النباتية والحيوانية ، ويعلم صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا ، الناظرون في علم النفس من

الحكماء والفلاسفة وكثير من الاطباء . وأما الرتبتان اللتان فوق رتبة الانسانية فهي مرتبة الحكمة وفوقها الناموسية ، وأما مرتبة الانسانية فهي التي ذكرها الله تعالى بقوله : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » . وأما التي فوق هذه مما أشار اليه بقوله : « ولما بلغ أشده واستوى ـ يعني الانسان ـ آتيناه حكما وعلما » . وقال أيضا : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثلـه في الظلمات ليس بخارج منها » . يعني الانسان ، أحيينا نفسه بنور الهداية ، وهذه مرتبة نفوس المؤمنين العارفين والعلماء الراسخين . وأما التي فوقها فمرتبة النفوس النبوية الواصفين النواميس الالهيـة ، واليها أشار بقوله جل ثناؤه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات » وهذه المرتبة تلي مرتبة القدسية الملكية .

فقد تبين ، ربما ذكرنا المراتب الخمس التي يمكن الانسان أن يعلمها ويحس بها . فأما المراتب التي دون النباتية وفوق القدسية فبعيدة معرفتها على المرتاضين بالعلوم الالهية ، فكيف على غيرهم ؟ » .

وبعد أن عددوا مراتب النفوس الخمس،وأشاروا الى الفائدة والحكمة من رباطها بالأجسام ، التفتوا الى ما يخص كل نوع منها من المعاونة والتأييد ، وهي القوى الطبيعية ، والاخلاق المركوزة ، والهياكل الجسمانيـة ، والأدوات الجسدانيـة ، والشعورات الحسية ، والأوهام الفكرية ، والحركات المكانية ، والأفعال الارادية ، والاعمال الاختيارية ، والصنائع الحكيمة ،

والأوضاع الناموسية ، والسياسات الملكوتية (١) ٠

ويعتقد اخوان الصفا أن الجسد كالدار ، وأن النفس كالساكن في الدار ، وقد بنيت وأحكم بناؤها ، وقسمت بيوتها ، وملئت خزائنها ، وسقفت سطوحها ، وفتحت أبوابها ، وعلقت ستورها ، وأعد فيها كل ما يحتاج اليه صاحب المنزل في منزله ٠ فيشبهون الجسد ، بالنسبة للنفس ، كدكان الصانع ، وأن جميع أعضاء الجسد للنفس بمنزلة أداة الصانع في دكانه ، وان النفس بكل عضو من أعضاء الجسد تظهر ضروبا من الافعال وفنونا من الاعمال ، كما أن الصانع بكل أداة يعمل ضروبا من الاعمال وفنونا من الحركات ٠ ولم يقفوا في أمثالهم وتشبيهاتهم عند هذا الحد بل نراهم يشبهون الجسد بالنسبة للنفس بالمدينة التي تغص بآلاف السكان ، معتبرين حالات الجسد تشبه حالات المدينة ، وتصرفات النفس تشبه تصرفات أهل المدينة فيها (٢) ٠

« اعلم أن في هذه النفس الساكنة في هذا الجسد قوى طبيعية وأخلاقا غريزية منبثة في أعضاء هذا الجسد تشبه قبائل أهل تلك المدينة وشعوبها النازلين في المحال بتلك المدينة ، وأن لتلك القوى وتلك الاخلاق أفعالا وحركات منبثة في أوعية هذا الجسد، ومجاري مفاصله تشبه أفعال أهل تلك المدينة في منازلهم ، وحركاتهم في طرقاتها ، وأعمالهم في أسواقها ٠ فأما القوى الطبيعية والاخلاق الغريزية التي تشبه القبائل والشعوب فهي ثلاث أجناس : فمنها قوى النفس النباتية ونزعاتها الشهوانية : فضائلها ورذائلها ، ومسكنها الكبد ، وأفعالها تجري مجرى

---

(١) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٢ ص ٢٨٤ ٠

(٢) رسائل اخوان الصفاء : جـ ٢ ص ٣٨٦ ٠

الأوراد الى سائر أطراف الجسد • ومنها قوى النفس الحيوانية وحركاتها وأخلاقها وحواسها وفضائلها ورذائلها ، ومسكنها القلب ، وأفعالها تجري مجرى العروق الغوارب الى سائر أطراف الجسد • ومنها قوى النفس الناطقة وتمييزاتها ، ومعارفها ، وفضائلها ، ورذائلها ، ومسكنها الدماغ ، وأفعالها تجري مجرى الأعصاب الى سائر أطراف الجسد • ثم اعلم أن هذه النفوس الثلاثة ليست متفرقات متباينات بعضها من بعض ، ولكنها كلها كالفروع من أصل واحد متصلات بذات واحدة كاتصال ثلاثة أغصان من شجرة واحدة ، تتفرع من كل غصن عدة قضبان ، ومن كل قضيب عدة أوراق وثمار ••• فهكذا أمر النفس ، فانها واحدة بالذات وانما تقع عليها هذه الاسماء بحسب ما يظهر منها من الافعال •• » •

العلل والمعلولات عند اخوان الصفا :

يرى اخوان الصفا وخلان الوفاء أن لكل واحد من الموجودات أربع علل : علة فاعلة ، وعلة مصورة ، وعلة متممة ، وعلة هيولانية ، فاذا اعتبرت جميع الموجودات كلها لا بد لها من هذه الأربع العلل : مثال ذلك الكرسي علته الفاعلة النجار ، والهيولانية الخشب ، والصورية التربيع ، والتمامية القعود عليه (١) • وأما الجسم المطلق فعلته الهيولانية هي الجوهر البسيط الموضوع فيه قوة القبول ، التي بها قبل الطول والعرض والعمق ، فصار بها جسما ، وعلته الفاعلة هي الباري جل وعز ،

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٣٧٤ منشورات دار صادر .

وعلته الصورية العقل ، لأن الطول والعرض والعمق انما هي صورة عقلية ، وعلته التمامية هي النفس ، لأن الهيولى من أجلها خلقت ، لكيما تفعل فيه ومنه ما يفعل ويصنع لتتم الهيولى وتكمل النفس · « وهذا يا أخي هو الغرض الاقصى في رباط النفس بالهيولى · وأما الهيولى الأولى التي هي جوهر بسيط ، ولها ثلاث علل : الفاعلة ، وهي الباري جل وعز ، والصورية وهي العقل الأول ، والتمامية وهي النفس ، وأما النفس فلها علتان وهما الباري سبحانه ، والعقل · فالباري علتها الفاعلة المخترعة لها ، والصورية هي العقل الذي يفيض عليها ما تقبله من الباري تعالى · وأما العقل فله علة واحدة ، وهي الباري عز وجل الذي أفاض عليه الوجود والبقاء والتمام والكمال دفعة واحدة ، بلا زمان · وهو العقل الذي أشار اليه بقوله في كتابه على لسان نبيه محمد (صلعم) فقال : « وما أمرنا الا واحدة كلمح البصر » واليه أشار بقوله : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » يعني أن الروح الذي راحت الأشياء كلها اليه منصرفة ، فاليه رواحها ومنه عودتها ، منه مبدؤها ، واليه معادها · وقال : « الا له الخلق والأمر » هي الجواهر الروحانية ، وكلها لله عز وجل ، وبأمره قامت وبارادته كانت (١) » ·

ويعتقد جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء أن معرفة علل الاشياء ، ومعلولاتها ، علما غامضا صعبا ، لا يكاد يصل اليه ، ولا يطلع عليه ، الا المرتاضون بالعلوم الالهية ، والحكمة الربانية ، المأخوذة عن تلامذة الحكماء الالهيين ، وخلفاء

---

(١) الرسالة الجامعة : ص ٣٧٥ .

الأنبياء والمرسلين ، تقليدا وايمانا وتسليما . » وقد ألقينا اليك يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه في هذا الفصل ، معرفة العلل والمعلولات ، على ما حكته العلماء ، وأخبرت به الحكماء ، من أهل الفلسفة الحكمية ، والشريعة الدينية ، المتفقين في جواباتهم في المعاني الحقيقية . فأعظم المطلوبات من الوقوف على العلل والمعلولات ، هو كيفية الوقوف على معرفة علة العالم التي حدث عنها ، وكانت سبب وجوده عنها ، وكيف كان هذا الوجود عن العلة الأولى وظهور الاشياء بعضها من بعض (١) .

واعلم يا أخي بأن كثيرا ممن ينظرون في مبادىء الأمور ، يظنون ويتوهمون بأن صور المعلومات في علم الباري جل ثناؤه لم تزل مثل صور المصنوعات في أنفس الصناع قبل اخراجها لها ، ووصفها في الهيولى المعروفة في صنائعهم ، وأمثل صور المعقولات في أنفس العقلاء ، وتصورهم لها ، وليس الامر كما ظنوا وتوهموا . وأما الحق في القول في هذا المعنى ، فهو قول من قال : انما ذلك ككون العدد في الواحد ، لأن صور المصنوعات حصلت في أنفس الصناع ، بعد النظر منهم في مصنوعات من تقدمهم وسبقهم الى وصفها ، وعلمها . والسابقون لهم ، المخترعون ، فانما أخذوا ذلك بذكاء نفوسهم ، ولطافة أذهانهم من مفعولات الطبيعة ، وبدائع صنعة النفس الكلية ، بالتأمل والتفكير فيها . وهكذا حكم صور المعقولات ، في أنفس العقلاء ، حصلت فيها بعد نظرهم الى المحسوسات ، وتأملهم لها ، فتصورت في عقولهم صور الاكتساب ، بالنظر الى موجودات تقدمت لاكتسابهم اياها ، والباري سبحانه يتنزه عن هذا القياس ،

(١) الرسالة الجامعة : ص ٤٧٩ .

ويتعالى عن هذا المثال ، بل علمه من ذاته ، كما أن العدد من ذات الواحد ، والمثال ينبغي أن يكون مطا[illegible]ا يمثل به في أكثر المعاني وأعمها ، لا أقلها ولا أنقصها ، فمثاله سبحانه الواحد ، والمبروآات كالأعداد • وهذا المثال أكثر مطابقة للحق من غيره من المثالات • واعلم ان كل موجود تام هو علة لما دونه ، وذلك أن كل موجود تام ، فانه يفيض عنه على ما دونه فيضا تاما ، وأن ذلك الفيض من جوهره ، أعني صورته المقدمة التي هي ذاته ، والمثال في ذلك النار وما يفيض منها على ما حولها ، من الحرارة ، والتسخين للأجسام القريبة منها ، قرب الحاجة اليها ، وهكذا أيضا يفيض من الماء للترطيب ، والبلل ، على الأجسام القريبة منه قرب الحاجة اليه ، والمجاورة له ، والرطوبة هي جوهرية الماء ، وهي صورته المقومة لها ، ومثل ما يفيض عن الشمس ، من النور والضياء ، وهو صورتها ، المقومة لذاتها ، وهكذا تفيض من النفس الحياة على الأجسام ، لأن الحيـاة جوهرية لها ، وهي الصورة المقومة لها •

واعلم أنه ما دام الفيض على المفاض عليه ، متواترا متصلا ، فانه باق على ما هو به ، فان قصر عنه بكل وجوده ، كذلك وجود الأشياء ، عن موجدها متواترة ، خارجة من العدم ، الى الوجود بجوده وفضله ، فلو قبض ذلك الجود لبطل الوجود • والمثال في ذلك تواتر اتصال الأنواء بالهواء ، ما دام متصلا به ، متواتر القدوم عليه ، يضيء ويشرق ، واذا انقبض النور والضيـاء عنه ، أظلم كما يمنع ضوء الشمس الغمام الذي يحول بينهـا وبين الهواء ، فيعدم النور ، وتحل الظلمة بغيبة الشمس ، كذلك فيض العقل على النفس ، وفيض النفس على الاجسام ، والمادة

متصلة بالأول ، فالأول من الباري سبحانه · وكما أن النفس اذا فارقت الجسد ، عدم الحياة ، ووقع به الموت ، وبطلت حركته ، كذلك الاشياء كلها ، لو عدمت فيض باريها عليها ، ونظره اليها ، نظرة الارادة الملكوتية المكونة لها ، على ما هي كائنة ، جارية على مراده ، ومشيئته ، وقدرته ، سبحانه لا شريك له لبطل وجودها ، وهوت في هاوية العدم (١) ·

ويعتبر اخوان الصفا العلل والمعلولات التي هي بعرفهم الأصول يتقدم بعضها على بعض ، كتقدم الواحد على الاثنين ، والاثنان متقدم الوجود على الثلاثة ، كتقدم النفس على الهيولى، والثلاثة متقدم الوجود على الاربعة ، كتقدم الهيولى على الطبيعة ، والأربعة متقدم الوجود على الخمسة ، كتقدم الطبيعة على الصورة ، وكون اللطائف البسيطة عن الباري سبحانه دفعة واحدة ، بلا زمان ، ولا مكان ، وشرف بعضها على بعض ، بقرب النسبة اليه والقرب منه · فالباري سبحانه ، علة العقل ، والعقل علة النفس ، والنفس علة الهيولى ، والهيولى علة الصورة المجردة ·

وفي مجال البحث عن العلل والمعلولات نلاحظ أن اخوان الصفا يفردون فصلا خاصا في رسائلهم للسؤال عنها ، وبنفس الوقت يتولون الاجابة بأنفسهم على كل سؤال من الأسئلة التي طرحوها فيقولون : « في ما العلة ؟هي السبب الموجب لكون شيء آخر(٢) ·

---

(١) الرسالة الجامعة : ص (٤٨٠ — ٤٨١) .
(٢) رسائل إخوان الصفا : جـ ٣ ص ٣٥٨ .

ما المعلول ؟ هو الذي لكونه سبب من الاسباب ، كم العلل ؟ أربعة أنواع : فاعلية ، وهيولانية ، وصورية ، وتمامية • كم المعلول ؟ أربعة أنواع وهي : المصنوعات كلها ، فمنها مصنوعات بشرية حيوانية ، ومنها طبيعية وهي : المعادن ، والنبات ، والحيوان ، ومنها نفسانية بسيطة وهي الأفلاك ، والكواكب ، والأركان ، ومنها الروحانية الالهية وهي الهيولى والصورة المجردة والنفس والعقل • ما الصنعة ؟ هي اخراج الصانع ما في نفسه من الصور ونقشها في الهيولى ، وكل صانع حكيم فله في صنعته غرض ، والغرض هو غاية تسبق في علم العالم أو فكر الصانع ، ومن أجله يفعل ما يفعله ، فاذا بلغ اليه قطع الفعل وأمسك عن العمل » •

وبأسلوب علمي عرفاني دقيق يكشف اخوان الصفا عن العلل والمعلولات ، مستخدمين الأمثال ، ومقدمين الأدلة والبراهين التي تثبت نظرياتهم وآرائهم المتعلقة بتنظيم العالم العلوي والعالم السفلي • ولا يغرب عن بالهم أن يطبقوا تفاعلات وحركات العالم العلوي بما فيه من أفلاك وكواكب وأجرام على ما يجري في العالم السفلي من الأفعال والتأثيرات على الانسان والحيوان والنبات • ولنستمع اليهم وهم يتحدثون عن علل الاشياء فيقولون : « وكل هذه الأقاويل قالوها في طلبهم الحكمة والعلة ، وانما لم يقفوا عليها ، لأن نظرهم كان جزئيا ، وبحثهم عن علل الاشياء خصوصيا ، وليس يعلم علل الاشياء الكليات بالنظر الجزئي ، لأن أفعال الباري انما الغرض منها النفع الكلي والصلاح العمومي ، وان كان قد نقص من ذلك ضرر جزئي ومكاره خصوصيه ، وليس يعلم علل الاشياء الكليات أحيانا •

والمثال في ذلك أحكام الشريعة النبوية وحدوده فيها ، وذلك لحكم القصاص في القتل • قال تعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » وان كان موتا وألما للذي يقتص منه ، وكذلك قطع يد السارق منه نفع عمومي وصلاح الكل ، وان كان يناله حزن وألم • وكذلك غروب الشمس وطلوعها ، والأمطار كان النفع منها عموما والصلاح كليا ، وان كان قد يعرض لبعض الناس والحيوان والنبات من ذلك ضرر جزئي •

وهكذا أيضا قد ينال الانبياء والصالحين وأتباعهم شدائد وجهد وآلام في اظهار الدين وافاضة سن الشريعة في أول الأمر •

ولكن لما كان الباري تعالى غرضه في اظهار الدين وسنة الشريعة هو النفع العام وصلاح الكل من الذين يجيئون من بعدهم الى يوم القيامة ، لا يحصى عددهم ونفعهم وصلاحهم ، سهل في جنب ذلك وصغر ما نال النبي من أذية المشركين ، وجهاد الأعداء المخالفين ، وما لاقوه من الحروب في القتال في الغزوات ، وتعب الأسفار ، وقيام الليل وصيام النهار ، وأداء الفرائض ، وما فيها من الجهد على النفوس ، والتعب على الأبدان •

ولما كان نزول الأمر في المنقلب الى الصلاح العمومي والنفع الكلي ، كانت الشدائد والجهد والبلوى في حينه أمرا صغيرا جزئيا • فعلى هذا المثال والقياس ينبغي أن يعتبر من يريد أن يعترض ما العلة ، وما وجه الحكمة في أكل الحيوانات بعضها بعضا ، ليتبين له الحق والصواب ••• » •

الله عند الكرماني :

يعتبر حجة العراقين الداعي أحمد حميد الدين الكرماني من

كبار فلاسفة أهل الحق الذين عالجوا فلسفيا القضايا الماورائية فكتبوا الكثير عنهـا ، وممـا قـاله في هـذا الموضوع (١) : ان من القوانين أنه لا وجود لمعلول الا بما يوجب وجوده من علته التي وجوده بها يتعلق ، واليها في وجوده يستند ، ولولاها لما وجد ، كالحرارة مثلا التي لا وجود لها الا بما يوجب وجودها من علتها التي وجودها بها يتعلق ، واليها في وجودها تستند ، وهي الحركة التي لولاها لما وجدت ، وكالحركة التي لا وجود لهـا الا بموجب وجودها من علتها التي بها يتعلق وجودها واليها في الوجود تشتد وهي المحرك الذي لولاه لما وجدت ، وكالمركبات الجسمانيات من المواليد التي لا وجود لها الا بوجود الاستقصات التي بها يتعلق وجودها واليها تستند في وجودها ولولاها لمـا وجدت ، وكاستقصات التي لولا وجود ما تستند اليه في وجودها من المادة والصورة اللتين لولاهما لما كانت ولا وجدت ، وكالمادة والصورة اللتين لولا وجود ما تستند اليه في وجودهما من الاسباب التي من شأنها أن يوجد عنها من الاجسام العالية السماويـة والصور المتعالية الخارجة لما وجدنا .

ولما كانت الموجودات بعضها في وجوده مستند الى بعض ، وكان لو كان ذلك البعض الذي يستند هذا البعض في وجوده اليه وبه يتعلق وجوده غير ثابت في الوجود ، ولا موجودا ، لكان وجود هذا البعض محالا « فلما ثبت أنه لا وجود لهذا الا بذاك » كان منه العلم بأن الذي تنتهي اليه الموجودات التي به توجد واليه تستند وعنه توجد هو الله الـذي لا اله الا هـو محال

(١) راحة العقل : المشرع الاول ص ١٢٩ تحقيق الدكتور مصطفى غالب.

ليسيته ، باطل لاهوتيه ، اذ لو كان ليسا ، لكانت الموجودات أيضا ليسا • فلما كانت الموجودات موجودة كانت ليسيته باطلة ، ثم لما كان من شأن الأضداد أن لا يكون لها وجود الا بفقد أضدادها وكانت الموجودات متضادة وأعيانها مختلفة متنافرة ، وهي على ما هي عليه منْ تضادها موجودة لا يفقد شيء منها بوجود ضده ، وكلها تحت الوجود محفوظة ، كان من ذلك العلم بأن الذي بطلت طبيعة الضد في الخروج من خير الوجود بوجود ضده ، وانحفظ الضد عن ضده الذي هو الله الذي لا اله الا هو الذي ليسيته محال ، اذ لو كان ليسا لكان وجود المتضادات ليسا ، ولما كانت المتضادات موجودة أعيانها كانت ليسيته باستناد وجودها الى سياسة باطلة فسبحان الذي به انحفظ وجود الاشياء على تضاد أعيانها ، واختلاف صورها به ، ولا اله الا هو الله اله خرست الألسن عند نهوض الأنفس لتتناوله بصفة النطق فوقفت متيقنة بالعجز متحيرة ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (١) •

في القلم الذي هو الموجود الأول :

في اثبات المبدع الذي هو الموجود الأول « وأن وجوده لا من ذاته » وأنه علة تنتهي اليها الموجودات ، وأنه لا جسم ولا قوة في جسم ، وأنه خارج عن عالم الروح • لما كان الله تعالى في

---

(١) يحاول الكرماني في هذا المشرع ان يؤكد فلسفيا بان الله لا يمكن ان يكون معدوما اذ لو كان ذلك كذلك لكانت الموجودات ايضا معدومة . ولما كانت الموجودات موجودة كانت عدمية الله باطلة . وهنا يؤكد وجود الله عن طريق ابطال ليسيته ، لضرورة استناد الموجودات واحتياجها الى موجد . راحة العقل ص : ١٥٥ .

علوه عن المراتب كلها كمالا ونقصانا ، ووحدة وكثرة ، وما يكون لحرف « لا » سلوك في نفيه من الصفات والموصوفات اللازمة اياها سمة لاختراع وراء ما تهتدي العقول اليه بضيائها والافكار بخطراتها على ما ذكرناه ، ووقع اليأس من الظفر بما يكون طريقا الى تناوله بصفة ، كان ما دونه هو الموصوف الموجود الذي في القدرة التوصل الى الكلام عليه انباء عنه ؟ واذا كان ما سواه الذي وجوده باختراعه اياه هو الذي في قدرة العقول التوصل الى الكلام عليه ، والانباء عنه بالأوصاف الموجودة في الخلقة ، قلنا ان الذي يترتب أولا في الوجود هو المتصور أنه لم يكن فوجد عن طريق الابداع والاختراع من لا شيء ، ولا شيء ، ولا في شيء ، ولا مع شيء الذي هو الشيء الاول ، فيكون وجوده من طريق الترتيب وجودا ثابتا ووجودا أولا ، بكونه نهاية أولى وعلة أولى بها يتعلق وجود ما سواها من الموجودات متوجها فيه نحو النهاية الثانية ، كما يكون الواحد في وجود الاعداد مترتبا أولا ثابتا بكونه نهاية أولى وعلة أولى بها يتعلق وجود ما سواه من الاعداد متوجها فيه نحو النهاية الثانية ، هذا اثباته من جهة ترتيب الموجودات • ومن جهة اتجاه الفعل وصدوره الى الوجود ضروريا ، فان الاول ان لم يثبت وجوده لم يكن للثاني طريق الى الوجود والثاني ان لم يثبت وجوده لم يكن للثالث طريق الى الوجود ، واذا لم يكن للثاني والثالث وجود الا بثبوت وجود ما يكون أولا لهما وسببا لوجودهما • فمن وجود الثالث والرابع وغيرهما من الموجودات قيام الدليل على وجود أول لها ثابت ، وسبب لولاه لما وجد سواه ، فقد ثبت للموجودات بوجودها مبدأ أول عنه ترتبت في

الوجود ، وذلك المبدأ الاول نسميه العقل الاول والموجود الاول• الذي وجوده لا بذاته بل بابداع المتعالي سبحانه اياه •

ثم نقول بالعكس ، لما كانت الموجودات مستندة في وجودها الى علل سابقة عليها ، وكان كل موجود منها في ذاته فعلا لما يتقدم عليه منها ، ومفعولا له من مادة ، وفاعلا لغير دونه من مادة ، كان من وجود الموجودات العلم بأنها منتهية الى علة تنتهي العلل اليها ثابتة ، هي في ذاتها فعل صادر عمن لا يستحق أن يقال أنه فاعل ، وهي مفعولة لا من مادة ، وهي علة فاعلة لا في مادة هي غيرها : وذلك أن وجود الموجود يتعلق بثبوت ما يتقدم عليه من علته التي لولا ثبوتها لما وجد ، كالتسعة التي هي علة لوجود العشرة ، ومتى لم يثبت وجودها استحال وجود العشرة • فلما كانت الموجودات موجودة ثابتة ، ثبت أن العلل ثابتة وأنها لا تزال ترتفع عن الكثرة عند التوجه نحو الاول منها وتقل الى أن تنتهي الى شيء واحد ثابت هو علة تنتهي اليها العلل ، مثل التسعة من الأعداد التي وجودها يدل على وجود الثمانية ، ووجود الثمانية يدل على وجود السبعة ، فلا تزال ترتفع عن الكثرة تحليلا الى ما منه وجدت الى أن تنتهي الى واحد ثابت هو علة لجميعها وبه قوامها فيكون ذلك الواحد المتقدم الرتبة وجوده لا بذاته ، بل هو في ذاته فعل عمن لا يستحق أن يقال انه فاعل ، وهو مفعول لا من مادة ، وهو فاعل لا في مادة هي غيره • وانما قلنا انه هو فعل في ذاته لكونه أول موجود على ما بيناه فيما بعد عن الذي لا يستحق أن يقال انه فاعل فيكون بكونه فاعلا فعلا فيقتضي كونه فعلا ما تكون عنه هويته ويؤدي ذلك الى ما لا يتناهى على ما بيناه في رسالتنا المعروفة «بالروضة»

يشهد بما قلناه من ثبوت أول به يتعلق ما سواه تحليلنا الموجودات الى عللها وانتهائها الى واحد وجوده لا بذاته بل عن غيره : وذلك انا وجدنا الانسان الذي هو آخر الموجودات وهو النهاية الثانية لها منحلا الى أشياء كثيرة مفعولة فيها هي كالمادة التي منها فعل وهي كلها دار الطبيعة ، والى أشياء كثيرة فاعلة صارت دار الطبيعة مادة لها يفعل فيها لاخراج ما من شأنه أن يوجد منها الى الوجود مثل الانسان وغيره ، وهي كلها قائمة بالفعل ، وهي الملائكة الموكلة بالعالم ، فهو ـ أعني الانسان ـ فاعل في مواد هي غيره عند ايجاده الصورة الصناعية ، ومفعول من دار الطبيعة ، وفعل للملائكة القائمة بالفعل ، وفاعليته بكونه فعلا لغيره الذي قام بفعله أعني ايجاده ، ووجدنا دار الطبيعة والفاعلين فيها منحلة الى أشياء ليست في الكثرة مثل دار الطبيعة بما تجمعه والفاعلين فيها بل أقل وهي الهيولى والصورة معا ، ولما صارت والصورة مادة له في تكوين الأفلاك والاستقصات من الملائكة ، أعني العنصر القائم بالفعل ، ودار الطبيعة والفاعلون فيها فاعلة للانسان وغيره من أنواع الموجودات ومفعول مما فيه وجدت ، أما دار الطبيعة فمن الهيولى والصورة ، وأما الفاعلون فمن فاعل مثلهم سابق عليهم ، وفعل للملك القائم بالفعل الذي هو سابق للجميع ، وفاعليتها بكونها فعلا للذي قام بفعله اياها ، ووجدنا الهيولى والصورة والفاعل فيهما متحللين الى شيء واحد منه بانتهاء التحليل الى أول الكثرة بالذوات التي ليس وراء أولها الذي هو اثنان الا الواحد ، وامتناع الامر في انحلالهما الى شيئين يجريان منهما مجرى الآباء والأمهات والفاعلين فيها من الانسان والهيولى ، والفاعلين فيها الآباء والأمهات لاتصال الامر

فيه ان لو كان كذلك الى ما لا يتناهى ، يكون سببا للاوجودية الموجودات ، فقد ثبت بانتهاء التحليل الى واحد به يتعلق وجود ما سواه ان هذا الواحد هو العلة الثابتة ، وهو فعل في ذاته ، وفاعل في ذاته ، ومفعول بذاته . ثم نقول : لما كـان كل قائم بالقوة ناقصا ، وكان خروجه الى الفعل الذي هو درجة الكمال لا يكون الا بالذي يستند اليه في ذلك ممن هو قائم بالفعل تام في ذاته وفعله ، وكانت أنفس البشر في دار الطبيعة قائمـة بالقوة ناقصة ، فخروجها الى الفعل اذن لا يكون الا بالذي هو قائم بالفعل ، في ذاته ، وفعله ، ولما كان موجودا من أنفس البشر من خرج الى الفعل مثل الانبياء والاوصياء والأئمة عليهم السلام وتابعيهم بنيلهـم الكمـالين ، واستيفائهم السعادتـين ومصيرهم مجمعا للفضائل ، صفرا من الرذائل تاما ، كان القائم بالفعل التام في ذاته وفعله الذي به كان كمالهم وارتقاؤهم الى درجة القيام بالفعل وباستنادهم اليه كان وجودهم تامين ولولاه لما كان لهم خروج الى الفعل موجودا ، واذا كان القائم بالفعل التام في ذاته وأفعاله الذي به ينهض القائم بالقوة للخروج الى الفعل موجودا ، لم تخل ذاته أن تكون اما جسما أو قوة في جسم . أو لا جسما ولا قوة في جسم ، فيكون خارجا من عالم الجسم وبطل أن يكون جسما أو قوة في جسم ، لكون ما يشتمل عليه عالم الجسم من الاجسام والقوى في الاجسام مواد يفعل فيها قائمة لنقصانها بقبول الفيض لنيل كمالها ، عاجزة عن الفعل في اعطاء كل شيء ما يليق به غير بالغة في تبليغه نهاياته التي هي كمالاته الا بغير فاعل ، وذلك مثل الاجسام العاليـة التي لا يحصل منها بمجردها فعل الا بما يقبل فعلهـا من الاجسام

السفلية المؤثرة فيها ، ومثل الاجسام السفلية التي لا يحصل منها فعل بمجردها الا بالأجسام العالية المؤثرة فيها ، وهي بجملتها عاجزة مؤثرها والمؤثر فيه منها بكونها من قبيل ما يكون مفعولا فيه ناقصا في الفعل عن تكوين كثير من الاشياء الا بمعاونة الغير فاعل وبمعالجته وتدبيره ، مثل الزجاج الذي عجزت الطبيعة عن اخراجه الى الكون كما أخرجت الذهب وغيره ، وأكثر ما بلغ امكانها اخراج ما يفعل منه فيعالجه الانسان ويجعله زجاجا ، ومثل الحديد الذي قد عجزت عن اخراجه الى الكون اخراج الفضة الى الوجود ووجوده متعلق بتدبير الانسان ومعالجته واخراجه مما اقتصرت به الى درجة الموجود ، ومثل النساء اللاتي عجزت عن توليدهن مزينات بالحلى والثياب ، والنقش في الخد والخضاب في اليد التي هذه كلها كمال لهن ، وأكثر امكانها اخراجهن ، وما يجعل زينة لهن فيتولى الانسان فعل ذلك وتتميمه ومثل أنفس البشر التي عجزت عن اخراجها تامة لا تحتاج في قيامها بالفعل الى غيرها ، ومصيرها ما يكون مفعولا فيه محتاجا في اصدار فعله الى غير به يتم فعله ، ناقصا في ذاته وفعله بكون ذاته من شيئين أحدهما غير الآخر ، مثل الانسان الكائن ذاته من شيئين جسم ونفس • وحاجة كل منهما في وجودهما الاول الى الآخر ، وما يكون ناقصا بتقدم الكامل التام في الذات ، التام في الفعل عليه ، وقد فرضنا أنه تام كامل في ذاته تام في فعله ، واذا كان هو كاملا في ذاته وفي فعله ، فباطل أن يكون ناقصا في ذاته وفعله • واذا بطل أن يكون ناقصا بطل أن يكون جسما أو قوة في جسم لكون الجسم وما في الجسم محتاجا ناقصا ، فهو لا جسم ولا قوة في جسم ، واذا

كان لا جسما ولا قوة في جسم ثبت أنه خارج من عالم الجسم قلنا كونه أيضا محتاجا في الفعل الى غير يقوم قابلا لأفعاله ، مثل الأنفس التي هي القائمة بقبول فعله فهو هنا للخروج من القوة الى الفعل يوجب كونه ناقصا في فعله وان كان تاما في ذاتــه ، والذي يكون ناقصا في فعله تاما في ذاته فهو مسبوق التــام في الذات والفعل الذي هو أعلى رتبة منه وأقدم ، فثبت من هذه الجهة أن السابق في الوجود الذي يعلو برتبته هذا القائم بالفعل الذي به يخرج القائم بالقوة الى الفعل هو الموجود الاول الذي يكتفي بذاته في فعله ، ويستغنى فيه عن غيره • ولما ثبت ذلك ، وكان الكامل السابق الذي هو الموجود الاول هو المكتفي بذاته المستغنى في فعله عن غيره ، قلنا : هل يجوز أن يكون هذا الموجود الأول هو المتعالي سبحانه عن الصفات المتعلق به وجود الموجودات، أم لا ؟• بحثا يؤدي أسفاره الى سكون النفس الى المعتقــد في ذلك ، فقلنا : لا يجوز أصلا ، فانه لا يخلو أن يكون هذا الموجود اما أنه هو الذي ظهر عنه الابداع أو هو المبدع الاول ، وبطل أن يكون هو الذي ظهر عنه الابداع بكون الموجود عنه ناقصا في فعله ، وقيام الحكم بأنه لو كان هو الذي ظهر عنه الابداع لكان الموجود عنه كاملا لا يحتاج في فعله الى غيره • ولما بطل أن يكون هو الذي ظهر عنه الابداع ، ثبت أنه هو المبدع الاول والكامل في الفعل ، المستغني فيه عن غيره ، الموجود عنه الناقص المحتاج في فعله الى غيره الذي هو الاول في الوجود ، والسابق في الوجود ، والتام في الوجود ، والتمام في الوجود ، والعقل الاول ، والحد الاول ، والمبدع الاول ، والمترتب أولا في الوجود ، وهو المتصور أنه لم يكن ، فوجد على طريق الابداع كاملا أزليا ، ذلك هو

الملك المقرب والاسم الاعظم ، لا اله الا من أبدعه ، يصحح جميع ما قلناه من ذلك من التحليل والانتهاء الى شيء ثابت تنتهي اليه الاشياء كلها ، ما كان منه الاستنباط من صنعته عالم الوضع الذي هو الصنعة النبوية ، وشهادتها لنا بالوصاية متوازنة وتطابقه للصنعة الالهية ، وذلك اننا حللنا ما به من كمال النفس الانسانية وحياتها وقيامها بالفعل الى ما منه كان ووجد ، فوجدناه منحلا الى أشياء كثيرة يجمعها شيئان : أحدهما الشريعة الجامعة لأركانها التي هي مراسم العبادتين بالعلم والعمل اللذين في أحدهما تصوير النفس ، وفي الآخر تقويمها الجارية من كمال نفس الانسان مجرى العالم الكبير الجامع للافلاك والاستقصات والكواكب وقواها الطبيعية من جسم الانسان ونفسه التي هي أشياء كثيرة ، وهي موازنة للصفة النبوية ومطابقة لها ، والآخر الامام الجامع للحدود القائمين بحفظ الشريعة وبسط معالمها ، ونشر أعلامها والدعوة الى العلم والعمل بها الذين بمكانهم وتعليمهم وجود الانسان انسانا ، الجارين من كمال نفس الانسان بتأثيرهم فيها تعليما وهداية ، وبلوغا بها درجة الكمال، ومنزلة العقول مجرى الملائكة الموكلين بالعالم ، القائمين بالفعل من العالم تأثيرا في أجسامه وقواه الطبيعية لاخراج ما من شأنه أن يوجد منه من حيوان ونبات ومعدن الى الوجود،الذين وجودهم في الصنعة الالهية موازن لوجودهم في الصنعة النبوية ومطابق : فكما أن الاستقصاء وقواها بمجردها لا يصح فيها فعل في اخراج مواليدها الا بالأشياء الفاعلة فيها • ولا من الاشياء الفاعلة بمجردها الا بالاستقصاء وقواها المؤثرة فيها ، فكذلك علوم الشريعة وأركانها لا تنبسط الا بالحدود القائمين ببسط علومها

واظهار المكنون فيها منها ولا من الحدود يصح فعل في نفس بمجردها الا بسنن الشريعة ووضائعها وعلومها ، وذلك من التوازن والتطابق بين • ثم حللنا الشريعة الجامعة لأركانها ومعالمها والحدود القائمين بها الى ما منه وجد الكل ، لتكون شهادة صادقة بما حللنا اليه العالم والفاعلين فيه ، فوجدناها منحلة الى شيئين ليسا بأشياء كثيرة مثل أركان الشريعة وعلومها وأعمالها ، بل قل أحدهما الكتاب بما عليه صيغته من الاعجاز فوازن ذلك ما انحل اليه العالم بأركانه وأفلاكه وكواكبه من الهيولى التي هي وصورتها شيء واحد وطابقه • والآخر الاساس القائم بحفظ الكتاب الذي منه كانت الشريعة وهو كالمادة له يعمل فيه ويستخرج مكنون علمه ويبسطه ويؤيد الشريعة وينصرها • فوازن ذلك الملك الذي يفعل في الهيولى والصورة التي منها كان عالم الجسم والطبيعة وطابقه • وحللنا الكتاب والأساس الى ما منه وجد ، فوجدنا وجودهما من الناطق (١) الذي هو شيء واحد بانتهاء عالم الوضع الى النهاية التي لا يكون وراءها ما يكون من جنسه فطابق ذلك ما انحل اليه الهيولى والصورة والفاعل فيها وهو شيء واحد بانتهاء الموجودات الى النهاية التي ليس وراءها الا ما هو لا من جنس الموجودات ووازنه ، ولم يجز أن يكون وجود الأساس (٢) والكتاب من شيئين الا من واحد ، اذ لا واسطة بين الناطق وبين الاساس والكتاب الذي هو أصل الشريعة وقوامها ، كما لم يجز أن تنحل الهيولى والصورة والفاعل فيها الى شيئين بانتهاء التحليل الى أول

---

(١) يعني النبي محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام .
(٢) يقصد الامام مؤسس الدور الذي يلي الناطق ، واكتساب القرآن .

الموجودات التي ان لم يتأحد أدى الى ما لا نهاية له ، وما لا نهاية له أولا فوجوده محال ، ووجدنا المتعلمين في عالم الشرع الذين لا يكون ارتقاؤهم الى درجة العلم وبلوغ منزلة الكمال الا بوجود معلم هاد (١) قد أقيم لهم مقام من يقوم بالتعليم والتأثير فيهم هداية وتقويما وذلك مطابق لما حكمنا به من وجوب وجود من يستند اليه القائم بالقوة في خروجه الى الفعل وموازن ، ووجدنا حدود الدين الذين يقومون بالتعليم والهداية فاضلهم ومفضولهم كلهم عاجزين عن استخراج العلوم واصطيادها بذواتهم محتاجين لهم ، وذلك مطابق لما حكمنا به من عجز موجودات العالم مؤثرها والمؤثر فيه منها عن اخراج الاشياء في وجوداتها الى نهايتها وموازن ، ووجدنا من يعجز عن استخراج العلوم بذاته ناقصا في ذاته وفعله ، أما في الذات فبكونها غير مقومة بأحكام الشريعة، وأما في الفعل فبكونه غير متصور للمعارف الدينية الالهية ، وذلك مطابق لما حكمنا به من مصير من يكون مفعولا فيه ومحتاجا في فعله الى غيره ناقصا في ذاته وفعله ، وأما في الذات فبكونها من شيئين أحدهما غير الآخر ، وأما في الفعل فللحاجة الى الغير وموازن .

ووجدنا من يكون ناقصا في ذاته وفعله قد أقيم له تام في ذاته ناقص في فعله ، مثل الأساس الذي هو تام في ذاته بكونه كاملا ، ناقص في فعله بكونه محتاجا فيه الى الكتاب والشريعة

---

(١) معلم هاد قد اقيم : يعني الامام الذي له الحق بأن يعلم الناس التأويل واصول واحكام ما ورد في القرآن وما حوته الشريعة باعتباره الوحيد الذي له الحق بعد النبي وهو بدوره يفرض حدوده الدينية بأن يقوموا مقامه ويدلوا الناس على احكام الدين .

ليفعل بهما في الانفس ويدعو الى التأويل والعلم بتوازن العوالم في الصنعة النبوية ، المصحح للظاهر المقترن بالعمل ، وذلك مطابقا لما حكمنا به من كون الذي يخرج به القائم بالقوة الى الفعل الذي هو خارج من عالم الجسم تاما في ذاته كاملا ناقصا في فعله لحاجته في اتمام فعله الى القوابل التي هي بمنزلة المادة التي يفعل فيها وموازن له • ووجدنا كون الأساس آساسا بالنطق التام في الذات والفعل الذي به وجوده واليه معاده ، وذلك مطابق لما حكمنا به من وجود سابق على التام في الذات ، الناقص في الفعل ، الذي به يخرج القائم بالقوة الى الفعل تام في الذات والفعل جميعا ، هو الاول من جميع الموجودات والنهاية الأولة من الموجودات ، وموازن له • ووجدنا الناطق في عالم الشرع والوضع أصلا اليه ينتهي الكل من الحدود ، وليس فوقه الا من أناله تلك المرتبة العالية وهو تام في ذاته بنيله الكمال ، تام في فعله بكونه غير محتاج فيما شرعه وبينه وأتى به من الكتاب المبين الى غير يستعين به الا ما به قوامه وتمامه ممن هو فوقه ، وذلك مطابق لما حكمنا به من وجود الموجود الاول أصلا اليه ينتهي كل موجود ، وأنه ليس فوقه الا من أبدعه سبحانه ، وأنه تام في ذاته ، تام في فعله وموازن له • فمن مصير الناطق علة تنتهي اليها الاشياء الدينية الوضعية القائم بالقوة منها والقائم بالفعل جميعا ، وموازنة الموجودات عنه ما عليه الخلقة الالهية قام الدليل على أن الشيء الاول هو علة تنتهي اليه العلل ، وكما صار الناطق أصلا أولا وجد عنه الكتاب والاساس صار الشيء الاول أصلا أولا وجد عنه الهيولى والصورة المفارقة، وكما صار الناطق وجوده ناطقا لا من جهة من كان من جنسه من

البشر صار الشيء الاول وجوده لا عمن هو من جنسه ، وكما صار الناطق موجدا عن غير به وجوده ، الاول موجدا عن غير به وجوده : ذلك تأويل قول الله « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة » مثلا بمثل ٠

وقد تبين بما أوردناه ثبوت وجود الموجود الاول ، وأن وجوده لا بذاته ، وأنه فعل وفاعل ومفعول في ذاته ونهاية تنتهي اليها الموجودات ، وأنه لا جسم ولا قوة في جسم ، وأنه خارج عن العالم الجسماني ٠

الابداع عند الكرماني (١) :

ولم يهمل الكرماني قضية الابداع وما يتبعها من مشاكل عقلانية فقد خصص لها الكثير من أبحاثه العرفانية فقال : في أن الموجودات عن الابداع الذي هو المبدع الاول بالانبعاث وجودها لا بزمان ، وأن كلها صور محضة الا الهيولى فانها هي واحدة من جهة وكثيرة من جهة أخرى ، وأنها لا تعقل الا ذواتها ، وما تقدم عليها في الوجود ، وان صورتها صورة الانسان لا تتعداها ، نافذة أنوارها في الاجسام والانفس فاعلة فيها وبها يتعلق وجود الموجودات ، ولما كانت الافعال تنقسم في وجودها ثلاثة أقسام : أولها الذي هو أشرفها وأكملها ما يكون لا بزمان ويختص ذلك باسم الابداع ٠ وثانيها : الذي هو أوسطها ما يكون مع الزمان ويختص ذلك باسم الانبعاث ٠ وثالثها : الذي هو أدونها وأخسها ما يكون بزمان يختص ذلك باسم الاحداث ٠

---

(١) راحة العقل : المشرع السابع ص ٢٥٨ .

وكان ما يكون بزمان هو الفعل الصادر عن علة فاعلة معوقة عن فعلها ، أما من جهة ذاتها بكونها مشوبة بما يعوقها ، أو من جهة المادة التي فيها يفعل باقناعها عن القبول دفعة واحدة أو كليهما ، وذلك يختص بعالم الكون والفساد مثل الأمور الصناعية • وما يكون مع الزمان هو الفعل الصادر عن علة فاعلة في ذاتها أو غيرها مما هو على غاية القبول ، وذلك يختص بالذوات البرية من الاجسام ، والاجسام العالية بكونها قائمة بالفعل • وما يكون لا بزمان هو الفعل الصادر لا عن علة فاعلة في ذاتها ولا في غيرها ، ولا عن علة معوقة في ذاتها ومادتها ، بل عن المتعالي سبحانه عن ذلك كله ، وكان الموجود في عالم الابداع والانبعاث لا عن علة فاعلة في ذاتها ولا في غيرها ، ولا عن علة معوقة في ذاتها ومادتها ، كان من ذلك الايجاب بأن وجوده بلا زمان ، ثم وجود الاشياء في عالم الكون والفساد شيء بعد شيء من المواليد ، وفي عالم الدين كذلك شيء بعد شيء من فريضة ، وسنة بعد سنة ، وامام بعد امام ، وانما هو للعوائق التي تعوق العلل الفاعلة عن أفعالها ، اما في ذواتها بأن تكون مشوبة بما منه يقع التعويق من المواد التي تقعدها من الفعل الا بزمان ، أو في موادها التي فيها تفعل بأن تكون غير قابلة دفعة واحدة الا بمدة وزمان كالشمس التي هي علة فاعلة للاسخان ، فاسخانها جسم الحجر القابل لفعلها الذي لا يكون نفوذ حرارتها فيه لضيق جوهره وتكاثف أجزائه ــ أعني الحجر ــ وتداخل بعضها في بعض لا بزمان ، لا كاسخانها جسم الهواء وذلك من جهة الجسم القابل لا من جهتها • ودار الابداع والانبعاث لا عائق فيها لخلوها من المواد التي تعوق وتجردها منها ، وكونها صورا

محضة لا تتعلق بمادة ولا لها مادة فتحجزها عن الفعل ، واذا كان لا عائق فيها فوجود موجوداتها لا بزمان بل دفعة واحدة مثل وجود اشراق بسيط الهواء عن ضوء الشمس لا بزمان ، واضاءة النار البيت المظلم دفعة واحدة بلا زمان ، وكفعل الطبيعة في محاكاتها تلك الافعال المرتفعة عن الزمـان فيما تخرجـه الى الوجود ، مثل الطلع الذي تخرجه بكمه وحباته وأعذاقه في بدء أمره من الجمار معا على أصغر شيء هيئة من غير أن تقـدم شيئا منه على شيء يتعلق بالكمال الاول ، وكالرمان الذي تخرجه من الجلنار بحبابه وأقسام باطنه وقشوره على أصغر شيء صيغة وأرق شيء جسما من غير أن تخرج منه شيئا بعد شيء بل معا ، ولما كان الامر في وجود تلك الاشياء والمبادىء على هذه الصيغة معا ، وبالضد مما عليه وجود الحدود السفلية بكون تلك على غاية الكمال أولا ، وهذه على نهاية النقصان أولا ، استحال أن يكون وجودها بزمان ومدة • ثم كون الابداع الذي هو المبدع الاول ذات الفعل الصادر عن المتعالي سبحانه ، وكونه قائمـا بالفعل لا قائما بالقوة فيكون بين كونه قائما بالقوة وبين قيامه بالفعل احاطة منه بذاته التي يتعلق بها وجود كل عقل منبعث تصور مدة وزمان ، يلزم أن يكون وجود الكل بوجود الابداع معا ، واذا كان ذلك كذلك فلا زمان هناك في وجود الموجودات ووجودها كلها • ثم وجود الانبعاث من الابداع الذي هو المبدع الاول عن احاطته بذاته واغتباطه بها فلم يوجد الابداع الذي هو المبدع الاول ، ولا هو محيط بذاته ولا هو مغتبط بها ، بل وجد وهو كذلك محيط ومغتبط ، وكونه على ذلك يلزم أن تكون الموجودات عنه وجودها لا بزمان بل معا • يدل على ذلك

ويصححه شهادة عالم الدين من اقتران الوصاية بالنبوة والكتاب والوصي • وقول النبي الناطق صلوات الله عليه « الا اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ، حبل ممدود من السماء الى الأرض طرف منه بيد الله ، وطرف منه بأيديكم ، فتمسكوا بهما فانكم لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما ، وقد سألت ربي أن يردا علي الحوض كهاتين » وأشار بالمسبحتين من يديه جميعا ، وقال : « ولا أقول كهاتين » وجمع بين المسبحة والوسطى من يده الواحدة احداهما تسبق الأخرى ، الذي يدل بكونهما معا على أن شيئا في تلك الدار لم يتقدم وجوده على شيء من العقول القائمة بالفعل ، والعقول القائمة بالقوة ، بل وجد الكل معا ، والساري فيه من العناية الالهية يعطي كل منها ما هو أهل له • ثم ان تلك الموجودات مع كونها في وجودها معا هي شيء واحد من جهة كونها حياة ، وباحاطتها بذواتها عقلا وأشياء كثيرة من جهة رتبها وشرفها وتكثرها على ما عليه حال عالم الجسم في موجوداته ، فانها كلها شيء واحد من جهة كونه جسما طويلا عريضا عميقا ، وهي أشياء كثيرة من جهة صورها التي تخصها وتكثرها بأحوالها يشهد بذلك مطابقة المتقرر من جهة مراتب الحدود في عالم الدين القائمين بحفظه لذلك ، وذلك أن الأئمة عليهم السلام في الادوار الصغار ، والنطقاء عليهم الصلاة والسلام ، في الأدوار الكبار ، من جهة كونهم نطقاء وأئمة ، كلهم شيء واحد لا يتفاضل أحد منهم على غيره ، لا ناطق على ناطق ، ولا امام على امام ، بكون كلهم الكمال ودرجة التمام كنفس واحدة ومن جهة أتباعهم والمتصلين بهم من الأنفس كثيرون يتفاضل الواحد منهم على الآخر ، الناطق على الناطق ،

والامام على الامام ، فان من كانت دعوته أعم والفضلاء في زمانه وبث دعوته أكثر فهو أفضل ، اذ هو مجمعهم والوارد بهم على المنهل المورود الذي هو محشرهم ثم أنها ـ أعني العقول في دار الابداع والانبعاث ـ تعقل ذواتها وذوات ما يتقدم عليها ، وبحسب عقل كل منها ما فوقه في الرتبة تكثره ، كالخامس مثلا الذي تكثره أكثر من تكثر الرابع ، بكون ما يلزم الخامس عقله من الأمور السابقة عليه في الوجود أكثر مما يلزم الرابع عقله من ذلك ، وكالرابع الذي تكثره بعقله ما فوقه أكثر من تكثر الثالث بما يعقله ما فوقه ، اذ كل من كان الى الواحد أقرب فهو أبسط ، ثم لا يلزمها عقل ما دونها اذ وجودها بوجود السابق عليها في الوجود لا بوجود المترتب دونها من الوجود • يصحح ذلك فاعلية قانون الديانة فيما يلزم الحدود معرفته ، والاقرار به من الحدود المتعالية عليها ، مثل الحجة الذي يلزمه الاقرار بمكان الباب والامام والاساس والناطق ، ومعرفة مقاماتهم ومراتبهم ومراتب الحدود السابقة عليه في الرتب ومراتبهم ، ولا يلزمه الاقرار بدعاته ومعرفتهم ومن دونه مثل ما يلزمه من ذلك فيما فوقه ، اذ كماله في معرفته ما فوقه لا في معرفة ما دونه ، وكذلك الامام والاساس والناطق ، وعلى ذلك ساق الله تعالى ذكر المؤمن وفي ايمانه بقوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل من ربه والمؤمنين كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله الآية (١) » ليكون ذلك دلالة على ما يلزم المؤمن من الايمان والاقرار بما يتقدم عليه من الحدود التي فوقه فيعلم أن تلك العقول تعقل ذواتها وذوات السابقين

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٨٥ .

عليها في الرتبة الى أن ينتهي الى الاول الذي كفايته في احاطة ذاته بذاته ولا تكثر هناك الا بالنسبة والاضافة . ثم أنها ـ أعني العقول ـ في دار الابداع والانبعاث مثل الانسان لا تتعدى صورها صورته ، وذلك أن من القانون والنظم في الحكمة أن تكون النهاية الأولى للأمور تشبه الثانية منها ، والنهاية الثانية مثل النهاية الأولى منها ليكون بكون النهاية الثانية من طبيعة النهاية الأولى للأمور تشبه الثانية منها ، والنهاية الثانية مثل النهاية الأولى منها ليكون بكون النهاية الثانية من طبيعة النهاية الأولى وجود التوافق والنظم والتوازن بين النهايتين منها المؤذن باجتماع شمل الاشياء في وجودها التي متى لا تكون ذلك كذلك يبطل أن يكون للأمور وجود ، اذ من شأن المثل المقاربة والانبساط ، وشأن الضد المباعدة والانقباض ، ولا يجوز أن يكون الانتهاء من الشيء الى ما لا يكون من جنسه وقبيله لا النهاية الأولى ولا النهاية الثانية لخروج الامر في الوجود عن نظام الحكمة وامتناع الامر فيه ، فان الاشياء وجودها بالتوافق لا بالتخالف والاول والآخر اللذان هما نهايتان أولى وثانية هما مثلان مهما يجتمع شمل الوجود الذي صارت النهاية الأولى أولا لها ، والنهاية الثانية آخرا له ، وأقرب الاشياء الى الشيء الذي هو النهاية الأولى التي هي الاول ما كان في النهاية الثانية التي هي الآخر بانعكاسه عليه ، وأقرب الاشياء الى الشيء الذي هو النهاية الثانية التي هي الآخر ما كان في النهاية الأولى التي هي أول بانعطافه عليه ، وليس يكاد يكون الانعطاف والانعكاس الا بالملائمة التي متى فقدت بطلت الأولية والآخرية ، واذا بطلت الأولية والآخرية فقد بطل الوجود ، اذ ثبوت النهاية الأولى التي

هي الاول من الشيء في كونها منه ، وما يكون منه فهو مثله ، وكذلك النهاية الثانية التي هي الآخر ، واذا لم يكن منه لم يكن مثله ، واذا لم يكن مثله لم يكن له أول • واذا لم يكن له أول لم يكن له آخر ، واذا لم يكن له أول ولا آخر فلا وجود ، ولولا أن النهايات من الاشياء تنتهي الى ما يكون مثلها لما كان يوجد عن شيء مثله ، ولكان لا يوجد في الوجود شيء كان له قبل وجوده ، مثل الوجود بوجودنا أن أمر الموجودات على صيغة واحــدة في وجودها لا تزيد ولا تنقص ، وأنه لا يحصل في الوجود ما لم يكن قبل وجوده مثله موجودا قيام الدليل على أن النهايات الأولية انتهاؤها في الوجود الى ما يكون مثلها من النهايات الثانية التي هي الآخرية ، وأن النهايات الثانية التي هي الأخرية انتهاؤها ، وبالعكس الى ما يكون مثلها من النهايات الأولية وذلك بانعطاف الاوائل على الاواخر وجذبها اليها على ما يكون عليه الحال في أول نقطة من الدائرة بكونها مثل آخر نقطة منها ، ومصــير النقطتين مثلين في باب كونهما نهايتين بهمــا اجتماع شمــل الدائرة ، وان كان للأولى منهما شرف الأولية ، وللاخرى شرف الأخرية • واذا كانت النهايتان من الموجود مثلين في باب كونهما نهايتين ، مثل الولد والوالد اللذين كل منهما نهاية للآخر وهما مثلان ، ومثل بذر الحنطة التي حبوبها مثل حبوب السنبلة وكل منهما من البذر ، وحب السنبلة نهاية للآخر ، وهما مثلان • وكانت النهايتان للموجودات الأولى الثانية هما الابداع الذي هو المبدع الاول والانسان ، فهما مثلان ، واذا كانــا مثلــين فصورة الاول منهما صورة الآخر ، ولست أريد بقولي الانسان الا من هو بالحقيقة انسان ، مثل أصحاب الأدوار وخاصة صاحب

الدور السابع الجامع للنطقاء والأسس والأتماء وتابعيهم على أمرهم الذين حازوا الفضائل وحووها فصاروا عقولا قائمة بالفعل ، لا من هم أشباه الانسان بصورهم الجسمانية وهم وحوش وذئاب وقردة وخنازير وعقارب وكلاب بصورهم النفسانية الذين لا حظ لهم في دار الثواب • ثم ان كل علة فاعلة فانها تعطي معلولها الذي هو نهايتها في صورتها ما به وجوده ، ولما كان دار الابداع الذي هو المبدأ علة لوجود الموجودات ، وكان المعلول الذي انتهى اليه الوجود هو الانسان ، كانت صورته التي عليها وجد هي الصورة التي اختص بها الابداع صورة الانسان ، ثم ان الانسان لما كان ولد العالم الكبير بوجوده منه ، وهو بالموجود فيه الذي هو عنه جملته موازن له مطابق مشابه ، وكان العالم الكبير وجوده عن عالم الابداع وهو مطابق له بالموجود فيه الذي عنه جملته وبه هو عالم متشابه ومشاكل ، فعالم الابداع وما فيه من العقول مثل الانسان ، ولا يجوز أن تتعدى صور تلك العقول صورة الانسان بكونه ــ أعني الانسان ــ نهاية ما أوجبته العلة الأولى وما يكون نهاية في الوجود آخر فهو مثل ما يكون نهاية في الوجود أولا ، ثم لو تعدت صورتها صورة الانسان لم يكن الانسان نهاية الموجودات، ولكان موجودا ما كان به الانسان متقدما في الوجود عليه ، ولما بطل وجود ما يكون به الانسان متقدما عليه في الوجود ، ثبت أنه نهاية للموجودات ثانية لا يوجد وراءه شيء آخر ، واذا كان الانسان نهاية للموجودات ثانية والنهاية الثانية مثل النهايات الأولة ، فالعقول التي هي المبادىء والنهاية الأولى في دار الابداع صورها صورة الانسان الذي هو النهاية الثانية في عالم النفس ،

يصحح ما قلناه ويحكم به ما ثبت في عالم الدين من الروايات عن الناطق صلوات الله عليه أن الله خلق آدم أبا البشر على مثال صورة نفسه · ثم ان هذه العقول في دار الابداع قواها وقوى الابداع الذي هو المبدع الاول ـ أعني أنوارها ـ نافذة في دار الطبيعة سارية فيها الى الانفس التي هي النهاية ، وبها يتعلق وجود الموجودات على ما صورناه ، وهي ـ أعني الانوار السارية في العالم ـ تعطي الانفس في بدء وجودها ما به تعرف الخير والشر ، وبه تميل الى الجميل وتؤثره وترهب القبيح وتكرهه ، وأول ذلك قوة الحياة التي هي أول ما يظهر في الصبيان فيستحيون من القبائح ، ومنه يستدل على جواهرهم التي تكاد تكون عقولا قائمة بالفعل باستعمال السنن الالهية ، ومن كان حياؤه أكثر فعقله أوفر ، وهي ـ أعني العقول في دار الابداع ـ هي التي تهذب الانفس في عالم الجسم وتصلها اذا تهذبت ذواتها من أمارات الطبيعة وتكسبها الكمال والبهاء والهيبة والعلاء وتستخلعها وتشفق عليها شفقة الوالد على ولده ، ولذلك قال عيسى ابن مريم عليه صلوات الله : « أنا ابن من في السماء » · وهذه صورة تعلق الموجودات بالقوة السارية من عالم الابداع واتصالها بها وقد صورناها في موضعها لتعاين · والحمد لله الذي قدر ذلك وقضاه ، وأجرى التدبير فيه على نظام الحكمة فأمضاه ، وسبحانه ولا اله الا هو ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم · أستغفر الله وأتوب الى الله وأفوض أموري الى الله وأستعين بالله وأتوكل على الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وحسبنا الله ووليه في أرضه ونعم الوكيل ، ونعم الهادي والمشفق والمعين ، ونسأله العصمة وأن يختم لنا بخير ويجعل منقلبنا الى خير أنه جواد كريم ورؤوف رحيم ·

في المادة الأولى (١) التي عنها تكون الأجسام :

لما كان الأمر في وجود الهيولى على ما تقدم ذكره من انعطاف الذوات العرية من المواد عليها لتجعل منها الأشبه في الحكمة مما يمكن أن يكون ما سبق شرحه ، وكان في الامكان أن يوجد منها ما يكون في حاله وكماله واستغنائه في وجوده عن المواد ــ مثل المبدأ الاول ــ أخيرا لما امتنع أن يكون منها أولا ، جعلت العناية الالهية بالقصد الثاني منها ما يكون مؤديا وجوده الى وجود ما أوجبت الحكمة وجوده أخيرا ، فأقامت منها أجساما عالية من أفلاك وكواكب وأعطتها كمالاتها التي تليق بها فيما قصدت ، وركبتها في غاية الاحكام فعل الحكيم الذي يعتني أولا في فعله باستجادة أدواته التي بها يتم فعله في كل مادة قبل استجادة المهنة التي فيها يعمل لتكون بجودتها موجودا فعلها في القوابل على غاية الاتقان وغاية النظام ، اذ الآلات والأدوات لذوي الصناعات متى كانت لا على غاية الجودة ولا على حالة يكون منها قبول تام، أدى ذلك الى كثير من النقصان في كمال فعله ، كالقلم للكاتب الحاذق في كتابته وجودة خطه ، وكالكاغد وغير ذلك مما يتم به كتابته الذي متى كان فيه نقصان بعيب فيه ، دخل على كتابته وخطه من النقصان لأجله ما لا يدخل عليها اذا كان صحيحا سويا ، ولذلك وجب في الحكمة استجادة الآلات واحكامها ليكون بكمالها الفعل بها تاما ، ولما أقامت منها الاجسام العالية وأعطتها كمالاتها ولم يكن القصد فيها أن يجعل الكل أفلاكا وكواكب الا ما كان ممكنا وجوده أخيرا من موجود يقوم بذاته غير محتاج الى

---

(١) راحة العقل : المشرع الاول ص ٣٢١ .

مادة يستند اليها في بقائه ، لزم وجود ما وجد منها وامتناع الأمر في وجود الافعال الصادرة عن كل موجود انبعاثي قائم بالفعل الا فيما يكون قابلا لها من المواد أن يبقى منها ما يكون مادة قابلة يتعاقب عليها الفعل وتتوارد عليها التأثيرات من جهة المتحركات التي أقيمت من جنسها ليكون بقبولها الفعل منها وجود المقدر في الحكمة أن يوجد بوجودها كذلك ، مثل الحديد الذي هو في صناعة الحدادية موضوع قابل لفعل الحداد وهي ـ أعني الحديد ـ من جنس الآلات والأدوات التي هي المطارق والعلاة والكلبتان والمبرد وما يجري مجرى ذلك من أدواته التي بها يتم فعله ومنه أصلحت ليكون بقبوله آثار الصنعة وجود المقدر أن يوجد بوجوده كذلك من أنواع ما يعمل من الحديد ، ولما لزم أن يبقى من الهيولى والصورة ما يكون مادة وموضوعا تتجه نحوها آثار المؤثرات فتجري منها في الوجود المواليد عنها مجرى الأنثى من الذكر ، قلنا ان هذا الذي منه يبقى لهذا الباقي الذي هو الهيولى في وجودها وانبعاثها عن الموجود الاول ذات صورة رافدة اياها الوجود كما أنها لها بها الوجود ، اذ لا وجود لاحداهما الا بوجود الأخرى ، ولا لهما وجود الا معا بكون وجودهما عن نسبة هي في ذاتها زوج معرب عنها بالمبدع الذي يقتضي ابداعا ، وما بالابداع هو مبدع ، فلا الهيولى سابقة في وجودها على الصورة ، ولا الصورة سابقة في وجودها على الهيولى ، بل هما ذات واحدة ، هي في ذاتها جزآن بهما ذات الجسم جسم على كون الصورة أشرف من المادة لتعلق الفعل بها ، وعلى كون كل منهما ـ أعني الهيولى والصورة ـ في ذاته غير جسم ـ فلا الهيولى بمجردها جسم ولا الصورة بمجردها

جسم أيضا ، لكنها باعتضاد كل منهما في الوجود بالآخر على أمر ينافي ذاتيهما اذ كانتا في حالهما الأولى لا كهما في حالهما الثانية عند البحث ، اذ هما في الأولى خاليان مما صار لهما في الثانية من الطول والعرض والعمق من الكمية التي سبيل حدوثها لها كالسبيل في حدوث كيفية السواد عند الجمع بين العفص والزاج اللذين لا سواد في ذاتيهما وهما بجملتها ذات قابلة للصور المتضادة قائمة بالقوة كما تصير بقبولها صورته قائمة بالفعل مثل الخشب للسرير ، واذ كان ذلك كذلك فاللازم بقاؤه من جملة الهيولى والصورة بعد ما جعل أجساما عالية مرتبة في مراكزها كالآلات ، وان كان لا قبل ولا بعد ولا تقدم لشيء منها على شيء الا عند ترتيب الكلام عليه بكونه هيولى وصورة ، هو كالأجسام العالية الكائنة من الهيولى والصورة ، الا أنه بكونه دونها قائما لقبول آثارها كالمادة لذوي الصناعات التي تقبل الآثار ، بل كالأنثى القائمة لقبول قوى الذكر ،وأشعة الاجسام العالية متوجها اليها ، وهي التي تكسبها الكيفيات فصارت بهذه الأمور ممتازة عنها وان كان الكل من طبيعة واحدة وذوي أقطار ، فتلك أجسام عالية مؤثرة بحركاتها ثابتة بأعيانها غير مستحيلة في ذواتها حافظة صورها وموادها ، وموادها بكمالها صورها ، وهذه أجسام سافلة قابلة آثار المتحركات عليها بذاتها زائلة في طباعها مستحيلة في كيفياتها مهيئات للانفعال ، فاعل بعضها في بعض ، فاعلة في الموجودات عنها ، متوجهة موجوداتها في القبول الى ما لها أن تقبل من الأعراض التي فيها كما لها المقصود بهذا الترتيب المحكم والنظم الحسن ، وذلك كالحديد الذي هو دون الآلات المعمولة قائم بقبول الصور زيادة على ما كان عليه موجودا في ذاته من

الصورة التي بها وجود جسما ، وان كان الكل من جهة كونهما جديدا شيئا واحدا لا يتقدم أحدهما الآخر فيكتسب بالوارد عليه من تأثيرات الآلات من جهة الصانع الذي هو أحـد الآلات أيضا صورا كثيرة بها يبلغ ما له أن يبلغه ، فكانت الآلات التي هي السندات والمطارق وغيرهما بمنزلة الاجسام العالية لا تنفعل في الفعل عن المفعول فيه ، فانها قد تصدر في صنعتها لحالة تبقى معها فاعلة لا تنفعل ، والحديد الذي هو المعمول به بمنزلة المادة التي ذكرناها التي تنفعل في الفعل عن الفاعل ، مثل المسن الذي ينفعل في فعله تحديدا للسكين عن الفاعل فيه الذي هو السكين ٠

يدل على صحة هذه الأمور ، معرفة أحوال هذه الأجســام وتاليفها وكونها فاعلة ومنفعلة معيار الخلقة وميزان الديانة ، لكون قواعدها مسلوكا بها في تقريرها وترسيمها من جهة الصنعة النبوية مسلك الصنعة الالهية : وذلك أن الأنفس في عالم الطبيعة لما حصلت في الوجود عن أسبابها المتقدمة عليهـا في الوجود ، وكانت في التهيؤ للقبول والارتقاء الى موازاة المبدأ الاول ، ونيل درجة العقول في القيام والاستغناء في الوجود عن المواد على ما هي عليه من الحالة التي ليست لشيء تقدم عليها في الوجود من الهيولى والصورة ، عمدت العناية الالهية في جذبها الى هذه المرتبة التي هي غاية القصد فيما أوجبت الحكمة وجودها على حسب ما ذكرناه في باب الهيولى والصورة الى اقامة أسباب بها تنال هذه المرتبة وتحصل قائمة بالفعل برية من المواد ، كما أقامت الأسباب أولا في اخراج النفس الى الوجود فجعلت منها النطقاء والأوصياء والأئمة عليهم السلام ، وأعطتهم الكمال أولا كما أعطت الاجسام العالية كمالاتها أولا ، كما ذكرنا في باب

الحروف العلوية ، لأن ينبعث عنها مثلها ، وأيدتهم بالفيض والبركات ليكونوا أسبابا في ارقاء باقيها الى درجة العقـول ، وحفظها من الدثور معلمين لها وموصلين اليها مـا به تنال هذه المرتبة ، وباسطين لها ما تنشأ عليه من رسوم العبادتين ما يكسبها التعلق به الفضيلة والكمـال ، فكـان كون النفس الموجودة بالأسباب المنصوبة لاخراجها الى الوجود الاول في عالم الطبيعة أصلا في عالم الدين منها يكون النطقاء المرسلون والأوصيـاء والأئمة الهادون ، وفيها يكون الحجج والدعاة المعلمون ، ومنها يكون المتعلمون القابلون منهـم موجبـا أن الهيولى والصورة موجودتين بالانبعاث من عالم الابداع وجودا أولا أصل في عالم الطبيعة منها تكون الاجسام العالية والكواكب الكاملة الفاعلة ، وعن جميعها تكون مواليدها ٠

وكان وقوع العلم بأن الاختيار اذا وقع على بعض الأنفس وخص بالكمال ليكون سببا لكمال باقيها بقي بعضها خاليا من الكمال محتاجـا الى الاستفـادة ، موجبـا للعلم بأن الاختيـار والتخصيص بالكمال اذا وقع على بعض الهيولى والصورة فجعل أسبابا في وجود الموجودات أبقى منها ما هو خال عن الصورة التي بها كماله ، وهو الذي يسمى المادة ، وكان كون النفس الموجودة عن حركات الاجسام العالية واستحالات الاجسام السفلية قبل نشوئها في الملة ، واعتقادها أمرا مـن أمور الشريعـة ، ومصيرها ذات رتبة في عالم الدين خالية من المعالم الدينية عاطلة، موجبا أن المادة الموجودة دون الاجسام العالية قبل تصورهـا بصور الاركان ، ومصيرها ذات رتبة في الوجود الحسي في العالم الطبيعي خالية من الصور المقومة عاطلة منها ، وكان كون الانفس

في وجودها دون الناطق والقائمين مقامه ، باقية لا مرتبة لها في الشرف مثلهم ، لها علتان : علة قريبة هي اختصاص النطقاء والقائمين مقامهم بالمراتب العالية كمالا وتماما ، وامتيازهم بها منها ، وعلة بعيدة هي النسبة المبدعية الموجودة في الابداع الذي هو في الشرف دون النسبة الابداعية ، موجبا أن المادة الخالية من الصور التي منها الاجسام السفلية في وجودها دون الأفلاك لها علتان : علة قريبة هي اختصاص الافلاك التي هي الأجسام العالية بالكمال ، وامتيازها منها به ، وعلة بعيدة هي النسبة الموجودة الابداعية ، وكان كون الناطق والقائمين مقامه من الحدود في التعليم في عالم الدين مختصين من بين الأنفس بالكمال والتمام ليكونوا بذلك مؤثرين في باقي الانفس بالهداية والتعليم فتكثر المواليد الروحانية ، موجبا أن الاجسام العالية مختصة من بين الأجسام كلها بالكمال لتكون بكمالها مؤثرة في باقي الاجسام السفلية وتكثر المواليد الطبيعية ، وكان امتناع الأمر في أن تكون الانفس كلها كاملة مثل الناطق ، ومؤيدة غير محتاجة لوقوع الاستغناء بالموجود منهم فيما قصدت الحكمة لانالتها الكمال عما سواهم ، موجبا أن امتناع الامر في أن تكون الاجسام كلها كواكب وأفلاك لاكتفاء الحكمة بقدر الموجود منها فيما قصدت الحكمة فيها ، وكان كون الأمر في أن الأنفس كلها لو كانت مرتبة في مرتبة الناطق لكان ، فأبطل في الوجود من المراتب أكثر مما حصل في الوجود منها ، بكونها لو كانت كذلك مرتبة واحدة ، وباقي المراتب في عالم الدين التي بها تستتم الحكمة كان لا وجود لها ، وكان ذلك مؤديا الى وجود النقص في حكمة الحكيم ، موجبا أن الهيولى لو جعلت كلها أجساما عالية من

كواكب وأفلاك ، لكان ما بطل في الوجود من الموجودات أكثر مما حصل في الموجود منها بكونها لو كانت كواكب وأفلاكا فقط موجودا واحدا ، واثنين ، وكانت الاركان ومواليـدها على أنواعها وأشخاصها ، وعجائب الحكمة فيها التي تستتم الحكمة في وجود الأنفس لا وجود لها ، ولكان وجود ذلك على ذلك نقصا في حكمة الحكيم ، وكان كون النفس في وجودها ذاتهـا حياة وقدرة جزأين بهما ذاتها ولا وجود لاحداهما دون الأخرى على كون كل منهما في ذاته غير نفس ، موجبا أن الجسم في ذاته هو هيولى وصورة جزآن بهما ذاته ووجودهما معا ، وليس ولا واحد من جزأيه اللذين بهما جملته جسم ، وكان كون الانفس دون النطقاء والأئمة القائمين مقامهم منتقلة عن رتبتها ومرتقية بآثار العلم والاستفادة الى ما هو أعلى منها موجبا أن المادة لذات الصورة دون الاجسام العالية قابلة آثارها ومنتقلة عن طبائعها الى ما هو أشرف منها باكتساب الصورة ، وكان كون الانفس دوان الحدود في علم الدين ذات علم أول ، موجبا أن المادة لذات الصورة التي هي الجسم المطلق لها علم أول على السبيل الذي بيناه فيما تقدم ، فهذا من قضايا موازنة عالم الدين لغيره على اختصار وامساك عن بسط الكلام في التنزيل والشريعة ومـا تنطق به دلالتهما في ذلك ، ومن كان له جوهر ملائم لجوهرنا استمرت بهذه الطريقة في الاستنباط خواطره ، وامتدت في الادراك بصائره ، فرأى ما تركناه له نصيبا لفكره ، ففكـر مهذبا به نفسه ممدا ايانا بالدعاء والترحم أوقات خلواتـه بنفسه في مناجاته ، حامدا الله تعالى الذي من علينا وعليـه بأوليائه مصابيح الظلام الذين أضاؤا لنا طريق الهداية .

وعند ذلك نقول لا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم سبحان الله والحمد لله ، ن الله ، وأفوض أمري الى الله ، والصلاة على خاتم الانبياء محمد وعلى عترته الطاهرين أمير المؤمنين (١) وآبائه الهادين وحسبنا الله ونعم الوكيل ٠

الابداع عند صاحب كنز الولد (٢) :

اذا ما سبرنا أعماق هذا الكتاب العرفاني الحقاني « كنز الولد » نلاحظ أن مؤلفه الداعي المطلق ابراهيم الحامدي قد نهج نهج كبار دعاة أهل الحق عندما عالج قضية الابداع الروحاني فقال : « في القول على الابداع الذي هو المبدع الاول من حيث شرفه وفعله ووحدانيته وسبقه، ووجوده أولا ، وكماله، وأزليته ، وجلاله ، وعلمه ، وبهائه ، وعقله ، وثنائه ، وعظمته، وكبريائه ، وقدرته ، وحياته ، وانفراده بجميع صفاته ٠ ان هذا الباب بعد اثبات توحيد المتعالى سبحانه ، من أشرف الابواب المذكورة ، وفيه من الأسرار التي رمزت بها الحدود تلويحا لا تصريحا ، لأنه المبدأ الاول الذي تعرف به الأصول (٣) ، والفروع ، والفصول ، والعلل ، والمعلولات ، والاسباب ، والكائنات ووالفوا بين ذلك ، حتى لا يقع علم الكيفيات

---

(١) راحة العقل — تحقيق الدكتور مصطفى غالب . والمعنى بامير المؤمنين: الامام الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي .

(٢) كنز الولد ص ٣٢ — تحقيق الدكتور مصطفى غالب .

(٣) أول ما يطلب من الاسماعيلي كمبدأ عرفاني التوحيد والتجريد والتنزيه ومتى عرف المستجيب ذلك واقر به تسهل عليه معرفة الاصول الاربعة وبقية الحدود والفروع والعلل والمعلولات .

واللميات ، في أيدي الجهلة الغفلة من فسقة الجن والانس ، لأنه العلم المكنون ، المستور المصون ، ولا يظهرون شيئا من ذلك ، الا وحيا من لسان الى أذن ، بعد قبض العهود المؤكدة ، وتغليظ المواثيق المشددة ، والامتحان بدفع النجاوى والزكاة والشراوي ، والفطر ، والصدقات ·

وقد وثقت بك في حفظ مجموع من الحكم التي شرحتها في مصدور قبله (١)،وتحملت فيه الأمانة التي هي عهد الله وميثاقه الذي أخـذ على الملائكـة المقربين ، والانبيـاء والمرسلين ، والأوصياء الطاهرين ، والأئمة المنتخبين ، والحدود التابعين ، انك لتصونه غاية العناية ، ولتراعي فيه الامانة ، ولتتجنب الخيانة ، وتجعله لخلاص صورتك ، وانارة بصيرتك ، والله على ما نقول وكيل ·

نعود الى ما كنا فيه : فجميع أهل الشرائع من الأولين وفرق الآخرين ينتحلون في ذلك انتحالات ويرجمون أقوالا · فمنهم من يقول : ان الله سبحانه أبدع العقل الاول وحيدا فريدا لا ثانيا له ، وأن النفس الكلية انبعثت عنه على سبيل وجود الضوء من الضوء · ووجد عن النفس الكلية : الجد والفتح والخيال ثم الهيولى والصورة ، ثم الافلاك والبروج ، والاملاك والطبائع ، والأمهات والمواليد المتأخرات · وهؤلاء أهل التأويل المحض ، وينحو نحوهم من الفلاسفة ، وغيرهم من أهل الشرائع

(١) كنز الولد ـ يظهر ان المؤلف اصدر عدة ابحاث باطنيـة قبل هـذا الكتاب وقد تحمل الاتباع الامانة في الكتمان .

الظاهرة يقولون بالقلم ، واللوح ، واسرافيل ، وميكائيـل ، وجبرائيل ، وذلك حدهم من العلم •

ومن أهل المقالة من يرى أن في الابتداء خطيئة وقعت على بعض العالم الروحاني مثل الشخص الفاصل صاحب الرسائل نضر الله وجهه ، وأن تلك الخطيئة أوجبت الهبوط والتكثف • وفرقة تنفي الخطيئة ، وتقول التكثف من سبب نقصان النفس عن مرتبة العقل « وبعد الهيولى والصورة عن مرتبـة النفس والعقل » ، وجاؤا في ذلك بمثل ما جاء به أهل الظاهر ، باعتقادهم أن الله تعالى خلق آدم من طين على ما جاء في التنزيل ، ولا مخلوق معه سواه ، وخلق زوجته من ضلعه ، ثم تزاوج وأولد ذكورا واناثا ، وزاوج بينهمَ باختلاف البطون ، فأوقفوا على قدرة الله تعالى العجز والقصور في جميع الأمور ، باعتقادهم أنه قدر على خلق واحد من البشر ، فما المانع الذي منعه أن لا يخلق ما قد أراده معه ؟ فكان اعتقادهم ذلـك خداجـا شابوه بالجور والفساد ، فضلوا وأزالوا وأضلوا ، ببعدهم عن الطريق وميلهم عن أهل الحق والتحقيق ، لقوله : (فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (١)) • وقوله : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا (٢)) • وقوله لرسوله الكريم : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك (٣)) • وقولـه : (وعلمـك مـا لم تكـن تعلم (٤)) • وقولـه : (علمه شديد

---

(١) سورة النحل الاية ٤٣ وسورة الانبياء الاية ٧ .
(٢) سورة النحل الاية ٧٨ .
(٣) سورة العنكبوت الاية ٤٨ .
(٤) سورة النساء الاية ١١٣ .

القوى (١)) • وقوله : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين (٢)) •

فاذا كان الرسول الفاضل متعلما وله معلم ، وبينه وبين خالقه وسائط ، فمن أي جهة يقع العذر لأهل العمى والجهل عن العلم والتعليم والالتزام بالوسائط التي نصبها الرسول « ودل عليها بقوله » •

اني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، انه نبأني العليم الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كهاتين ، وأشار باصبعيه المسبحتين •

فأهل التأويل يمتازون عن أهل الظاهر بحقيقة ذلك بما أخذوه عن أهل بيت النبوة ، وكذلك أهل الحقائق يمتازون بمعرفة المبدأ الاول الروحاني عن أهل التأويل الذين ناسبوا أهل الظاهر في تأويل ما يعتقدونه في المبدع الاول ووحدانيته ، وانخال العجز على قدرة الخالق سبحانه في اقرارهم بأنه أبدعه لا من شيء ، فما المانع الذي حجز قدرته من أن يوجد ما قد شاء ايجاده ؟• فهذا بذلك أشبه ، ولا فرق بين العقول القاصرة ، والألباب الحدة ، يبعدهم عن المعلم الصادق ، وقلة وقوع بصائرهم على الحقائق ، أفلم يتدبروا قول من يقول العقل القائم بالفعل ، وان كل اسم واقع على مسمى ، فما هو اذا الفعل الذي قام به ؟•

---

(١) سورة النجم الاية ٥٣ •

(٢) سورة الشعراء الايتان ١٩٣ ، ١٩٤ •

قال سيدنا حميد الدين ق.س : فكان العقل ذا نسبتين : نسبة أشرف ، ونسبة أدون • فأما النسبة الأشرف فاضافته الى مبدعه ، وأما النسبة الأدون فنسبته الى ذاته ، فوجب بكون ذلك أن يوجد عنه اثنان : أحدهما قائم بالفعل عن النسبة الاشرف ، وأحدهما قائم بالقوة عن النسبة الأدون • « فبذلك وجب لما قام هذا المنبعث الثـاني بالقوة » أن يكون عـن المبدع الاول والمنبعث الاول عقول سبعة مجردة ، واحد عن واحد الى المنبعث الأول ، وذلك قوله • ونقول : ان الموجود عـن العقل الاول اثنان : وأن أحدهما أشرف من الآخر كشرف الوصي القائـم بالفعل ، القيم بجميع ما جاء به على ما تركه ، ومن كون تمامية دوره بأتماء سبعة ، وقيام كل منهم بنص من تقدمه صاعدا الى الأساس (١) • وفعل كل منهم في ركن من أركان الدين ، ودعائم الاسلام التي جاء بها الناطق لظهور الحكم والمعارف المضمنة تحته ، على أن الموجود عن العقل الاول ، والمنبعث الاول عقول سبعة ، كل واحد منهم عن الآخر صاعدا الى المنبعث الاول ، وأن نور كل منهم ساطع سار فيما وجد عن الاول ، مـن الهيولى والصورة •

فقد أوجب في هذا الفصل أن كل عقل من هذه العقـول المنبعثة ، واحدا بعد واحد ، الى المنبعث الاول •

ثم في الكتاب بعينه بفصل ينافي فيه هذا الفصل ، اذ لم يكن هناك معنى يؤيد القول عليهما ، ويصحح كل واحد منهم بحقيقته

---

(١) يقصد اساس الدور الجديد الذي يلي الامام الذي اتم الدور السـابق ونصب اساس الدور اللاحق .

على جهته . والا كانت الفائدة ضائعة ، وحاشا لذلك الحد الشريف أن يقول بما ليس له معنى يشده ويعضده ، وهو قوله نضر الله وجهه : ودار الابداع والانبعاث لا عائق فيها ، لخلوها من المواد التي تعوقها وتجردها عنها ، وكونها صورة محضة لا تتعلق بمادة ، ولا بها مادة فتحجزها عن الفعل (١) ، واذا كان لا عائق فيها ، فوجود موجوداتها لا بزمان بل دفعة واحدة مثل وجود اشراق بسيط الهواء عن ضوء الشمس لا بزمان ، واضاءة النار للبيت المظلم ، دفعة واحدة بلا زمان ، وكفعل الطبيعة في حركاتها تلك الافعال المرتفعة عن الزمان فيما تخرجه الى الوجود مثل الطلع الذي تخرجه بكمه وحباته وأعلاقه، في بدء أمره من الجمار معا على أصغر شيء هيئته من غير أن تقدم شيئا منه على شيء مما يتعلق بالكمال الاول ، وكالرمان الذي تخرجه من الجلنار بحباته وأقسام باطنه ، وقشوره على أصغر شيء صاغه ، وأرق شيء جسما من غير أن تخرج شيئا منه بعد شيء بل معا .

وقال أيضا : ثم يكون الابداع الذي هو المبدع الاول ذات الفعل الصادر عن المتعالي سبحانه وكونه قائما بالفعل ، لا قائما بالقوة ، فيكون بين كونه قائما بالقوة ، وبين قيامه بالفعل ، احاطته منه بذاته التي يتعلق بها وجود كل عقل منبعث تصور مدة وزمان يلزم أن يكون وجود الكل بوجود الابداع معا . واذا كان ذلك كذلك فوجودها بوجوده معا ، لا بزمان . فبهذه

---

(١) لانها مجردة بصورها النورانية المحصنة لا كثافة فيها ولا تجسيم ، ولا تحويها مكان ولا احتاج مبدعها الى زمان .

الفصول ينقض بعضها كما ذكرنا اذ لم يكن لكل فصل معي يثبته ويؤيد معناه ويشده ، ويبرهن ارادته ، والا لم يكن لقارىء كتابه محصول فائدة ينتفع بها ، وهو نضر الله وجهه ما وضع كل فصل في موضعه الا لمعنى من المعاني ، وقد أوجب في هذين الفصلين الآخرين أن وجود عالم الابداع معا • ونحن نبين حقيقة ذلك ، وحقيقة الفصل الاول • فحقيقته ان وجود عالم الابداع ظهر دفعة واحدة عن المبدع الحق تعالى لا من شيء ، أي لا من مادة تقدمت عليه ، ولا بشيء ، أي لا بآلة استعان بها عليه ، ولا في شيء ، أي لا في مكان طبيعي فيكون لها مستقرا ، ولا مع شيء ، أي لا مع غيره يشاكله ويساويه ، ولا مثل شيء ، أي لا مثل معلوم كان له نظير فيه ، أي لا لحاجة في زيادة ولا نقصان في ملكه ومشيئته فكان وجود الكل كما رمز به الحكماء ، ولوح به العلماء عنه تعالى بحرف الكاف والنون (١) ، فكان ما كان بلا معين ، ولا مشير ولا قرين ، لم يسبق أوله آخره ، ولا آخره أوله ، قدرة قدير ، لا يعجز عن الأمور والتقدير • فكان في حد واحد لا يفصل بعضه بعضا ، ولا يزيد بعضه على بعض ، بل متساوى ومتكافىء لا تغير فيه ، ولا تزايل ، ولا تباين (٢) ،

---

(١) في العرفان الاسماعيلي « كن » هي الكلمة القدسية التي ابدع اللـه تعالى فيها كافة الحدود وقالوا ان الكاف دليلا على السابق والنون اشارة الى تاليه ، اي الى التالي . ويقال لهما الاصلان العلويان يقابلهما في عالم الدين الناطق والاساس .

(٢) لانه هو التمام ، وهو التام على الحقيقة ، ويستحق ان يكون تاما لامتناع الوجود من نوع وجوده ، فان الشيء التام هو ما لا يوجد له خارجا عن مثل نوعيته ، لانه سرمدي الذات يستحق اسم الواحدية . والتباين : التفاوت لان التفاوت يلزم النقصان بالذوات الطبيعية التي تظهر عند اضافة بعضها الى بعض .

وذلك بميزان العدل ، وموجب الحكمة دفعة واحدة ، اشراقه وظهوره مثل حب التين الذي يلفه غشاوة ، وظهوره معا كما ذكر ذلك حميد الدين ، وضرب بحب الرمان والجمار من النخل المثل دفعة واحدة ، من غير تقدم لبعضه على بعض ٠

وقال في ذلك الشخص الفاضل صاحب الرسائل (١) : ان الأمور أوجدت دفعة واحدة ، لأن الله تعالى قدر أمر خلقه لما بدا بالقوة في دفعة واحدة ، وبالفعل بالتدريج حتى تكون نهايته تامة كاملة ، وبلوغه الى الحال الافضل ، والامر الاكمل ، وهذا هو الحق بأن ذلك العالم لما أوجد كان وجوده جميعه بالقوة التي هي الكمال الاول في درجة التساوي « لا اله الا الذي لا يوصل الا بحدوده الى معرفة توحيده ، وأهل الزيغ يتناهون في تشبيهه وتحديده ، وقال أيضا : اللهم يا من جل عن علة المحدود وعلا عن ذكره الموجود وخفي في وجوده وظهر في حدوده دل بما ظهر من الموجود في مبدعاته على توحيده » ٠

وقال في بعض خطبه : « وأشهد أن لا اله الا الذي من الحد في التساوي » في الحياة والعلم والقدرة التي فطروا عليها ، وأوجدوا على التشاكل فيها ، ولا يصح لأحد منهم الا الكمال الثاني بالفعل المؤدي الى ذلك ٠

وقد صورنا لك هذا الضرب في كيفية وجوده معا متساويا في الكمال الاول بالقوة ، ثم ظهور من ظهر منهم الى الفعل الذي هو الكمال الثاني ، يلوح له الحق المبين فلا يدخل على من تجلت

---

(١) انظر رسائل اخوان الصفا « الرسالة الرابعة في العقل والمعقول » .

قدرته في عدله الجور في اختيار شخص على شخص بغير علم ولا عمل ، وفي الخلقة الجسمانية ما يدل على المبدع الاول ، وذلك أن الشخص البشري يولد الكل منهم أطفالا جهالا لا علم لأحد منهم يفضل به على من سواه الا كما قال الله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا (١)) الآية ٠

فذلك العالم كان متساويا متكافئا من طريق العدل بالقوة في كمالهم الاول من حياة وعلم وقدرة ٠

وهذه الصورة مثلا مضروبا يهتدي بها « هذا التصوير » وقد جعلناه تقريبا للافهام في معرفة الابتداء ، لكونه الأصل الذي تتفرع منه العلوم كما قال مولانا القائم صلوات الله عليه (٢) :

معرفة الابتداء والانتهاء ، العلمان الجليلان اللذين تفرعت منهما العلوم ، والبناء لا يكون الا على الاساس الصحيح ٠وذلك أن عالم الابداع الذي صورنا كون ظهوره معا دفعة واحدة لم يسبق أوله آخره ، ولا آخره أوله ، متساويين متكافئين بميزان العدل ، وموجب الحكمة في الكمال الاول بالقوة ، في الحياة والعلم والقدرة ، بلا تفاضل ولا تباين ولا تغاير ولا تفارق ٠ اذ لو كان ذلك كان بالنقصان في القدرة ، وأما العجز في المشيئة، واما الجور في الخيرة ، وجميع ذلك منفي عمن جدت قدرته ، وعظمت مشيئته ، فكان وجودهم معا على سبيل النقط التي

---

(١) سورة النحل الاية ٧٨ .

(٢) يريد الامام الفاطمي القائم بامر الله الخليفة الثاني في المغرب (٢٨٠ — ٣٣٤هـ) .

جعلناها في الوسط على سبيل ما ذكرت الحكماء ، ومثلته بحب التين المجتمع في كل حبة منه ما لا يحصى • فلما كانوا على ذلك تحرك منهم واحدا من ذاته بذاته ، حركة فكرة وتميز وفطنة في كون ذلك العالم الروحاني النير الكامل في ذاته وظهورهم معا ، ولا ادراك له في كيفية وجودهم ، فهجمت به فكرته ، وقررت عنده فطنته ، أن لذلك العالم مبدعا أبدعه ، وموجدا أوجده بمشيئته وقدرته ، وانه لا يدرك ، ولا يحاط به ، ولا يشبه شيئا من صنعته ، وأنه يعجز عن ادراكه ومعرفته ، الا بوجود ما أوجده من عدم لا أصل له فنفى عن الجميع من عالمه الالهي ، وأثبتها للمتعالى سبحانه المحقق الذي لا شبه له ولا ند ولا ضد ، ولا مثل ولا مثيل ، ولا شكل • فنطق بالشهادة مفصحا ، وأعلن بها مصرحا ، كما جاء في الذكر الحكيم في قوله : (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (١) • فشهد له بالالهية ، والعزة ، والحكمة •

وقد جاء عن الشخص الفاضل صاحب الرسائل في الرسالة الجامعة قال : وأما الواحد الموصوف بالجلالة والعظمة المشار اليه بالوجود • وأنه مبدأ كل موجود ، يقبل فيض الجود واليه تنتهي الحدود ، فهو العقل الاول ومبدعه يجل عن صفة الواصفين ، ونعت الناعتين ، وانما يقال : هو لا اله الا هو ايمانا وتسليما • فهو القول في اثبات التوحيد ، ولذلك صار الأصل المعتمد عليه في كل شريعة ودين ، وذلك أن العقل الاول نفى عن ذاته الالهية ، وأثبتها لمبدعه فقال : لا اله الا هو ، فوحد

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٨ .

مبدعه وهو عقل ، بمعنى اثبات الوحدة المحضة بذلك ، لأن اتصال التأييد به متواترا لا يفنى ولا يزول ، بل متصل دائم وأبدا ، وذلك بسبقه ، ولذلك قال : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق (١)) • فهذا ما جاء عن الامام الفاضل أصدق كل قائل •

وكذلك جاء عن سيدنا جعفر بن منصور اليمن قس (٢) في مثل ذلك بقوله : الحمد لله مؤيد الحق ونصيره ، ومظهر الخلق بتقديره وتدبيره ، ومقسم الأرزاق بتقديره ، ومدحض الباطل ومبيده ، ومجري الفلك بتسييره ، ومضيء النهار بسناء نوره ، والدال على توحيده ببراهينه ، ومستعبد جميع عباده بحدوده الذين جعلهم بينه وبين خلقه سببا متصلا لا ينفصل ، وأعجزهم عن معرفته ، الا من سببه ، واحتجب بحجاب عظمته عن بريته ، ودل على نفسه بنفسه ، وتعمد يعظيم ربوبيته عن أن يدرك بحس ، ولا يعلم بلمس ، ولا يحيط بكنهه جن ولا انس ، ولا يشرك في ملكه أحد ، أبدع قبل أن خلق ، فتعالى عن التشبيه بما أبدعه ، بل أفاض عظمته وجلاله وسناء نوره وبهاء قدرته ، على ما أبدعه ، الذي نفى عن هويته الالهية ، وأقر لمبدعه بالوحدانية ، ولو لم يوقع النفي بذاته في ابتداء نطقه لما كان لأحد الى معرفة مبدعه سبيل ، ولا ثبت الاقرار ، فكان النفي تثبيتا بقولك : الا الله • فدل أن ثمة اله مبدعا للمبدع ،

---

(١) سورة النحل الاية ٩٦ .

(٢) جعفر بن منصور اليمن من كبار علماء الاسماعيلية وصاحب المؤلفات العديدة في علم التأويل وعلم الحقيقة ولد سنة ٢٧٠هـ ، عاصر ائمة من الخلفاء الفاطميين وتوفي في خلافة المعز لدين الله في المنصورية سنة ٣٤٧هـ وصل الى اعلى مرتبه من مراتب الدعوة الاسماعيلية .

فكان في نفي المبدع الالهية عن ذاته اثباتا لمبدعه ، وكان في اثبات الالهية بعد النفي سبب ظهور الخلق ٠

فكان المبدع خالقا تنزيها للمبدع وتعظيما لقدرته ، فكان الابداع من ليس ، والخلق من أيس ، تباركت قدرته ، وجلت عظمته ، فلا يعلم الا من حجابه ، ولا يؤتى الا من بابه ، ولا يطاع الا من أسبابه ، فهذا ما جاء عنه ٠ فحجابه هو المبدع الأول ، وبابه النهاية الثانية في عالم الدين ، وأسبابه الدعاة اليه في كل عصر وزمان ٠

وهذه البراهين الأربعة (١) : الاول منها عن حميد الدين الكرماني ، والثاني منها ما جاء به التنزيل المبين ، والثالث منها عن الشخص الفاضل صاحب الرسائل ، والرابع عن الداعي المؤتمن جعفر بن منصور اليمن نضر الله وجوههم جميعا ، ورزقنا شفاعتهم ٠ وذلك أنه لما فطن ذلك الحد الجليل لما هنالك في الابتداء الاول ، وشهد لمبدعه بالالهية ، كان ذلك أصل التوحيد ، وحقيقة التجريد ومعنى التنزيه ، وأس العبادة في التقديس والتسبيح والتمجيد ، وهو الفعل الذي أشير اليه بقيامه به (٢) ورسم به وأضيف خاصا اليه ، وهو أيضا كماله

---

(١) يريد الاقول التي استقاها من اربعة نصوص لها قدسيتها .

(٢) كل اراء علماء وفلاسفة الاسماعيلية في كافة العصور متفقة على ان المبدع سبحانه وتعالى لا قبل له ، فلا يتعلق بتوحيد الموحدين ، ولا بتجريد المجردين ، متخرج من ان يكون لا مثل له اذا لم يوحده الموحدون، او من نعوت مبدعاته ، اذا لم يجرده المجردون ، بل هو تعالى وتكبر وحد الموحد او لم يوحد ، وجرد المجرد او لم يجرد — لا مثل له — اذ لو كان لكانا اثنين .

الثاني ، الذي رمز به حميد الدين ، وهو الوحدة بذاته الأولى الحاملة ، وهو في ذاته فرد محض ، ومزدوج بالكمالين ، وكان المتكثر بذلك » بالأسماء والصفات المتناهية بالشرف والجلال وبذلك ، ثبت أن فعله هذا عن ذاته بذاته ، في ذاته ، لا بقصد عن مبدعه بقضية العدل وموجب الحكمة ، لا الاختصاص بغير علم ولا عمل ، ولا سابقة استحقاق جور ، فلما تم فعله ، وقبلت شهادته ، التي لم يسبقه بها أحد من أبناء جنسه ووقع حينئذ به الاختصاص والاتحاد ، فأشرق نوره وبان ظهوره ، وترادف سروره ، ووقع عليه اسم الالهية من حيث ولهه في مبدعه ، وحيرته في كيفية ابداعه ، وأيضا بوله من دونه في جلالته ، فوجب له اسم السبق بسبقه الى التوحيد المحض ، واستحق اسم الأحدية والواحدية ، بتوحيده بالأولية ، وسمي بالكلمة (١) ، لنطقه بكلمة الاخلاص من دون غيره ، ووجب له اسم الامر ، لما تم وكمل في عبادة مبدعه ، فصار بذلك أمره الأول ووجب أن يكون مشيئته وقدرته ، وارادة في ذاته بذاته ، لما نظر وقدر ، وفكر وأقر بالحق الأنور ، وسمي حقا باستحقاقه للفضل والعطاء والجزل ، وسمي موجودا بتصوره لما يبقيه ويؤزله ، وسمي كاملا وتاما ، بكلامه وتاما بكماله ، بما هو حياة العالم ، وكمالهم وتمامهم بسببه ، وسمي عاقلا وعقلا

---

(١) الكلمة تعني بالعرفان الاسماعيلي أمر الله الذي عبر عنه بالحرفين (كن) ليعلم انه علة جميع من يوجد فيه قيام الزوجية ، فليس شيء الا والزوجية فيه موجودة ، لذلك فلا شيء خارج من ان يكون الامر علته . وهذه الكلمة من جهة الاشخاص الطبيعية بلغت الى الاساسين اللذين احدهما صاحب التاليف والحركة ، والاخر صاحب التاويل والسكون اي الناطق والامـــام .

ومعقولا ، لعقله ذاته عن فكرة سابقة الى غير ما فكر فيه ، وفطن به ، وعالما لعلمه بما هو العلم كله ، والعمل كله ، ووجب له اسم الحياة فكان هو الحي والحياة ، الأولة التي أوجد بها صنعته ، فعليه الاسماء والصفات وقفت وحصرت ، وبأشرف ، وبه شرفت ، وهو مركزها وعليه دارت ٠

فهذا حقيقة فعله وقيامه به ، واستحقاقه لجميع ما استحقه بسببه ، والا ضاعت الفائدة وجور « مبدعه ودخل عليه العجز لو لم يكن ذلك كذلك » وبذلك استحق اسم الابداع لا من شيء أي لا من معلم ، ولا ملهم ، ولا مشير ، بل من ذاته بذاته ٠

وقد أوضح ذلك سيدنا المؤيد في بعض خطبه بقوله :
فهو الساكن من حيث أنه استوى على عرشه في الكمال والتمام المحرك ، شكرا لما وصل اليه من مبدعه من الانعام ، أحمده ، اذ حمده مكون الاكوان المنبعث منه مخترع الزمان والمكان ، حمدا ضرورة عجز العبودية تحسنه ، وان كانت حركة الوهم تهجنه ، فقد أشار الى حركة الوهم ، وهو الحمد الذي عنه تكوين الاكوان ، والذي انبعث عنه المنبعث الثاني القائم بالقوة الذي اخترع الزمان والمكان ، بما نبينه في موضعه ان شاء الله تعالى ٠

قال حميد الدين ق س : وهو ذو نسبتين : نسبة أشرف باضافته الى ما عنه وجوده ٠ ونسبة أدون باضافته الى ذاته ، ولم يفصل المعنى في ذلك ، وأوجب أن يوجد عنه اثنان بسبب

هاتين النسبتين ، وليس ينسب الى ذلك الحد الجليل دناءة بتشريف الله له وتعظيمه بما استحقه من الفضائل بسبقه ، وانما معنى النسبة الاشرف من النسبتين هو تسبيحه ، وتقديسه ، وتوحيده ، وتمجيده ، للمتعالي عليه سبحانه ، وهو الاضافة له اليه هذه العبادة العلمية والعملية • فالعلمية ما هجم عليه من الهية مبدعه ، والعملية شهادة بما شهد به أول عمل مقبول بما هو أصل التوحيد والعبادة ، كما قال تعالى : « الا من شهد بالحق وهم يعلمون (١) » وقال : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٢) » وقال : « والسابقون السابقون أولئك المقربون (٣) » • فهذه هي النسبة الأشرف للمبدع الاول المخصوص بالالهية ، المعروف اليه تأييد العالم وتكوينه وتصويره (٤) •

ذكر الله عز وجل في محكم كتابه بتسميته في آية واحدة بأربعة أسماء تدل على عظمته ، بقوله : « هو الخالق البريء المصور له الأسماء الحسنى (٥) ، الآية » •

وأما النسبة الأدون المضافة الى ذاته ، فذلك أنه لما فكر أولا فيما قد ذكرناه ، وفطن بالهية مبدعه فشهد بما شهد به ،

---

(١) سورة الزخرف الاية ٨٦ .

(٢) سورة الزمر الاية ٩ .

(٣) سورة الواقعة الايتان ١٠ ، ١١

(٤) يريد تصويره عقليا في المستفيد ليستمد من رحيقه العرفاني الحقيقي السرمدي الذي ينقله من حد القوة الى حد الفعل .

(٥) سورة الحشر الاية ٢٤ .

واستمر بصدق نيته ، وحسن طويته ، في التقديس والتسبيح والتعظيم ، بفرح وسرور ، وجذل وحبور ، وغبطة بما حصل له من ذاته بذاته في ذاته ، بما هو عين كماله وتمامه ، وجد عنده من التأييد والبركة والنور بفعله ، خطر في باله عجبا زاده رفعة وشرفا من أبناء جنسه ، اذا لم يفطنوا بما فطن به ، ولم يسارعوا الى ما وقع عليــه ، فعلم أنــه بذلك يشرف عليهم ، ويفضلهم مفتخرا به معجبا ، وهو ما ضربه حميد الديــن في المسرة ، فكان هذا الوهم الثاني هو النسبة الأدون ، ولم يقع عليها اسم الأدون الا بسبب أنها صورة حدثت مع تلك الصورة الشريفة ، ومن ذلك أن كثيرا ممــن ينتحل العلم والحكمــة يعتقدون أنه سها أو غفل ، أو ادعى ، وهو يجل عن ذلك ويتكبر ٠ بل هو وهم يزيد في شرفه ، ولكن قد اشتركا في هاتين الصورتين ٠ فهذه « هي الصورة النسبة الأدون » المنسوبة الى ذاته ٠ وانما مثل ذلك مثل رجل حضر وقت الصلاة الى مسجد فيه جماعة من المصلين وهو أفضلهم وأعلمهم وأقومهم ، فتوجه في صلاته ، ولم يقم أحد منهم لقيامه ، فاستمر في صلاته ، وفي توجهــه وتكبيره ، وقراءته وركوعه وسجوده ، فلحقه في وهمه وضميره العجب منهم ، ومن تخلفهم عن الصلاة في وقتها ، وعن قلــة اتباعهم له ، اذ لم يقتدوا به ، فخالطوا ما ليس بخطأ ٠ بل قد صارت الصورة صورتين : فصورة هي الصلاة ، وهي أشرفها ، وهي المقبولة ، والثانية ما خطر بباله مما ليس هو ملزم به ٠ قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم (١) » ٠ فهذا هو المعنى في النسبتين ، وهو

---

(١) سورة المائدة الاية ١٠٥ .

الحد الفاضل ، الكامل ، الاول ، القديم بتقدمه الأزلي بتأزله اليه الفعل فيما دونه ، ولما فعل في ذاته م [illegible] يه وعلا • قال الذكر الحكيم في صفته ، وصفة تابعيه من بعده ، بما نذكره في موضعه : « سبح لله مـــا في السموات والارض وهـــو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير (١) » • « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم (٢) » • « هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض ومـــا يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير (٣) » • « له ملك السموات والأرض والى الله ترجع الأمور (٤) » • فهذه الآيات تختص به دون ما سواه •

قـــال سيدنـــا حميـــد الديـــن ق س : ان الاشيـــاء لا تزال ترتفع عـــن الكثرة تحليلا الى مـــا منـــه وجدت ، الى أن تنتهي الى واحد ثابت هو علة لجميعها ، وبه قوامها ، فيكون ذلـــك الواحد المتقدم الرتبة وجوده لا بذاته ، بل هو في ذاته فعل عمن لا يستحق أن يقال انه فاعل ، وهو مفعول لا من مادة ، وهو فاعل لا في مادة هي غيره • وانما قلنا انه فعل في ذاته ، لكونه أول موجود ، فقد بيَّن أنه فعل في ذاته لا من مادة ، وهو ما ذكرناه ، وفاعل لا في مادة هي غيره ، وهو ما يصور به تابعيه على مـــا

(١) سورة الحديد الايتان ١ ، ٢ .
(٢) سورة الحديد الاية ٣ .
(٣) سورة الحديد الاية ٤ .
(٤) سورة الحديد الاية ٥ .

نبنيه في موضعه • وقال في فصل ثان : فالموجود الاول أصل اليه ينتهي كل موجود • فقد بيَّن أنه علة لغيره ، وأنه تام في فعله ، وكما صار الناطق وجوده ناطقا لا من جهة من كان من جنسه من البشر ، صار الموجود الاول لا عمن هو من جنسه ، فقد صرح أنه من عالم مثل ما الناطق من جنس البشر (١) • وقال أيضا : فان الصفات والمعاني ، تلحقه بالاضافات ، مثل الحالتين الأولتين بهما الكمال الاول الذي به يتعلق وجود الذات التي هي الموصوف ، والكمال الثاني الذي به يتعلق وجود شرف الذات التي هي الصفة • فالكمال الاول مثله كالكامل ، والكمال الثاني كالمحمول بيانه ، وهما من تلك الذات كالفردين اللذين بهما وجود الواحد الذي يجمع وحدة ، وما بها صارا واحدا جميعا ، وهما فردان ، ذلك بأن يكون جامعا للوحدة والكثرة على نظام يبرأ من آية التغاير الموجب وجوده كون ما عنه وجوده على أمرين • صار كل منهما لوجود كل منهما سببا ، فيصير كونه على ذلك موجبا ما يتأول عليه ، بريئا من آيات توجب رتبة وراءه ، وهو واحد بالذات ، كثير بالاضافات (٢) ، مثل كونه ابداعا اذا أضيف الى ما عنه وجوده ، وكونه مبدعا اذا أضيف الى ذاته ، من غير أن تكون هذه الاضافات داخلة على ذاته بالتغاير ، والكمالان اللذان هما له كالفردين من ذات المبدع

---

(١) نجد ان المؤلف هنا يعمد الى تطبيق نظرية المثل والممثول والظاهر والباطن معتمدا في بحثه على ما ورد في كتاب راحة العقل للكرماني في المشرع الثالث من السور الثالث فيذهب الى ان الناطق في التنزيل اي الرسول النبي ماله مثل الموجود الاول او العقل الاول او السابق في عالم الابداع.

(٢) لانه هو مذهو فرد ، وكونه فيما هو فرد لامتناع وجود مثله لانه واحد بالذات . وذاته مزدوجة بفردين .

مبدعان ، يستحق كل منهما من حظ الابداعية ما يستحقه الآخر ، وذلك أن الكمال الاول الذي يجري مجرى الكامل مبدع، كما أن الكمال الثاني مبدع ، وهما من جهة الابداع بكونهما ابداعا فردا واحدا ، ومن جهة ذات المبدع فردان بكونهما مبدعين كمالا أولا ، وكمالا ثانيا •

فهو نضر الله وجهه قد بيَّن في هذا الفصل الكمال الاول الذي هو ذات الابداع المشار اليه بالحياة ، والكمال الثاني هو فعله الذي تصوره من شهادته لمبدعه ، فصارت ذاته الأولة التي هي الكمال الاول حاملة ، والصورة التي هي كماله الثاني محمولة ، وهما فردان مزدوجان ، وهما من جهة كونه مبدعا فردا ، ومن جهة كونه ابداعا فردا ، فقد لاح حقيقة الحامل والمحمول ، والكمال الاول والكمال الثاني ، فالكمال الثاني فعله الذي حدث من ذاته بذاته ، بغير قصد من موجده •

وبرهان ذلك أن الانسان بحياته التي هي أصل وجوده المنمية لجسمه هو الكمال الاول • فاذا اتصل بالعلم والحكمة ، من قبل أولياء الله الذي هو له صورة ، كان له كمالا ثانيا ، وحياة قديمة محيية لتلك الحياة الطبيعية ، فهما فردان من جهة انهما مخلوقان ، وفرد من جهة أنهما قد صارا شيئا واحدا •

وكذلك سئل سيدنا حميد الدين : هل عالم الابداع تكليف ؟ فقال : التكليف على وجهتين : تكليف مطلق ، وهو تكليف الاجرام والافلاك على جريانها • وتكليف غير مطلق ، هو عبادة البشر ، ليصير من جهلة ونقصه الى غاية الشرف ، وعبادة العقل الاول لمبدعه ، هو نفي الالهية عن ذاته ، واثباتها لمبدعه ، من جهة الاقرار به ، والخضوع له ، والابتهال اليه والتسبيح .

والتقديس لا من جهة الادراك ، فهو قبلة القبل وميزان العدل في التوحيد ، وامداده لما دونه دائما ، فلو انقطع لحظة ، لفسدت السموات والارض ، ولبطل التوحيد ، وعطلت الحدود ، ولصار أمر العالم الى الفناء ، وليس للافادة عنه عمل نوره ، وضياؤه الثواب للمؤمنين ، وناره العذاب للجاحدين · وقال أيضا : والابداع الذي هو المبدع بكونه عين الكمال متجالل عن أن يكون ناقصا فيرجع الى ذاته نقصانه ، أو الى من وجد عنه ، فاذا كان متجاللا فهو دائم لا يستحيل (١) ·

ثم أن الإبداع الذي هو المبدع الاول لا يجوز أن يكون له مثل في الوجود بنوعيه فيكونا اثنين ، اذ ذلك يوجب انقسام ما وجد عنه بضرب من الانقسام ، حتى وجد عن كل قسم ما أوجبته نسبته ·

فقد بيّن أنه لا يكون ناقصا فيرجع نقصانه الى ذاته ، ولا له مثل في الوجود ، يعني في التصور الذي تصوره ، والفعل الذي قام به وسبق اليه ، فسمي بذلك قديما ، بتقدمه على أبناء جنسه ، الى ذلك · وأزلي الغاية بوجوب البقاء السرمد ، والحياة أبد الآبدين بتوحيده لمبدعه ، واقراره بالالهية بلا واسطة ، ولا مادة ، ولا وحي ، ولا افادة ، وبذلك أيضا أوجب الله تعالى لمن وحد ما وحده ذلك الحد الجليل ، ولم يشرك به ، عرف شرف هذا الحد الجليل بحقيقة معرفته ، وتوجه به الى من جلت قدرته ، وعرف الحدود ، ونزل كل حد في حد الأزلية والبقاء

---

(١) ولا يتشبه به في الدوام والتسرمد والتازل ، لان الاستحالة ضرب من الفساد لنقصانه ، المشرع الرابع من السور الثالث من راحة العقل .

والسرمد ، وكانت نسبته الى موجده ومصوره ، وكان في تصوره كعين ما تصوره (١) • وذلك الحد الجليل ذاته ذات أمور عشرة : أولها أن يكون حقا أولا بوجوده عن المتعالي غاية تنتهي اليها الموجودات في وجودها ، يعني في تصورها ما تصوره ، وهو حق بما جرى له من ذاته ، من الفطنة الحقيقية • والثاني ، أن يكون موجودا أولا • والثالث أن يكون واحدا بتوحده ، بما توحد به من التوحيد ، فاشتق له من توحيده اسم الواحدية • والرابع ، أن يكون تاما بتمام صورته • والخامس ، أن يكون كاملا بكماله هذا الثاني • والسادس ، أن يكون أزليا ، بما وجب له من البقاء بفعله المقبول • والسابع ، أن يكون عاقلا ، بما عقل به أنه مبدع مخترع ، والثامن : أن يكون عالما ، بعلمه من ذاته بذاته ، ان المبدع الحق حق لا يشبه بشيء من مخترعاته ، وانه يتعالى عن صفات موجوداته • والتاسع : أن يكون قادرا بما خصه مبدعه من القدرة على فعل ما دونه في جميع حالاته • والعاشر : أن يكون حيا ، والحياة صفته بتوحيده أولا بالكمال الثاني الذي هو المحيي للعالم بأسره ، وذلك يصححه قوله : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم (٢) » • فهذا الخطاب الى المؤمنين أحياء ، وذلك أنهم آمنوا بالله وأطاعوا رسله فكانوا بذلك مسلمين مؤمنين بالاسلام،

---

(١) كل هذه المناقشة للاثبات بأن الناطق الذي هو من عالم الدين مبدأ لدوره ، به يتعلق وجود من سواه وانه ثابت كامل على ما به اعطي كاملا يطابق ذلك في عالم الابداع في كونه كاملا ازليا لا يستحيل عما عليه وجد ، وكونه واحدا لا يشاركه في رتبته غيره ولا يماثله في رتبته سواه .

(٢) سورة الانفال الاية ٢٤

أي مصدقين ، فلما خوطبوا باجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ما يحييهم حياة حقيقية محيية لاسلامهم ولأنفسهم ، وذلك اشارة الى دعاء الرسول لهم الى طاعة وصيه (١) والقبول عنه عند النص عليه • مصداق ذلك لقوله تعالى يوم النص : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا (٢) » • فكان من أطاعه الى ما دعا اليه ، ودل عليه ، حيا وناطقا ، وقائما بالفعل ، وبشرا وانسانا بالحقيقة ، وكاملا ، وتاما ، وقادرا ، وعالما وعاقلا ، وأزليا ، وموجودا ، وموحدا ، وحقا • ومن تكبر وعصى وعتا ، كان بالضد من ذلك • والنطقاء والأوصياء والأئمة هم النهاية الثانية يستحقون بصفاء جوهرهم ، وانارة بصائر ذواتهم ، ولطف صفاتهم وما تستحقه الذوات الابداعية ، وكل حد من ذلك العالم مقابل لحد من حدود الدين ، ولهؤلاء الحدود الثلاثة كمال أول هو ظهورهم بالقامة الألفية ، والكمال الثاني قبولهم لما اتصل بهم من المواد الالهية ، والتأييدات القدسانية •

قال سيدنا حميد الدين ق س في صفة الأول : فهو الحق وهو الحقيقة وهو الوجود الاول والموجود الأول وهو الوحدة ، وهو الواحد ، وهو الأزل وهو الأزلي ، وهو العقل الاول ، وهو المعقول الاول ، وهو العلم ، وهو العالم الاول ، وهو القدرة ، وهو القادر الاول وهو الحياة،

---

(١) يريد بذلك ان الرسول الملهم عندما اوصى بان يقوم مقامه بخلافة المسلمين الدينية والدنيوية وصية امير المؤمنين علي بن ابي طالب تلميحا واشارة ورمزا في عدة مناسبات او عدة بيعات لم يقبلوا ذلك وانكروا كل رمز يشير الى صاحب الحق الشرعي ، بموجب النص من الله تعالى.

(٢) سورة المائدة الاية ٣ .

وهو الحي الاول ، ذات واحدة تلحقها هذه الصفات ، وهـذا الفصل بيان ما شرحناه ، وأولناه ، وفصلناه ٠

وقال : ثم ان الحياة هي القابلة لما يليق بها بحسب مراتبها في الوجود في كمالاتها ، فان كان وجودها وجودا أولا كالابداع ، فكمالها الثاني تابع وجوده وجودها معا ، اذ ليس يتقدم عليها شيء ٠ فيكون وجودهما كمالا أولا ، واحاطتها بالذي تقدم عليها كمالا ثانيا ٠ بل ذاتها أقدم من كل قديم وهو في بهائه ، وكماله ، وجماله ، ومسرته بذاته أعظم من أن ينال بوصف ، وانه ممتنع احاطته بما هو خارج عنه ، الذي عنه وجوده ، وأنه مشتاق الى ذلك متحير فيه ، وأنه الاسم الاعظم ، والمسمى الاعظم ٠

ولما كانت الهيبة والبهاء والقدرة والكبرياء ، والعظمـة ، والسناء ، والمجد ، والعلاء ، والبهجـة والضياء ، والغبطـة والمسرة ، للأشياء كلها ، في كمالها الثاني ، وكان القيام الثاني للأشياء اما بجوهرها ، وأما بأعراضها ، وكان كمال ما يكون كماله في أعراضه مثل كمال الملوك بما هو لهم في ممالكهم الذي هو في رجالهم وعسكرهم ، وأموالهـم وزينتهـم ، وجمالهـم وسياستهم ، ومسرتهم وغبطتهم ، بهذه المنزلة على الغايات التي تبهر الانفس ، وكان البهاء والمجد والمسرة والاغتباط للذي يكون كماله الثاني بجوهره أعظم من ذلك ، ولما كان المبدع الاول الذي هو الموجود الاول كماله الثاني بجوهره لا بشيء هو غيره ، كانت جلالته وعظمته وقدرته وكبرياؤه ومجده ، وغبطته ومسرته بذاته على حالة يقصر الوصف عنها ، وتفوق المسرات التي عندنا ، وذلك بأن الاشيـاء المتناهيـة في الشرف في دار

الابداع ، المفارقة للأجسام هي مجامع الغايات ، والاغتباط والمسرات • الى قوله : ثم ان المبدع الذي هو الموجود الاول لو لم يكن علة لوجود ما سواه لما كان للموجودات وجود • فمراده بأنه علة لهم بتصويرهم وتأييده لهم ، وامداده اياهم بكونه بذلك خالقا وباريا (١) • ومصورا بالكمال الثاني لعالم الابداع ، ولعالم الخلق جميعا بالكمالين جميعا • وبرهان ذلك قول من جلت قدرته مخاطبا لواحد من أصحاب رسوله الكريم : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك • في أي صورة ما شاء ركبك (٢) » •

وهذه الاشارة بالربوبية من قبل التربية الى الرسول ، وبالخلق والتعديل للصورة العلمية ، فذلك كذلك • وقال سيدنا حميد الدين ق س (٣) : ولما كان لا عائق للمبدع الاول عن العقل بتمام قدرته لا من خارج بشيء تقدمه ، ولا من ذاته بمادة تعوقه ، كان المبدع الاول الذي هو الابداع علة لوجود الموجودات ، الى قوله : ولما كان المبدع الاول هو الحي الاول ، ولا يكون حيا ما لا يفعل ، كان المبدع فاعلا • واذا كان فاعلا والفاعل علة لوجود مفعوله ، فالمبدع الاول علة لوجود ما سواه • فهو المحرك الاول والعلة الأولى •

وهذا الفصل قد أوضح أن له فعلا أولا استحق به ما

---

(١) جاء قول الكرماني في المشرع السابع من السور الثالث هكذا :« ثم ان الابداع الذي هو المبدع السابق على كل شيء في كل شيء لو لم يكن علة لوجود ما سواه ، لما كانت للموجودات وجود » .

(٢) سورة الانفطار الايات ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٣) انظر السور الثالث المشرع السابع من كتاب راحة العقل .

وصفناه • وفعلا آخر فيما دونه بقوله : المحرك الاول ، وذلك بدعائه لهم • مثل الرسول لما طرقه التأييد كان فاعلا من دونه محركا لهم بدعوته الى توحيد الله تعالى وعبادته • وقد أوضح سيدنا حميد الدين ق س حقيقة ذلك بقوله : فالأول محرك لجميع المتحركات الى ما يكون فيه القيام بتسبيح خالقها (١) ، وان الكمال الذي هو له ، هو السبب في تحريك غيره بكونه المتقدم في الحركة من ذاته بذاته الى ما وصل اليه ، واتصل به ، فهو القديم دون غيره بذلك • كما جاء عن سيدنا حميد الدين ق س : « من الزاهرة في الفصل الثاني في عين المسائل » فاذا كنت تريد بقولك أن القديم هو الله الباري تعالى فغير مسلم لك هذا القانون ، للفساد الذي يتضمنه هذا القول ، لأن القديم من الاسماء التي يسميها العلماء المضاف ، وهو اسم واقع على شيء مقترن بشيء آخر هو متقدم عليه ، وذلك متأخر عنه ، ولولاه لما استحق أن يقال عليه قديم ، والباريء كان ولا شيء ، واذا كان ولا شيء فلا يستحق أن يقال عليه القديم الذي يفيد بمعنى من المعاني شيئا ينجر في الوجود معه شيء آخر فيكونا معا • ثم ان القديم اسم ، وهو دال على شيء متقدم على شيء ، ولا يخلو هذا الشيء الذي تقدم على الاشياء اما أنه هو الباري تعالى كبرياؤه عن ذلك ، أو هو غيره ، فان كان غيره فاسم الغير المفيد من المعنى أنه ليس باله اطلاقه على الاله الحق من المحال ،

---

(١) لانه الموجود الاول والمحرك الاول والعلة الاولى لا يحتاج في اصدار الانفعال الى غيره لكماله اذ فعله في ذاته ، وذاته لذاته مادة فيها يفعل . وذاته صورة بها يعمل ، وما يكون وجوده هذا الوجود فلا يحتاج الى غيره في الفعل .

وان كان هو الله تعالى فبوجود أشياء هي غير الله يلزم أن من الشيء ما هو الله ، ومنه ما هو غير الله . واذا لزم ذلك أن يتقدمهما ما يجري منهما مجرى الجنس ، وكون الله تعالى المخبر عنه بأنه متقدم على الاشياء في تعاليه عن سمة العقليات وصفة الحسيات بخلاف ما يوجبه نص الخبر ، دليل على أن الخبر الذي يؤدي أنه قديم كذب وباطل ، واذا كان باطلا وكذبا ، بطل أن يكون شيئا ، واذا بطل أن يكون شيئا ، بطل أن يكون قديما ، أو محدثا . وان أردت غير ذلك ، فنقول : ان القديم شيء ، والمحدث شيء ، والاشياء في وجودها على ضروب ثلاثة : منها ما يكون سابقا في الوجود ، فهو متقدم لا يتأخر كالعقل عليه أنه قديم (١) . ومنها ما هو متأخر في الوجود فهو متأخر لا يتقدم كالطبيعة المقول عليها أنها محدثة . ومنها ما يكون تارة بالاضافة الى ما فوقه متأخرا ، أو تارة بالاضافة الى ما هو دونه قديما كالعقل الثاني . وتقدم هذه الاشياء وتأخرها لا تقدم زماني (٢) . بل في الرتبة ، وكلها واقعة تحت اختراع الذي لا تلحقه الأوهام ، ولا تنبىء عنه الأقلام ، تعالى الله ، وتكبر

---

(١) يريد بقدمه اي وجوده الازلي لوقوعه من جهة الابداع الثاني وكونه عقلا ، واذا كان ازليا فمحال انتقاله عما وجد عليه اولا ، والعقول في دار الطبيعة منبعثة انبعاثا ثانيا .

(٢) من المحال حسب المفهوم العرفاني الاسماعيلي ان يتقدم الثاني في الشرف على الاول والذي اشار اليه المؤلف ، من صفات ما يكون متأخر الوجود الذي يحتاج في خروجه الى الفعل ، والى ما هو قائم بالفعل ، فالعقل الاول عقل قائم بالفعل ، وكذلك الثاني ، وما يتبعه مما هو مفارق للمواد من العقول ، ولا يجوز اعتقاد ما يلزم موجودا من دار الطبعة ، ويختص بها فيما هو خارج عنها من الحدود العالية .

عما يقول الظالمون علوا كبيرا • وهذا الفصل بين ان اسم القدم ، واقع على هذا الاول ، لكونه موجودا وشيئا تقدمه ، فاستحق اسم القدم بتقدمه على هذا الشيء الذي تأخر عما تقدم اليه هذا المتقدم ، ونفى عن الله تعالى الباري اسم القدم ، اذ كان ولا شيء ، فقد أسفر معنى الكلام فيما ذكرناه •

وقال أيضا مصرحا مفصحا في بعض رسائله : فلا يقال على المتعالي ما يقال على الأمر الذي هو أول موجود عنه أنه فاعل ، ولا أمر مبدع ، بل نقول على سبيل الافهام وهو أدق مـا في امكان العقل اثباته في انية غير موصوفة خارجة « عن ذاته هو فقط اذا كان لفظ هو منه دالا على ما كان خارجا عن ذاته ولفظ هو وان كان واقعا على المبدعات باشارة بعضها به الى بعض مما هو خارج عنه من أسباب وجوده أو غيره فليس » للناطق بد عند النطق من استعادته واستعماله ، فهو الذي يوجد عنه الفاعل ، والأمر ، والعال ، والمبدع سبحانه حتى يكون ذلك الفاعل والآمر والعال والمبدع الذي هو العقل بكونه علة ومعلولا ، وجوده في ذاته ليس الا عنه الذي هو خارج عن ذاته تعالى وتكبر ، وبذلك نطق الكتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (١) » • وقوله حيث يقول جل من قال : « شهد الله أنه لا اله الا هو (٢) » • يعني أن الله الذي قد أله فيما هو خارج عنه ، عن موجده ومبدعه تعالى ، فتحير ووله اليه ، فاشتاق الذي هو العقل الاول لأن يـدرك

---

(١) سورة فصلت الاية ٤٢ .
(٢) سورة آل عمران الاية ١٨ .

الاشياء كلها ، ويحصلها بماهيتها وهويتها ، وعلى ما هي به ، ويتصورها فلا يأله فيها ولا يأله اليها ، ولا يتحير ، ولا تغرب عنه ، ولا يلحقه من ادراكها عجز ولا قصور ، الا فيما أشار بقوله : « الا هو الذي خارج عنه ، وعنــه وجوده تعالى الله وتكبر • أي أقر العقل عند الألوهية والتحير ، والوله والشوق ، الذي له الى مبدعه » ، وهو قوله : « شهد الله أنه لا اله الا أي لأوله ، ولا الهانية » ، وهو قوله : « أنه لا اله الا فيما هو هو أي خارج عنه وهو قوله » الا هو ، فلا اله الا هو سبحانه وتكبر عما يقول الظالمون ، علوا كبيرا •

فالأمر الاول الذي هو كونه كلمح البصر ، وهو المأمور الاول الذي لا يتغير ولا يستحيل عما هو ذاته ، والمعلول الاول الذي وجوده من ذات العلة التي هي هو ، فتصير العلة من جهة (١) ذاتها معلولة ، ومن جهة ما هو عنه وجودها علة ، ومن جهة ما يوجد عنه عالا • فالأمر هو علة البدء ، فهو من جهة ما وجد عنه أمر ، ومن جهة ما عليه كان وجوده مــن الامتناع عــن الاستحالة والتغير مأمور • ومن جهة ما يظهر منه دونه أمر ، من غير أن يكون الأمر في ذاته غير المأمور ولا المأمور في ذاته غير

---

(١) للكون ما وجوده عن الله سبحانه وجودا اولا ذاته غير ذي غير بكونها عين الفعل الذي هو اول وجود عنه تعالى ، وذات الفعل الذي واحدة لا ذاتين ، واذا لم يكن وجوده وجودا اولا وجب ان يتقدم عليه فــي الوجود غيره ، فكان لو كان العقل جسما لتقدم عليه في الوجود غيره ، وبطل ان يكون شيء يتقدم في وجوده على العقــل الاول اذ هو ذات الفعل الذي هو العلة والابداع وليس وراءه الا الله المبدع الذي عنه وجــوده .

الأمر • بل ذاك هذا وهذا ذاك ، اذ ليس هنا كثرة بالذات ، بل بالمعاني ، وذلك عبارة عن العقل الاول •

فالعقل الأول وجوده أول ، ولا يجوز أن يكون في الوجود مثله ، أو في مكان توهم أن يكون وجوده عن الله تعالى بوجود شيء آخر شاركه في الوجود معه بكونه فعلا له تعالى ، وكـون الفعل عنه صدوره عن الفاعل ذاتا واحدة • وفي هذا الفصل بيَّن فيه شهادة العقل لباريه بالالهية ووقوع اسم الالهية على هذا الشاهد المذكور في الآية على ما ذكرناه وبيناه •

وقال أيضا في راحة العقل : ولما كانت الموجودات موجودة ثبت أنها مستندة في وجودها الى ما يباين الموجودات ، فلا يناسبها في شيء مما لها ، لا في كثرة بالذات ، ولا بالمعاني ، ولا في قلة ، ولا في شيء من الاشياء المقولة على الجواهر والأعراض الذي بيناه أنه ان لم يكن كذلك استحـال وجود الموجودات • واذا كانت الموجودات وجودها عمن لا يحتمل قلة ولا كثرة ، ولا صفة من الصفات ، وكان الموجود الاول غير متكثر بالذات ، ولا جائز أن يكون كذلك ، وجب أن يكون شيئا لا يكون من ذاته ما لا يشبه شيئا منها ، بل محضا كلا فردا واحدا أحدا من جهة وجوده عن المتعالي سبحانه •

ولما كان الموجود الاول فردا أحدا على ما تقدم الكلام عليه لم يجز أن يكون الموجود عن هذا الفرد الأحد الموجود أولا فردا واحدا بكون هذا الموجود الاول شاغلا مرتبة الواحدية فسبقه في الوجود اليها ، وكونها له حقا • ولما لم يجز كان الموجود عن الفرد الأحد الواحد زوجا الذي هو مرتبة ما يوجد بعد الفرد

مقابلا لما عليه ذاته من النسبة التي لها بالاضافات لا بالذات على ما بينا فيما سبق ، فبذلك يصح بأن العلة في وجودها ما وجد عن المبدع الذي هو الموجود الاول لا من جنس واحد سبحانية المتعالي سبحانه عن مرتبة الواحدية والأحدية التي هي آية اختراعه ، وخلوصها للموجود الاول بالابداع الذي يوجب بكونه بأن يكون ما يوجد عنه لا من جنس واحد فيكون واحدا ، بل من جنسين متغايران بالذات ليكون اثنين بحسب النسبتين اللتين هما يختصان بعلتهما على ما قدمنا القول والكلام في بابه (١) ٠

ولو كان الموجود عن المبدع الذي هو الموجود الأول واحدا ، لاقتضى أن يكون ما وجد عنه الذي هو الموجود الاول هو المتعالي عن الواحدية والأحدية والأولية ، الذي يكون الموجود عنه واحدا أحدا أولا ٠ فلما لم يكن كذلك كان زوجا ، فلما كان زوجا وجب أن يكون لكل من الفردين اللذين بهما ذات الزوج ما يباين به صاحبه ويغايره لتثبت الاثنينية والا فلا فرق ، فسبحانية من له الابداع والأمر عن أن يكون مترتبا في مرتبة يستحقها ما وجد بابداعه ، وخلوص المرتبة الأولة في الوجود للابداع الذي هو المبدع علة لكون وجود ما وجد عن المبدع الأول لا من جنس واحد ٠

ثم كون الموجود عن الموجد الاول في الرتبة الثانية من الوجود علة لكونه من جنس واحد اذ تلك المرتبة مرتبة الاثنينية ، والاثنينية لا من هذا الموجود الاول شاغلا مرتبة الواحدية بسبقه

(١) في النص المنقول عن راحة العقل بابهما ٠

في الوجود اليها ، وكونها له حقا جنس واحد ، ثم كون المبدع الذي هو الموجود الاول جامعا لنسبتين : احداهما كونه باضافته الى ما عنه وجد ابداعا • وثانيهما كونه باضافته الى ذاتـه مبدعا ، يوجب بكونه علة للموجودات أن يكون الموجود عنـه اثنين ، والاثنينية لا تثبت الا بوجود التغاير ، فكون المبدع على ذلك علة لأن يكون ما يوجد عنه لا من جنس واحد • الى قوله : ان أولية المبدع من الموجودات ، وسلامة هذه المرتبة التي هي الأحدية والواحدية له ، يتعالى من له الابداع والامر عنها ، وتكثره بالنسب هي العلة في أن يكون ما يوجد عنه لا شيئـا واحدا ، ولا جنسا واحدا بل من جنسين : عقول قائمة بالفعل ، وعقول قائمة بالقوة • فقد تبين بما أوردنا الحال في العلة التي لأجلها كان ما وجد عن المبدع الاول لا من جنس واحد •

فهذا ما أوضحه نضر الله وجهه في آخر المشرع الرابع من السور الرابع : أن وجود الموجودات عنه من جنسين عقول قائمة بالفعل ، وعقول قائمة بالقوة • وأوجب كثرة انقسمت على وجهين بأفعالها وتباينها من ذاتها في ذاتها ، لا بفعل فاعل فعل بها • وقد قدمنا الكلام بأن وجود ذلك العالم دفعـة واحـدة متساويين متكافئين في الكمال الاول في الحياة بالقوة الى أن تحرك هذا الاول من ذاته بذاته في ذاته حركة وهمية فكرية تمييزية في كيفية الوجود والموجد ، فعجز عن ادراك هذين المعنيـين ، فهجم بفطنة زكية ، وصورة جلية ، ثم ان مبدعا تعالى أن يدرك بعقد وهم أو ضمير ، فنفى عن ذاتـه الالهية وشهد لمبدعـه بالوحدانية ، فامتاز بذلك وسبق الى ما هنالك ، فاختص بالرتبة السنية ، وشق له اسم الالهية والوحدانية بتوحيده وولهه •

وقد قربنا للمرتاد تقريبا يهتدي به في ذلك صورة الكيفية ، وجعلنا ذلك الشكل مقدمة في المعرفة في الابتداء ، وجعلنا رتبته (١) التي بها علا بسبقه وفعله ، منفردة متوحدة بذاتها ، ثم صورنا صورتين من دون مرتبة منفردتين بذاتهما وسموهما على أبناء جنسهما ، فذات اليمين أحدهما وهي رتبة المنبعث الاول القائم بالفعل ولمن تلاه ، وذات الشمال مرتبة لمن تخلف عن المنبعث الثاني القائم بالقوة ، وذكرنا أن المبدع الاول لما شهد بالهية مبدعه وسبحه وقدسه بخضوع وخشوع ، واقرار بنية صادقة ، وطوية محضة وأعلن بذلك بنطق فصيح ، وكلام مسموع معقول صحيح ، ففطن له في نطقه ، من جميع الجميع هذان المنبعثان ، فاستبقا كفرسي رهان ، فسبق أحدهما الثاني ، فسبح للسابق الاول ، وهو المبدع الاول ، وقدسه ، وعظمه ، وشرفه ، وعظم المتعالي المبدع الحق بتعظيم السابق الى ما سبق اليه ، فقام بالفعل ، وكان شرفه كشرف الوصي ، فكان أول عالم الأمر على ما صورناه ٠

ثم سبح المنبعث الثاني المبدع الاول ، وقدسه اقتداء بالمنبعث الأول ، ولم يعترف بسبقه له ، وفضله عليه بفعله ٠ فكان ذلك سبب نقصانه ، وقيامه بالقوة ، دون الفعل ، وكان أول عالم الخلق الذين تخلفوا عن الاجابة وتكثفوا ، وجميع ذلك أسرع من لمح البصر لقوله عز وجل : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر (٢) » ٠

---

(١) يريد رتبة الناطق في عالم الدين وسلامة هذه المرتبة التي هي الواحدية لـه .

(٢) سورة القمر الاية ٥٠

الابداع الجسماني عند الحامدي :

وينتقل الداعي الحامدي الى الابداع الجسماني باعتباره من المواليد الثلاثة فيقول : « ان العالم الثالث الجسماني الذي هو المواليد الثلاثة » . ثم قال في ذلك علي بن حسن منصور اليمن في بعض أوضاعه (١) اذ قال : ان بدء الجثة الابداعية ، والفطرة التي عند الحكماء اليونانيين ، ابداعا ثالثا من غير جماع ، ولا توسط نطفة ، ولا اغتذاء برحم ، وانما في بطن أنثى ولا أم . بل ابتداء ذلك لما كانت الكواكب في بيوت اشرافها في درجات الشرف ، كل كوكب في درجة شرفه ، « حتى ذكر أن عطارد كان في درجة شرفه » وليس يمكن ذلك في عطارد خاصته . وكان الطالع السرطان . فدارت الافلاك ودبرت المدبرات ، وتدافع الهواء ، وامتزجت الأمهات ، فانعصر البخار بذلك السحاب ، بتدافع جرم الهواء الذي يقال له : الريح ، فأمطرت مطرا نظير المنى ، فأخرجت الارض الجثة لجميع الحيوان حالا بعد حال ، وظهرت جثة الانسان والطالع العذراء بقوة تأثير الاصلين (٢) اللذين كانا سببا لوجود آدم الروحاني وزوجه في الروحانيين ، وسبب وجود الطين ، فخلق من ذلك جميع الموجودات في الارضين والسموات . قال الله تعالى : « والله أنبتكم من الارض نباتا (٣) » الآية .

---

(١) لعل المقصود هو ابو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي (منصور اليمن) مؤسس الدولة الفاطمية في اليمن ، وربما كان علي هذا حفيد منصور اليمن اي ابن ولده حسن الذي خرج على الدعوة في اليمن بعد وفاة منصور اليمن .

(٢) يقصد السابق والتالي .

(٣) سورة نوح الاية ١٧ .

وروي عن مولانا جعفر بن محمد ، الصادق ، (صلع) أنه قال : ان ظهور الجثة من غير نطفة ، ولا ازدواج بالقوة الالهية المكنونة بالآلة المعتدلة الشريفة السعيدة الفلكية ، وقوة العوالم، والفلك هو معلول علة العلل الواحد الذي ليس كمثله شيء ، فالبشر نتيجة الفلك ، ثم كان من بعد ذلك الازدواج ، والتناسل من الذكر والأنثى ، من كل زوج ليبقى الجنس الى الوقت المعلوم ، الذي في مثله يكون فتور الافلاك ، وسكون الجنس باجتماع الكواكب في الحمل ، وهلاك سائر الحيوان • وقد ضربنا لذلك مثلا بسير الشمس واصلاحها ، وافسادها عند معادها في رؤوس البروج المنقلبة • لأنها في رأس الحمل أظهرت الأشجار ثمارها ، وفي رأس السرطان يتم نضوجها ، وفي رأس الميزان يبدو تغيرها واندثارها ، وفي الجدي فسادها وحصادها ، ثم يبدو صلاحها ، وكذلك اذا عادت الكواكب بعد افتراقها من اجتماعها ، وحلت بيوت شرفها كما تقدم لينشوء العالم نشوءا جديدا ، كما ترجع الصور التي لها في الفلك صورا روحانية ، وتبقى على ما كان في الدور الماضي ، وهو ستة وثلاثين ألف سنة « الى أن يكمل عشر دورات للكواكب الثابتة من ستة وثلاثين ألف سنة » فيتم ثلاثمائة ألف سنة وستين ألف سنة ، وافيا بلا نقصان •

وقد ذكر أن الجن خلقوا من قبل هذه الجثة ، من الحرارة واليبس التي هي النار ، وأسكنوا الارض فأقاموا ثلاثمائة ألف سنة وستين ألف سنة ، ثم كان الانسان والحيوان • فالانسان من الارض ، والطبائع ، وسينقرض ذلك بعد تمام الكور ، ويبدو خلق جديد ، والله أعلم بغيبه •

كذلك جاء عن الفيلسوف الالهي بأن الكواكب المدبرات لعالم الكون والفساد ، سبعة أفلاك يتجاسدها حدوث القرانات ، فباجتماعها في الحمل جميعا وجوب الكور الاعظم ، الذي هو ثلاثمائة ألف سنة وستون ألف سنة • ثم قران يسمى القران الاكبر • وهو خمسون ألف سنة دور الكشف ، ثم قران ، يسمى القران الاصغر ، وهو سبعة آلاف سنة دور الستر ، من قيام آدم والنطقاء من بعده الى القائم سلام الله عليه • فكل دور ناطق تسعماية • ويتلو هذه القرانات الثلاثة القران المتردد وهو باقتران الكوكبين العلويين بحكم المثلثات • وذلك مائتان وأربعون سنة ، وقران زحل والمريخ في برج لثلاثين سنة • وقران دون ذلك ، وهو قران زحل والمشتري في كل عشرين سنة كرة واحدة • ثم قران أصغر « هو اجتماع النيرين قبل دخول الشمس أول دقيقة من الحمل لكل سنة شمسية ، ودونه قران » وهو مجاسدتهما في كل شهر عربي كرة • فلما كان ذلك كذلك ، وجب أن يكون لكل كوكب من السبعة الافلاك خمسون ألف سنة ، من جملة الكور الاعظم ، والابتداء منها لزحل ، وكل كوكب منها يرافده ألف سنة الى أن يفي العدد سبعة آلاف الى القمر فيبدأ العدد في سبعة أخرى كذلك الى القمر • وعلى ذلك الى أن يفي دوره خمسين ألف سنة • وكذلك للمشتري خمسين ، وللمريخ خمسين ، وعلى ذلك الى خمسين للقمر فيوفي الكور • وابتداء دور زحل يجري التبديل والتحويل ، فيعود البر بحرا ، والبحر برا ، ويستحيل ما على وجه الارض من مواليد ، ونحن نبين كيفية ذلك •

فلما كان الدور الاول الخمسين لزحل ، وكان على ما ذكرنا

الحد من السبعة الأولة بألف منها ، وذلك بسبب استحجار الارض من جميع نواحيها على ما قدمنا ذكره وصلابتها • فعمدت العناية الالهية بقصد العقول الابداعية تأييد العاشر (١) ومرافدته على ترتيب الفلك على ما بينا ، وجعلت زحل أعلى الكواكب • اذ كان على وجه الارض ومن فوقها عكسا لاثبات ما يراد اثباته ، وهو من تحت الارض من أسفل الكواكب ، بعكس ما يـراد عكسه ، وذلك لبرودته (٢) ويبسه ونحسه • وهو متولي كرة الارض لأنها من جنسه ، فأحدث زحل في ألفه الذي اتحد به البرد المفرط ، واليبس والثلج المتراكم المفني ، وتكاثف البخار والدخان ، ونشأت الغيوم والضباب ، وأظلم الجو ، وصار الفعل فعل الزمهرير ، ونبعت المياه من الارض ، وغزرت الامطار ، وجرت الانهار ، وغمر الطوفان الارض على وجهها البسيط الأعلى ، وتلاطمت الامواج ، وتدفقت الى كل جانب ، فتقلقلت الجبال وتصدعت ، وتحللت واستتربت ، وتصدع وجه الأرض وتشقق وخشن الشيء بعد الشيء ، فتمعدنت واستتربت وجهها لأنه كان في حال انعقادها ، فعمدت العناية الالهية ان جعلتها من جميع نواحيها صلدة متحجرة ، وجعلت وجهها حجرا خشنـة ، متحثمة ، متمعدنة بالأكلاس والرمل ، فقلبت فعل ما يراد بها

---

(١) يريد المنبعث الثاني الذي هبط فانتظم عاشراً من العقول الانبعاثيـة ويقابله في عالم الدين الداعي المكاسر المكلف بجلب الانفس المستجيبـة الى دعوة الحق الهادية .

(٢) لان الارض تجمع البرودة واليبوسة ، والبرودة جامعة للسماء والارض، ومثل ذلك من الحدود الحجة الذي يجمع الولاية والسياسة والدعوة ، والدعوة الباطنة الجامعة للحجيج والدعاة .

من التصدع ، والتشقق ، والتمعدن ، حتى اكتسى وجهها ترابا، وصارت أودية وسهولا وجبالا وحزونا ٠

وكان ذلك سبب اقتران الكواكب جميعا في برج الحمل الذي هو أول البروج المنقلبة ، وشرف الشمس ٠ وأول البـروج وخروجها منه الى بيوت أشرافها ، فكانت الشمس حينئذ في تسع عشرة درجة من الحمل ، والقمر في ثلاث درجات من الثـور ، وصار هذان البرجان بشرف النيرين ، لكونهما في خط الاعتدال، وكان زحل في احدى وعشرين درجة من الميزان ، والمشتري في خمس عشرة درجة من السرطان ، وهو ، أعني السرطان ، طالع العالم بأسره ، وهو بيت القمر ، والمريخ في ثماني وعشرين درجة من الجدي ، والزهرة في سبع وعشرين درجة من الحوت ، وعطارد في خمس عشرة درجة من السنبلة ، التي هي العذراء ٠

فلما كان ذلك كذلك ، واتحد زحل بالألف الأولة ، وحدث ما ذكرناه الى وفاء الالف الذي أفسد ما على وجه الارض من الاحجار ٠ ثم دخل الالف الثاني الذي يرافد فيه المشتري لزحل ، فقل المطر دون ما كان في الالف الاول ، وبقيت الارض مغمومة مغمورة ، وحلّت فزاد في قوة زحل بباطنه البارد اليابس ، وأكسب الارض سخونة بظاهره الحار اللين ، ووقع بينهمـا الاعتدال ببواطنهما وظواهرهما ، ثم دخل الالف الثالث الذي يرافد فيه المريخ زحل ، والمريخ بظاهره حار يابس ، وباطنه بارد رطب ٠ فاتفق برد ظاهر زحل ويبسه ، وبرد باطن المشتري ويبسه ، ويبس ظاهر المريخ ، فتولد من هذه الخمس قوى (١)

(١) ويقصد بذلك القوى الروحانية الحساسة الحقيقية اللطيفة وهي : =

في الالف الثالث باجتماع قوى التحسين مع باطن المشتــري : السباع الضارية على عدة أجناسها وأنواعها ، وأشخاصهــا وأصنافها ، وذوات الانياب والمخالب ، والهوام ذوات السموم على عدتها في أصنافها ، وذوات الجوارح من الطير والهوام في البحار ، وبنات وردان (١) والجراد ، وذلــك المزاج الممتزج الفاسد الذي بعد عن العلة ، وهو في رسوب الهبوط ، وذلــك حكمة بالغة ان قرنت هذه الاجناس في الأصفاد ، فأعجمــت وألجمت ، وأبعدت باللعن اقصاء لها عن الفساد • ثم بدأ الألف الرابع بمرافدة الشمس لزحل ، وظاهرها حار يابس ، وباطنها بارد لين ، وهي مركز الحياة ومعدنها • فحدث انقشاع الغيوم ، وانحلال البرد ولينه ، وبدأت سخونة قريبة مع برد معتــدل باللين ، فحدث ظهور أجناس صغار من الحيوان ، مثل الفأر وما شاكله في البر والبحر مما هو يمشي على أربع مما صغر خلقه ، وما كبر أيضا مثل الجواميس والفيلة ، وبقر الوحش وحمر الفرا ، وما كان في البحر من القروش وأشكالها • ثم بدأ الالف الخامس الذي يرافد الزهرة فيه زحل ، وظاهرها برودة ورطوبة ، وباطنها حرارة ويبوسة • فابتدأت الامطار معتدلة غير دائمة ، بل على أنواع موقتة باعتدال • لأن المياه قد كانت نضبت من على وجه الارض بحرارة المشتري في ألفه شيئــا ، وبحرارة المريخ ، وبحرارة الشمس كان انقضاؤه ، وجفــاف

= الباهرة ، السامعة ، الذائقة ، الشامـــة ، اللامسة ، وهـــي تشبه الكواكب الخمسة الجارية في السماء ، المريخ ، المشتري ، عطارد ، زهرة ، زحــل .

(١) نوع من الحشرات المشابهة للجراد .

الارض في آخر ألفها • وهبت الريح الغازية في ألف الزهرة مع برودة معتدلة ، فنبتت الاشجار طيبة الروائح من جميع الرياحين ، وما شاكلها من العود والصندل وأمثاله ، وكذلك الفواكه اللذيذة ، والأزهار والأنهار من النجم والمرعى ، ودودة القز والنحل ، ودواب المسك والزباد • ثم الحيوان القريبة المحللة مثل : الابل ، والبقر ، والاغنام ، والخيل ، والحمير ، وجميع ما ينتفع به الانسان ، مما هي للاغتذاء به ، والاستخدام بالطاعة والخشوع والخضوع ، والانقياد لقربه من النهاية الثانية ، ومناسبته في بعض طبائعه اذ هو جزء منه لأنه معاده ، واليه رجوعه ، ومآبه ، ومنه اصداره وايراده • ثم تكون الطائر على أنواعه ، وانتشر على الارض ، وأكل من الثمار ، وحبوب النبات ، من النجم والاشجار • ثم انقضى هذا الدور بالسعادة المشوبة بضدها • ثم ابتدأ الالف السادس ، المرافد فيه عطارد لزحل ، وهو سادس الافلاك قد جمع قوى الجميع • وكان فعل زحل كالسلالة في الخلقة ، وفعل المشتري كالنطفة ، وفعل المريخ كالعلقة ، وفعل الشمس كالمضغة ، وفعل الزهرة كالعظام، وفعل عطارد كاللحم الذي هو التمام • وكثر هبوب الرياح في أول الألف السادس المحيية ، والغازية ، الملحقة للنبات والشجر • فكثرت فيه الحبوب المغذية للبشر ، وكملت الأثمار والبذور والفواكه ، مقدمة لجميع الحيوان أغذية بقصد الناظر المدبر لذلك • ثم ابتدأ زحل وعطارد ، في تكوين الانسان في ابتداء خلق البشر وهو ابتداء بعيد ، أصل للقريب ، على ما حكاه الكتاب الكريم بقوله : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا

يعلمون (١) » • فأصل المواليد الثلاثة ظهورها من الماء والطين •

فلما كملت قوى الكواكب الخمسة من زحل الى الزهرة في خمسة آلاف سنة ، فكانت أربعة جذور من بواطنها وظواهرها من كل جنس خمس قوى وذلك أن باطن زحل حار ، وحرارة ظاهر المشتري ، وحرارة المريخ ظاهر ، وحرارة ظاهر الشمس، وحرارة باطن الزهرة • فهذه خمس قوى حارة والجذر الثاني برودة ظاهر زحل ، وبرودة باطن المشتري ، وبرودة باطن المريخ ، وحرارة باطن الشمس ، وبرودة ظاهر الزهرة • والجذر الثالث رطوبة باطن زحل ، رطوبة ظاهر الزهرة ، ورطوبة باطن المريخ ، ورطوبة باطن الشمس ، ورطوبة ظاهر الزهرة ، والجذر الرابع يبوسة ظاهر زحل ، ويبوسة باطن المشتري ، ويبوسة ظاهر المريخ ، ويبوسة ظاهر الشمس ، ويبوسة باطن الزهرة ، فحصلت الجذور الاربعة من قوى الخمسة والكواكب العشرون مجتمعة كامنة في نداوة الارض في قعرها •

فلما كان عطارد السادس في الالف السادس ، وهو ممتزج باعتدال ، حتى أنه اذا قارن كوكبا ، ناسبه في فعله ، ولم يخالفه في طبعه ، وكان كل كوكب يتولى اقليما يكون طبعه ، وحكمه ولونه ، وفعل خاصته ظاهرا كان أو باطنا • وكان في كل اقليم وجزيرة مغارات وكهوف لجميع الحيوانات على قدر جنسه ، واستحقاقه لما يراد به • فالانسان المحمود المقصود بالنظر جثة من ألطف الماء وأعذبه وأصفاه وأعدله •

والماء من المطر المعتدل من البخار والدخان ، الذي هو نظير

---

(١) سورة يس الاية ٣٦ •

نطفة الرجل ، وطبعه لطبعه ، في الحر واليبس ، ومن الانهار التي نظير نطفة المرأة باردة رطبة • وذلك أن الماء لما اجتمع في المغارات والكهوف ، والشمس حينئذ في أول برج الدلو ، لأنه برج على صورة الانسان • وعطارد في اثنين وعشرون درجة منه مغربا ، وبرج الدلو هواء بيت زحل ، ومثله عطارد ، واعتدال الطريقة للشمس ، وزحل في أول برج الدلو ، يناظر المشتري من تسديس ، وهو في أول الحوت ، وكان الطالع برج الجوزاء ، والقمر في قران عطارد في برج الدلو • وكان نزول ذلك المطر واجتماعه بماء الأنهار بهبوب ريح الجنوب على أرض نقية التربة ، سليمة من كل طعم يخالف العذوبة ، مثل الحدة والمرارة والملوحة ، وهي سحيقة التراب متخلخلة ، فحدث في تلك الأغوار ما ذكرناه من ماء المطر الذي يشبه مني الرجل ، ومن ماء الارض ما هو يجانس نطفة (١) المرأة ، ومن النداوة المتقدمة من الثلوج والأمطار ، المتجمعة من الطوفان ماء نظير دم الطمث ، الذي يجمع بين النطفتين ، وهو كالشب المتقدم لما يراد به الصبغ ، وذلك بعد نقاوة الارض مما كان غشاها ، كما أن المرأة تحمل وتقبل النطفة ، بعد نقاوتها من دم الطمث •

فلما حصل الماء في قرار الأغوار القريبة ، وظهرت قوى

---

(١) يذهب الاسماعيلية الى ان الله تعالى حرك الفلك فصعدت البخارات الحادثة من صفو المعدن والنبات والحيوان فصارت غيوما ثم انهملت على وجه الارض امطارا صافية معتدلة ، وخددت الارض خددا غير عميقة ، وقد صفا ذلك الماء في عمقها ثم بخارا على اشرف والطف واصفى من الاول ، فانهمل مطرا كثيرا نظير مني الرجل فوقع في تلك المغارات والخدد التي هي شبيهة بارحام النساء ، فمازج الماء الكائن فيها المشاكل لماء المراة ، فصار شيئا واحدا .

حرارة الارض المكمنة فيها من الحرارة التي ذكرناها ، لأن ذلك الزمان الذي تكون فيه الشمس في برج الدلو ، يكون باطن الارض حاميا ، وكانت سخونة الارض في تلك المواضع الفائرة لينة معتدلة غير مطيرة للرطوبة ، ولا منقية لها • فتموج ذلك الماء صاعدا ، وانحدر هابطا ، فلحقه في أول تموجه سخونة ، وسكونة ، وبرودة ، بثقل اكتسبه في انحداره من البرد وهو يتردد في تموجه من طرف الى طرف ، صاعدا وهابطا بهبوب الرياح من ناحية الى أخرى ، تارة بعد تارة ، حتى يزول عنه أكثر مائيته ويلطف • وضعته الحرارات حتى صار دهنا سيالا من فعل القوى المستجنة ، وجذبها اليه بما لطف من زيابق المعدن وكباريته ، فصار الماء دهنيا سيالا مستحيلا من لون الماء وطبعه ، مع ما خالطه من خواص المعادن والنبات حتى يكون لا ماء خالصا ، ولا دهنا غليظا ، بل معتدلا لطيفا طبعه طبع النطفة المتكونة في الرحم • فلما بلغت الشمس الى برج الجوزاء ، وسخن الهواء ، وهبت رياح البوارح ، وحمي ظاهر الارض ، فجف شيئا بعد شيء • وابتدأ الدهن ينعقد بانضاج الحرارة ، لأن في الارض مسام ينفذ منه النسيم اليه ، فيلحقه ويكسبه القبول لما يراد به القاحا • ويسير الينا وحرارة ظاهر الارض تزيد في كل يوم حتى يبلغ الدهن الى حد الانعقاد بالصلابة اليسيرة في حد المضغة • والدهن بحاله، كدم الحيض في الرحم ، وانما تكون فيه أشياء لكل شخص مشيمة على سبيل الامعاء ، وقد يوجد ذلك في الماء سلاء يتكون فيه الضفادع ، وهي أجنة • كل واحد منها غشاء لصورة كالسلاء لتقي الصور البشرية من الحر والبرد ، وتدفع منافذه أن

يغشاها الماء الذي هي فيه • فيبقى نسيمها على ما تكون الأجنة في الأرحام فلما تخطط كل صورة في غشاوة هي لها ، كما شاء المصور لها جل وعلا • وأحدث كل كوكب فيها شيئا ما تولى جزء من جسده ، وأكسبه قوة من قواه ، والمتولي لنقش الصورة عطارد بشراكه الشمس ، وزحل ، والقمر • فأول ما انفعل بقوة الشمس ، ثم الرجلان بقوة زحل ، ثم الرأس بقوة القمر ، وعطارد يزيد في كل قوة ، وهو يرسم التصوير ، والزهرة تتولى التذكير والتأنيث • فلما كملت كل صورة في غشاوتها ، وفي سرته من تلك الغشاوة جزء منها هو كالامعاء ، وقد التصق فمه بفمها ، يمتص به مما لطف من ذلك الدهن غذاء لها • كما أن الجنين في الرحم يجتذب من سرته مما هو انعصر من دم الطمث وتلطف بحرارة الجسد حتى يصير كالدهن ، فيكون بقدرة الله تعالى غذاء لتلك الجملة ، لا كما تظن العامة أن غذاءها بدم الطمث ، فذلك كذلك ، والأمطار ساكنة ، والرياحات معتدلة • فلما حدث في الجثة الطول والعرض ، والعمق ، وكملت آلاته انقشرت الأغشية عنها ، بعد أن نضبت المغارات ، ولم يبق الا الرطوبات ، وارتفع عن مضجعه بتمديد الجسم ، وقد اتفق انه يكون قاعدا على اليته ، وذقنه على ركبتيه ، وقد ضم ذراعيه على ما يليهما من جسمه ، وهو مجتمع على ما وصفناه • وذلك أنه ، لما كملت صورته ، وتخطط رأسه ووجهه ، انبعث فيه الروح من الحرارات التي كونته ، ثم استجنت في بدنه ، وأعطاه القمر قوة الحياة الالهية المحيية ، التي يحيي بها ما استكن فيه ، من حرارة الشمس وقوتها ، وفي باطنه من حرارة الشمس جزء لطيف معتدل ، محيي مادته من الشمس الى باطن القمر كما

ذكرنا • فلما نفخ فيه الروح ، ودارت في جميع أعضائـه ، ومادتها من قلبه ، تنفس من منخريه وفمه ، وتنسم النسيم الحار المعتدل من جنس حرارة الهواء ولينه ، المتفرد بطبعه ؛ فجعل التنفس يزيد به انبساطا وحركا ، وحسابا بالنسيم الذي يستمده من خارجه الذي هو من سطوع أشعة الأفلاك والأملاك الذين كان منه أجرامها أولا ، ووقوعه على بسيط الارض • ثم لم يجد منفذا فيها ، فترجع الأشعة صاعـدة ، فتمتزج ، وتعتدل ، فيصير على غير طبائع الأمهات ، لأنه من أشعة الافلاك، ومن قوى الأمهات • وقد صار جنسه غير جنس الكل ، حيـاة طبيعية محيية للحيوان ، مبردة على النبات ، ملينة لما خشن ، وهو النسيم المشار اليه بالبحر السيال ، المحيط بالأرض ، وهو أصل الرطوبات ، المنشف من الارض الدخان ، ومن البحر البخار ، الكائن منه المزاج والممتزج ، وهو الذي يكـف أذى الأثير والزمهرير ، في كثير من الاوقات بقوة اعتداله ، وتوسط حاله ، فكان ذلك كذلك •

فلما تحرك الانسان بالحياة المتعلقة به ، التي دخلت عليه عند كماله من قوى الافلاك ، التي هي نفس الحس ، فيتنفس ورجلاه تجذبان رطوبة ذلك الدهن ، ويستمد منه مادة الغذاء ، وهو يتمرغ في الموضع الذي نشأ فيه ، وهو يجتذب ببدنه تلك الرطوبات وخواصها ، كما يجتذب حجر المغناطيس الحديد ، بالمشاكلة والمناسبة ، بسريان العناية الالهية اليه • وهو يتقلب يمنة ويسرة ، وقد انحمست سرته ، وهو ينمو بذلك ، وتزداد قوته بعد اقامته فيما بين الماء والطين تسعة أشهر ، مائتـين وسبعين يوما ، فلما صارت الشمس في برج العقرب ، وتقوى

الانسان البشري ، وفتح فاه ، وطلب الغذاء من فمه المهيأ له ، وسار لستة أشهر من يوم خلع المشيمة التي كانت تلفه ، وهو في هذه الستة الأشهر يرضع ابهامي يديه اذا ولد يتعلق باصبعيه ويرضعهما على سبيل الفطرة الأولة ، فسار وهو في الخلق والقوة كمولود أربع سنين لقوة الأبويين وعظمتهما ، والتسعة التي كان فيها في المغارات • وليس صغر جثته مولود النطف ، الا من ضيق مكانه ، فتأزت الأرحام على قدره •

فأول ما يأكل التين ، والعنب ، والفواكه ، مما لطف من الثمار بقوة الاسنان ، فهذا شرح بدء (١) المواليد الثلاثة وظهور الجنس البشري الذي هو أول الفكرة وآخر العمل •

قال الشخص الفاضل صاحب الرسائل نضر الله وجهه في رسالة الحيوان : اعلم يا أخي أن الحيوانات التامة الخلقة العظيمة الصورة ، كلها كونت في بدء الخلق ذكرانا وأناثا من الطين والماء تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار هنالك متساويين ، والحر والبرد معتدلين ، والمواضع الكثيفة (٢) من تصاريف الرياح موجودة والمواد كثيرة متهيئة لقبول الصورة ، ولما لم يكن في الارض مواضع موجودة بهذه الأوصاف ، جعلت أرحام اناث هذه الحيوانت على هذه الأوصاف من اعتدال

---

(١) يريد بالمواليد الثلاثة المعادن والنبات والحيوان ولا وجود لنوع من انواعها الا عن المزاج الحادث من الاركان الاربعة بمفاعلة كتيفياتها الاربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بعضها في بعض بالاضافة الى تأثير المؤثرات من فوقها .

(٢) بالعرف الاسماعيلي المواضع الكثيفة اي المواضع المظلمة السفلية ، لان من هبط من عالم الصفاء يهبط نتيجة الكثافة التي تصيبه ، لان من شأن كل كثيف الهبوط ومن شأن اللطيف الصعود والعلو .

الطباع ، لكيما اذا انتشرت في الارض تناسلت وتوالدت حيث كانوا · وأكثر الناس يتعجبون من كون الحيوانات من الطين ، ولا يتعجبون من كونها في الرحم من ماء مهين ، وهي أعجب وأعظم في القدرة · ونحن الآن نعود الى تمام قول الحكيم قال : ثم يكون الألف السابع الذي يرافد فيه القمر زحل ، وهو ألف سعادة وعبادة ، مثال الخلق الآخر · وانتهى دور السبعة الأولة من السبعة الآلاف التي هي دوره ، فيكون في هذا الالف السابع الأمور العجيبة ، والشخوص السعيدة ، والقرانات المحمودة ، في الملك والسلطان ، والعدل والاحسان ، وتجريد التوحيد والأديان ، وابتداء دور الكشف في هذا الأوان ·

فلما وفت السبعة الآلاف التي تولى أمرها زحل ، ابتداء دور المشتري من الخمسين الذي هو لزحل ، فتولى منهما بسبعة الآلاف سنة ، وكذلك المريخ ولجميع الأفلاك السبعة الى ما يكون التمام بدور القمر ، ولكل دور منها حكم وتقدير وتدبير ، من السميع البصير ، الى وفاء تسعة وأربعين ألف سنة · وكمل دور زحل · ثم ابتدأ دور المشتري خمسين ألفا ، واختص منها بسبعة آلاف سنة ، ورافده كل كوكب على ما بينا الى وفاء خمسين ألف سنة ، الى ما يكون المنتهى سبعة آلاف زحل ، ثم كان للمريخ « خمسون ألفا الى ما يكون المنتهى دور المشتري ، وكذلك للشمس خمسون ألفا الى ما يكون منها دور المريخ ، وللزهرة خمسون ألفا وينتهي ذلك الى الشمس ، ولعطارد خمسون ألفا منتهى دور الزهرة » وللقمر خمسون ألفا الى منتهى دور عطارد ·

ثم وفاء الكور وابتداء دور زحل على ما ذكرناه في أول الكلام ، وفسدت الخلقة ، وتراكمت الغيوم والثلوج ، وغشي

الطوفان ، فيكون الأمر على حالة الاول بعد وفاء سبعة أيام ، لأن كل كوكب يوم ، وله خمسون ألفا من الكور ، فذلك كذلك أبدا سرمدا فسبحان من هذه القدرة قدرته ، وهذه الحكمة مشيئته ، ولا اله الا هو أستغفره وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأستجير به من الحور بعد الكور ، وهو رجوع الكواكب من افتراقها الى موضع اقترانها أولا فيه • ولكل دور من هذه الكواكب حكم وتدبير وتقدير ، من ظهور وبطون ، وكشف وستر ، وفعل وانفعال ، والأمهات تستحيل بجزئياتها ، والمواليد بكلياتها ، والعناية الالهية تديرها وتدبرها ، وتكورها وتدورها، وتحوزها لخلاصها ، ولا خلاص لها من القامة الالفية ، لأنها الصراط بين الجنة والنار •

ونحن الآن نرجع القول على ظهور أهل المغارات الذين تقدم القول عليهم وظهور الفاضل بالنور الكامل وكيفية الارتقاء ، والمعاد ، والقول على الحجب النورانية في عالم الدين وعلى المحتجب الحق الذي لا يغيب طرفة عين •

بدء نشوء الشخص البشري عند الحامدي :

« في القول على ظهور الشخص البشري أولا ، وفي كل ظهور بعد وفاء الكور » ان البرهان الظاهر للعيان بما نشاهده في كل جنس من أجناس المواليد التي لها غاية ، كالياقوت الاحمر الذي لا سلطان للنار عليه ، وزوجه الزمرد ، وانهما غاية الأحجار في الشرف والمقدار ، وكالنخل في النبات وزوجه العود في المقدار والشرف ، وكالفرس في الحيوان وزوجه الفيل في الشرف والمقدار ، كذلك الطير وغيره مما ينسبه صاحب رسالة

الحيوان (١) ، فبذلك وجب أن يكون العالم البشري والجـان غاية لكونها نهاية النهايات وغايتها ، وهو الطريق الى الصعود الى الملائكة الكرام • فالانسان البشري منتهى زبدة الطبيعـة بأسرها ونهايتها الثانية ، وهو حد فعلها بما قصدته العقول البرية التي أظهرت الرئيس رئيسا ، والخسيس خسيسا • فاول ما قصده الماء الذي تحيز في المغارات بقوى الآلة المحكمة التي هي الافلاك ، فجذبت الى غور من تلك الأغوار (٢) ، التي هي مسافته لخط الاستواء ، من سرنديب من ألطف الماء وأعذبـه وأشفه ، وأقربه ما تكون منه ثمانية وعشرون شخصا ذكرا ، وفيما يليه غور فيه ثماني وعشرون شخصا اناثا ، وكان سبب ذلك بعدد منازل ثماني وعشرين منزلة ، وعلى عدد حـروف المعجم ، ولحظتها العقول البرية بمناظرات الكواكب السعيدة ، واعتدال الزمان بقوة أولة • وقد خرجت ماء ذكر الغور ، كما ذكرنا ، بخواص أشياء من المعادن مثل الزئبق والكبريت ، حتى امتزج بماء الغور وطينه ، وعنيت بفعله وتدريجه على سبيل الفعل بالسلالة من حالة الى حالة ، حتى تكون الماء هنا ، فتكون فيه أجنة من الاغشية التي كل واحد منها مشيمة لشخص منها وجميعها من الآثار الطيبة ، من حبوب وثمار وفواكه وأشجار ورياحين ، ومن ماء الأنهار التي قد استتربت تلـك الآثار ، وجذبتها الأمطار الى الاغوار ، فصـار ذلك هو الطين المزاوج للماء القابل للانفعال ، حتى انها من الكافور والعنبر والمسك

---

(١) يعني رسالة الحيوان من رسائل اخوان الصفا .

(٢) يعني علماء الاسماعيلية يسمونهـا المغاور والبعض الاخر الكهوف او الخـدد .

الأذفر ، جذبته العناية الالهية باستحقاق ، كما يجـذب حجر المغناطيس الحديد ، وذلك مما كان من أهل الاقـرار بالحد الأعظم ، فكانت أجسامهم من ذلك الحال الاشرف الذي ميـز من الخبيث ، وكانت أجسامهم شفافة جوهرية ، صافية زكية ، طاهرة نقية ، مضيئة نيرة نامية حسية ، على ما رمز به الشخص الفاضل صاحب الرسائل حيث قال (١) : وقد قيل انه متى كان الكبريت صافيا والزئبق نقيا ، والزمان معتدلا ، والتدبير على ما ينبغي في الوقت من اعتدال الزمان باستقامة وأشكال الفلك ، والشمس في سعادتها ، وكان التدبير موافقا لها بمساعدتها فرقي الى العلو بالصعود بالنار اللينة عن النسبة الفاضلة أولا ، ثم أهبط الى السفل ، فجعل ذلك مثل الماء بالرفق ، في أكمل مثل ما كان أول مرة ، ثم أخمد ، ثم رقي بألطف تدبير من الأول ، وقدر على علوه أحسن تقدير ، على النسبة الفاضلة ،والقسمة المعتدلة ، والمعرفة الكاملة ، ثم أهبط ، ثم أعيد الى حالتـه الأولى بأكمل ، يفعل به كذلك ما دامت الشمس في سعادتها وحسن مساعدتها ، فان بلغ به التدبير الى نهاية وتمام غاية كان شمسا طالعة ساطعة أنوارها ، ونعمة سابغة ، وبركة نافعة ، يدب نورها في الاجساد ، اذا أشرقت على الكواكب سرى نورها فيها وصبغتها فجعلتها شموسا طالعة ، وأنوارا ساطعة ٠

فهذا فصل عن الصادق الأمين (٢) أوضح ما شرحناه في أول الكلام وبيناه ، وهو أيضا ينتظم الصعود الى المعاد ٠ وقـال

---

(١) الرسالة الجامعة : الورقة ٩٧ .

(٢) يعني الامام الوفي احمد صاحب رسائل اخوان الصفاء .

أيضا : وان قصد التدبير بفساد التقدير عن درجة الأولى بدرجة كان دون الغاية ، لأنه لم يبلغ النهاية ، فيكون ما يتولد عنه ويبدو منه ، اذا كان القمر امتلأ نوره ، وسعادته في ظهوره ، نتيجة ذلك التدبير قمرا (١) تستمد الكواكب من نوره ، ويسري فيها وينزل بها ، واذا نزل بها ، صارت هي كهو في المثـال ، فهذا قوله • ونقول : ان شرف تلك الاجسام الجوهرية المضيئة على سائر أجسام أهل الجزائر ، وكذلك نفوسهم أشرف من نفوس أهل المغارات التي في الجزائر ، على اختلاف الألوان والأشكال والطباع •

فنفوس هؤلاء الفضلاء من أزكى النفوس وأجلها وألطفها ، وهي من غير من امتزج بالماء والطين ومما لم يتموج به الطوفان، ولا اختلط بالخبيث في المزاج والممتزج ، الذي حدث النيرين لأنهما من سكان السموات العلا في عالم الأجرام ، وذلك أقرب من أقر بالحد الاعظم الذي هو المبدع الاول ، وشهد له وسبحه وقدسه ، وتخلف عن اجابة المنبعث الاول عند الدعوة به ، وعن اجابة العاشر لما دعا به ، بعد توبته وعودته ، فكان جميع من تصور ذلك سمي صورة ، بسبب أنه لم يتصور غير هذه الصورة، وسمي نفسا حسية ، وحياة هيولانية ، بعلوه على من أمر عن فعل شيء مما جاء به ، فتكون كما ذكرنا آلة مؤثرة في عالـم الاستحالة للكون والفساد ، وسخرت وجبرت وأعجمت عن النطق والدراية •

وفي عدل باري البرية أن يخلصها بالتزامها بذلـك الحد

---

(١) يرمز هنا الى الشخص الفاضل الامام الهادي صاحب الدعوة .

الجليل ، وبخدمتها وسعيها بالتقديس والتهليل ، لا خلاص لها من الصراط المستقيم ، النهاية الثانية التي هي جنة النعيم ٠

فكانت البروج الاثنا عشر في السير الاول الذي هو على وفاء ستين سنة ، عند وفاء الستين ينعقل من البخار والدخان ، اللطيف والشريف ، الذي يكون أصله مما يتحلل من الأجسام الطاهرة ، والاجساد الغابرة ، التي هي لا تجانس شيئا من الأمهات فتختلط به لكونها قد أشرقت وعلت من مجانستها ، فيتردد ذلك المزاج الذي تصاعد منها ، ثم يتكون كوكب على سبيل ما نشاهده من النيازك التي تصعد الى فلك النار ،فيتكوكب ثم لا يجد منفذا كما قال تعالى : « ملئت حرسا شديدا وشهبا (١) » فتخر وتسقط ، وهي منظورة معاينة ، مشاهدة تلك النيازك ، فتلك تنفعل كذلك ، وتتكون بتدبير المقدر لها ، على عدد نجوم كل برج قد استحق أن يقوم مقامه من تخلفه ، وهو يتدرج الى القامة الالفية لخلاصه ، فاذا صعدت تلك الجملة تكوكبت في فلك الأثير ، وكانت البداية للحمل ، فسكنت في موضعه ، وهبط الحمل الاول الى الارض واختلط بما يماثله ويشاكله من المعادن ، وصعد الى شيء من النبات المحمود ، من الفواكه الطيبة ، ثم يتناوله مستحقه فيغتذي به ، فتظهر تلك الأغذية بالتدريج في أعضاء المغتذي بها « الى ما تصير نطفا مائزة عن شيء يختلط بها » ٠ وتصعد الى الكمال الاول البشري ٠ ثم تطلب الخلاص وتسعى في ملائمة أهل الاختصاص ، « فتتعلم وتعلم » وتكون في الكمال الثاني في الحد الذي تستحقه

---

(١) سورة الجن الاية ٨ ٠

من أفلاك الدين ، لا يعوقها عائق ، ولا يردعها رادع ، وتقبل جميع ما يلقى عليها من الاصباغ والأكاسير ، وذلك كذلك ٠ فاذا وفي ستين سنة ، تكون مما انحل من أجساد ثانية الدخان والبخار ، وانعقد في الأثير (١) ، كواكب عديدة على مدة برج الثور ، وصعدت فلزمت مكانه ، وهبط البرج الاول على مـا ذكرناه ، وكان تكونه على ما وصفنا الى وفاء ستين سنة ، وصعد مثل ذلك ، وكان خليفة لبرج الجوزاء ، وهبط وتكون على ما ذكرنا ، فذلك كذلك ، يصعد لكل برج من يخلفه بالعدة الى وفاء برج الحوت وعاود الصعود الى الحمل كما ذكرنا ، ويكون ذلك الحال والانفعال من برج الحمل الى برج الحوت في سبع مائة سنة وعشرين سنة ، وعلى ذلك ٠

وقد ذكرت الحكمـاء أن الأفلاك تتراخى بأرباطها عنـد اجتماعها في برج الحمل على وفاء الكور الاعظم ، ويجـري التحويل والتبديل ، حتى انهم ذكروا أن الفلك يعود أرضـا والارض أفلاكا ، وهذا لا يمكن زوال الكل معا ٠ وانما على ما قد بينا وأوضحنا ، وكذلك أيضا اذا عاود التدبير لزحل بعد وفاء الكور الاعظم ، ثم استحال ما على وجه الارض من المواليد الثلاثة ، وطحنت الطبيعة ما تحتها ، وذلك كالطاحونة اذا أديرت على ذر وكر ، طحنت ، فتجذب العناية الالهية باقي فضـلات أجسام الطاهرين الموحدين ، ثم تتصاعد فينعقد منها شمس وقمر وكواكب ، مثل زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، وفي وقت ما ينضب مأ على وجه الارض من ماء الطوفان ، ثم

---

(١) كنز الولد صفحة ١٥٢ الحامدي ٠

ترتبت الصاعدة في مواضع الأولة ، وتهبط تلك الأولة فتكون هي أهل المغارات السعيدة الثمانية والعشرين شخصا ، وتدعو الى توحيد باريها بلا واسطة ولا الهام ، كحال ما فعلـه المبدع الأول ، وعلى ذلك أبد الآبدين ، عدلا ورحمة ، لخلاص من أجاب ورجع وأناب ٠

رمز بذلك سيدنا حميد الدين حيث قال في راحة العقل (١) : ولخلو الطبيعة التي هي النفس من هذا العلم الثاني قـال الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا (٢) » ٠ أي لا تعلمون شيئا من الكمال الثاني الذي هو العلم الثاني الذي يتعلق بالأديان والاعتقادات التي بها تكمل النفس وتصير عقلا ، وهو يستفاد من جهة الأئمة الهداة من أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين ٠

ولما كان ذلك كذلك كان سبيل هذا العلم الثاني لا كسبيل ذلك العلم الاول ، بكون ذلك العلم الاول موجودا بكل نفس من أول وجودها من الحيوان وغيرها ، الا آحاد تمتاز وتختص لعلل موجبة تزول بعد حين فتلحق بغيرها ، فهذه الآحاد هي ما تجوهر من آثارات الصالحين في الجواهر الثمينة ، وبقيت في الارض ما تعود الى السحيق ، ثم الى القامة الألفية ، ثم تلحق بعد حين بغيرها بعد زوالها مما كانت متصورة له من الجواهر ٠

---

(١) نقلت هذه العبارات من المشرع الثالث من السور الخامس من كتـاب راحة العقل .

(٢) سورة النحل الاية ٧٨ ٠

ثم قال الشخص الفاضل صاحب الرسائل رمزا : واعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ، أن القوى النفسانية أول ما بدت وسرت لما هبطت الى الاجسام من أعلى سطح الفلك المحيط ، الى نحو مركز الارض مرت أولا بالكواكب والافلاك والاجرام ، وبلغت مركز الارض الذي هو أقصى غاياتها في هبوطها ، ومنتهى نهاياتها في حضيضها ، فمنها ما تابت وأنابت ، وتذكرت ورجعت من قريب ، فاتحدت بالكواكب النيرة ، والأجرام الصافية ولذلك قيل لها : « النفس المطمئنة الراجعة » من قريب ولم يطل بها الأمد في جهالتها وطغيانها ثم كانت لذلك تتفرق وتتحد الشيء بعد الشيء على قدر الصفاء والرجوع الى الاقرار والاعتراف بالخطأ والاقتراب « الى فلك » القمر آخر أبواب العالم العلوي . ثم هبطت المتخلفة عن الاجابة نحو المركز واتحدت بعالم الأمهات ، وسرت قواها في المعادن والنبات والحيوان والانسان ، وعطفت عليها النفوس الناجية المتحدة بالكواكب وحنت عليها ورحمتها كما ذكر ذلك في كتابه الكريم « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض (١) » فبالبرهان الصادق ان كل شيء يحن على جنسه ، ويرمم بعضه بعضا . فدارت الأفلاك وسارت الكواكب النيرات وترتبت الأمهات وظهرت الاشخاص من المعادن والنبات والحيوان ، وبرزت صورة الانسان فامتلأ العالم من الاشخاص ، ونزلت النفس القدسية بالروح من أمر ربها على من يشاء من عباده بالدعاء اليه ، والدلالة عليه ، فمن أجاب لحق بعالمه ، ومن أبى واستكبر

---

(١) سورة الشورى الاية ٥ .

وخالف وأصر نزل في هوانه وهذا فضل عن الثقة الأمين من الرمز الخفي والبرهان المضيء ·

ونحن نعود بعد بيان شرف النفوس الزكية « والأجسام الصافية » من أهل المغارات السعيدة الملحوظة ما نهضت من أهل المغارات السيعدة الملحوظة · ما نهضت من أهل المغارات لطلب المعاش « مما يليها » من الفواكه والاشجار الا بقوة في أجسامها قوية ، وفطنة في حواسها زكية ، وهي تهيش في صقعها ذلك وتعيش وتأوي مما تحت الاشجار وتشرب من الأنهار ، ثم بلغت في سبع سنين رتبة الاحتلام ، ولها على سائر المغارات من التمام والكمال أصنافا مضاعفة ، ثم لحظتها العقول بسريان أنوارها بوساطة المتولي لذلك من أدناها رتبة الموكول اليه أمر ما دونه من عالم الهيولى ، فصفت لطائفها ، وعلت صورتها ، وترتبت في السبق الى التوحيد والاقرار كترتيب العقول الخارجة عن الأجسام ، الاول فالأول على النظام ·

الانسان الفاضل من تحت خط الاعتدال عند الحامدي :

ان أهل هذه المغارات التي طابت عناصرها ، وصفت جواهرها في نفوسها وأجسامها ، لما تحركت الى منافعها من مآكلها ومشاربها تحرك من جملتها شخص واحد فيه من الفطنة والذكاء والتمييز في جميع بقصد العقول ، ووحي والهام ، وتفضل وانعام ، الى ذاته بذاته بتأييدات ربانية ، ومواد الهية قدسية علوية « ففكر ودبر وتفطن » وأبصر فاقر أن لهذه الصنعة صانعا حكيما ، وشهد لباري البرايا بالالهية ، وجرده عن الصفات الاختراعية ، وكانت شهادته كمال الشهادات الثلاث في الآية بقوله محققا

ذلك : « شهد الله أنه لا اله الا هو (١) » فهذه شهادة المبدع الأول الواقع عليه اسم الالهية ، ثم قال : « والملائكة » الذين شهدوا بمثل ذلك ، المنبعث الاول ،والعقول الانبعاثية، والعاشر، ثم قال : « وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » الآية ، وهذه الشهادة الثالثة لأهل المغارات الذين وسمهم بالعلم ، فوحد الشخص المذكور وجرد ونزه وسبح وقدس ، فطرقه التأييد بروح القدس والتمجيد ، فكان في سبقه وشرفه بفعله ، كسبق المبدع الاول وشرفه ، وكسبق المنبعث الاول اليه ، فظهر بالفعل في العلم والحكمة ، وظهرت به المعجزات ، ونطق بالأسماء والصفات ، لاستحقاقه لذلك ، وسبقه الى ما هنالك ، اذ هو زبدة العوالم أجمع ، وبسببه تحركت المتحركات، وتمكنت المتمكنات وتزمنت المتزمنات ، وكان نهاية النهايات وعناية جميع الغايات مما في الارض والسموات ، فكان سبقه مما لا يترجم عنه « عقل طيني ولا لسان توحيدي » وكان امام الأئمة ، وقبلة كل قبلة ، كمال الأمر ، ورأس المشيئة ، سبق السبق ، وكان في نفس الرتق أول الخلق . ثم جرى به الظهور والاتحاد ، واختصه النهاية الأولة بذلك ، وكان أول الآحاد والأفراد ، في عالم الكون والفساد ، الهادي الى دار المعاد ، فنطق بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتشعشعت صورته ، وأنارت بصيرته ، وكان قيامه ابتداء دور الكشف ، وعلم الاشخاص الذين ظهروا معه علم الكيفيات واللميات ، بعد أخذه عليهم عهد الله المؤكد ، وميثاقه المغلظ المشدد ، والوحي متصل به غير منفصل،

(١) سورة آل عمران الاية ١٨

والعلم لديه بالفعل ، معرفهم الخلقة بأسرها ، ودلهم على أسمائها وصفاتها ، وحركاتها وسكناتها ، وابتدأ انفعالها ، عن أول كرة من المكان ، وحركات الأفلاك التي جرت بها الأزمان • وهذبهم في العلوم الاربعة التي هي : علم اللسان ، ثم علم الأزمان ، وعلم الابدان ، وعلم الاديان ، بمادة الواحد المنان ، اختصه بعلم جميع ذلك لكونه قائم الابتداء في العالم الجسماني ، وأول عالم في الجنس الانساني بقوة ظهور الاتحاد، تلألأت أنواره بالاشراق ، وأظهر العلوم وأنبأنا بالمعلن منه والمكتوم ودعا بلسان التوحيد الى المتحد به ، الاول في البداية ، غاية كل غاية ، وجه الله الكريم ، واسمه العظيم • ثم أمر من تلك الاشخاص أحد عشر شخصا الى الجزائر النائية عن جزيرته، ورتب كل واحد منهم في جزيرة من الجزائر • وأقام الثاني عشر في جزيرته التي هو فيها • وأقام أيضا اثني عشر حجة بحضرته وأمر بتعليم الخلق في الجزائر وتهذيبهم ، وتسديد أمورهم وتأديبهم ، فاستجاب كثير من الخلق بقبول وطاعة ، وصفاء خالص ، وولاء مخلص من جميع من له سابقة ونية بتشريف ذلك الحد الاعظم ، أو بحد من الحدود دون الآخر لقوله تعالى لأهل الطاعة : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١) » •

وكان أيضا في كل جزيرة مغارة فيها من الوحوش الماثلة بالقامة الألفية التي هي من ظلمة الجهالة وكدر الخطيئة تكونت

---

(١) سورة آل عمران الاية ٨٤

عن المياه الأجنة الفاسدة الوسخة ، مثل القرود والذئبة والنسانيس والغولة والعديرة وما شاكلها ابعادا ولعنا واقصاء لها ، حتى لا يظهر عنها شيء مما هو في خواطرها من الفساد وقلة الرشاد • وكذلك من أجناس العجم ما هو يماثل هذه الخلقة الممسوخة ، مثل الزنج وما شاكلهم من السودان ، وغيرهم من الاشخاص والانواع ، لكونهم في البعد من النهايات ، فكان ذلك كذلك •

وأقام الشخص في الدار ، يأمر وينهي ، فأحل النكاح وحرم السفاح ، وهدى الى جميع الحلال ، ونهى عن الحرام ، وحذر وبصر ، وأنذر وبشر ، وقدر كل خير ونفع وضر ، لأن دوره روحاني عقلي نوراني مضيء ، وعمر طويلا حتى استخرج من دعوته ، وأرواح صورته ، ولطائف أهل طاعته ، أعضاء اجتمعت وتواردت شيئا بعد شيء الى بابه الأقرب ، وخاصته المهذب ، شخصا نورانيا كملت أعضاؤه ، مجردا روحانيا ، صورة محضة ، خالصة مخلصة ، قائمة بالفعل • فأسلمها الى الشخص الفاضل عند وفاء الأجل المحتوم • فكانت المشار اليها بالولد التام ، الذي يقوم مقامه ، وينوب منابه ، فنص عند أوانه ذلك عليه ، وأشار بالامامة اليه • وخنس هو عن الدار ، الى دار القرار ، لجوار الملك المقرب ، الموكول اليه أمر العالم المكنى عنه بجنة المأوى عند سدرة المنتهى ، بحظيرة القدس ، صفحة السموات العلا ، عند باب حجاب الحجاب ، الموقوف للأنبياء والأوصياء والأئمة النجباء ، في دائرته جيلا بعد جيل الى قيام القائم الذي يقوم مقامه ، وينوب منابه ، في تدبير العالم السفلي عند الانتهاء والتمام ، وكمال الختام • فاذا صعد الى فلك العاشر المكنى عنه

بنفس الكل ، صعد وسكن هو عما كان فيه ، ورقي الى رتبته شخص ملكي انبعاثي ، وصعد ذلك أيضا بصعوده ، على ذلك الترافع في العلو والسفل آبدا سرمدا وهذه خاصة للامام الظاهر من المفارات الذي قام في عـالم الدين مقـام الاول في العقول المجردة ، اذا صعد الى رتبة العاشر ، صعد العاشر بصعـوده وخلافته له ، لأن ذلك الامام كان ظهوره بعد السبعة الآلاف ، التي ذكرناها • فكان عقلا قائما بالفعل ، أعضاؤه كاملة في المفارة من عالم الافلاك ، والصعود اليه الى ما يقوم القائـم فيصعد بصعوده (١) • وكذلك يجري الأمر في ذرية الشخص الفاضل واحدا بعد واحد ، والصعود الى البرازخ المذكورة في أعلى عالم الطبيعة ، صفحة السموات ، كما أوضحه سيدنا حميد الدين الذي هو باب الحجاب ، وذلك كذلك الى وفاء دور الكشف خمسين ألف سنة ، ووفاء دور زحل ، وبدء دور الستر خمسين ألف سنة ، وأيضا كذلك ، وكل قائم يصعد الى فلك العاشر يقوم بالفعل عقلا محضا مجردا ، « ودبر عالم الطبيعة وأمر ونهى وحرك المتحركات » ودبر المدبرات ، وقدر الازمنـة والأوقات •

قال سيدنا المؤيد في الدين في تصحيح ذلـك : اذا انتقـل القائم (ع م) من هذا العالم الى العالم الروحاني بعد استقرار ما يقرره ، وتدبير ما يدبره ، أمر ونهى من أمور ما يحتاج اليه

---

(١) يذهب الاسماعيلية الى ان القائم هو اخر امام من ائمة دور محمد (ص) فيتصل به جميع المنتقلين من الائمة من ادم الى وقت قيامه ، وتكـون نفسه حاملة لهم ، ويصيرون واياه صورة نورانية قائمية .

كيف يشاء ، لأن كوره ودوره طويل ، وليس لصفته سبيل ، ولا يجوز أن نذكر ما كان بعده الا رمزا واشارة دون التصريح ، وفي هذا المقدار كفاية لمن عنده علم الكتاب ، فاذا انتقل الى العالم الروحاني يكون كلا لمن دونه ، وتلحق النفس بمنزلة الأولى ، وفي هذا كفاية لمن عنده علم من الابتداء • فهذا قوله يبين ما ذكرناه ، وذلك أن يكون في كل عشرة آلاف سنة قيام صورة كما قال مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وآله في كل عشرة آلاف سنة تكمل صورته ، وكذلك يكون دور الكشف في كل عشرة آلاف سنة قيام صورة تكون قائما بالفعل ، اذا كملت الصورة التي هي الاعضاء الروحانية عند البرزخ ، كانت عند الوفاء ذلك القائم الذي يقوم ويصعد ويخلف صاحب المرتبة العاشرة ، فيكون من دور الكشف خمس صور الى وفاء سبعة وأربعين ألف سنة ، وقام العلم بالقوة ، وظهر الجهل بالفعل ، واندرس العلم الحقيقي واضمحل ، وتغطى واستتر في الثلاثة الآلاف من الخمسين ، وكان العلم طبيعيا فلسفيا ، وعطلت الحدود ، وأشرك في توحيد المعبود « ثم حدث دور الستر سبعة آلاف سنة » • وقام قائم الستر بالكشف على ما ذكرنا ووصفنا من الصعود الى أدوار النطقاء الستة (١) الى البرزخ وتواردهم اليه ، ووقوفهم عنده ، وهم من صفو صفاء العالم ، قد صنعتهم الامتحانات ، وصقلهم الأضداد بالعداوة ، وهذبتهم الازمنة بالشرور الكائنات ، من أهل العمى والجهالات ، فهم أصفى وألطف وأعلى وأشرف ، ممن لم يمتحن بمحنة ، ولا يختبر

(١) يعني الانبياء الستة الذين هم : ادم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص) .

بغمة • وعلى ما وصفنا أن ولد الامام المنصوص عليه يقوم بدعوة أبيه ، وتكون الدعوة على سبيل الخلقة من حد السلالة الى الخلق الآخر ، ودعوة الآخر أطهر وأشرف من دعوة الاول ، واتصال الامام بالامام عند التسليم في آخر دقيقة منها عند الأول وأول دقيقة منها عند الثاني ، والمتحد الذي لا يغيب طرفة عين ، هو المسلم المتسلم ، على مرور العصور ، والأدوار والدهور ، فالمنمي للأجسام البشرية ، والقوالب الالفية ، للحدود المعنوية ، والفاعل لها المتولي لأمورها ، الشمس ، والزهرة ، والقمر ، بالاستحقاق والاتفاق ، وموجب العدل والحكمة •

ابتداء الانسان عند السجستاني :

عندما نحاول أن نقرأ آراء الفيلسوف الحقاني أبو يعقوب السجستاني التي وزعها في مؤلفاته العديدة ، نلاحظ أنه قد عالج المواضيع الماورائية بأسلوب مختصر مفيد يشتم منه رائحة ما يكتنز في مخيلته من علوم حقانية ومعارف ربانية تدل على طول باعه في هذه المواضيع العقلانية ولنستمع اليه وهو يقول عندما يتحدث عن كيفية ابتداء الانسان في الينبوع الثاني والعشرون من كتابه « الينابيع (١) » (ان من المتفق ان قوى العالم قوى غير منقطعة ولا زائلة • فلا ترى شيئا يظهر في العالم بقوة من قوى الطبيعة الا ومثله يظهر في الزمان المستقبل) • ولا تعدم قوة من قوى العالم بعد ، فينعدم بعدمها المظهر بها •

(١) كتاب الينابيع للداعي ابو يعقوب السجستاني تقديم وتحقيق مصطفى غالب ص رقم ١٢٠ .

فمن أية قوة من قوى الطبائع والأجرام السماوية ظهر الانسان على غير الجهة التي يظهر الآن بها ؟ ومتى عدمت القوة من الطبيعة والأجرام السماوية (١) وليس يعدم قوتها بوجه البتة ، فاذا ظهر الانسان لا من هذه الجهة محال ممتنع · فقد ثبت أن الانسان في جميع الازمنة على نسق واحد وجهة واحدة · فقد نطق القرآن في آيتين وهما قوله : « فلينظر الانسان مم خلق · خلق من ماء دافق (٢) » وقوله : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج (٣) » والعجب ممن لا يستعجب ظهور العالم الطبيعي من سماواته وأرضه ونجومه وبروجه دفعة واحدة ، ثم يستعجب ظهور المتولدات الطبيعية معه دفعة واحدة ، ليستريح من طلب ما لا سبيل له في دركه ، وينجو من الوقوع في الشكوك المهلكة المؤذية ، بل من الواجب على الفاضل والاديب أن لا يطلب من الشيء الا الممكن الدرك ·

فأما الذي قد اختص به السابق من الاحاطة ، فيذره ولا يطلب دركه والاحاطة به ليظهر شرف المحيط بالانسان العاجز عن جميع الدركات (٤) ·

---

(١) الاجرام السماوية : الافلاك والكواكب والابراج .
(٢) سورة الطارق الايات ٥ ، ٦ .
(٣) سورة الانسان الاية ٢ .
(٤) لما كان السابق علة العلل هادي بجوهره يمد كافة الحدود الروحانية التي هي من دونه لا اصل لجميع المتحركات في عالمي الجسم والعقل . ولما كان العقل محيط بجوهره العالم الطبيعي باعتباره مركزا لعالم الاجسام الثابتة الى الاجسام المستحيلة المسماة عالم الكون والفساد . لذلك فان السابق قد اختص بالاشياء لا يطلب ادراكها بل تركها ليظهر شرف العقل المحيط بالاسنان الذي يفتقر الى جميع الدركات .

وقد جعل الله تبارك وتعالى في نفسه ، أعني نفس الانسان الدلالات على أن طلب ابتداء كون الانسان غير ممكن ، ولا يصير معلوما البتة ، وذلك إن الشخص الواحد من الانسان لا يعلم من أين مبدأ حركته حيث كان جنينا في بطن أمه ، من قلبه، أو من دماغه ، أم من كبده ، أم من طحاله ، أم من مرارته ، أم من كليته ؟ فاذا كانت الاحاطـة بابتداء الانسان المرسل (١) أحرى وأولى أن لا يكون ما يكون ذلك ممكنا • فان قال قائل بـ (انا قد نرى في الشواهد ممكنا أن يتولد من انسان واحد الى ألف انسان على التناسل ، حتى يملأ العالم من ذريته ، ويهلك نشؤه ويخلف غيره ، فلا يبقى له ذكر ، فيجب أن يكون جميع الناس من رجل واحد ، كما ينتهي أمر جميع الناس الى رجل واحد مثلا) • فيكون الواحد من الكثير ، كما كان الكثير من الواحد ، فأما أن يكون واحدا لم يتقدمه كثير ، فلا يمكن أن يكون منه كثير هو متقدمه ، فان كان الانسان الذي يملأ العالم من نسله ، فقد سبقه الخلق الكثير من نوعين فيمكن أن يتأخر الكثير من نسله ونوعه •

العالم لا صورة له عند المبدع قبل الابداع :

واذا أردنا أن نتعمـق أكثر في دراسـة أفكار السجستاني الحقانية نرى أنه يعالج قضية الابداع وصورة العالم عند المبدع قبل هذا الابداع بدقة فيقول : « ان الباري جل وعز أبدع هذا

---

(١) الانسان المرسل : المراد به الانسان الاول ، اي سيدنا ادم ابو البشر عليه الصلاة والسلام الذي يعتبر بانه النوع الاول من الانسان .

العالم (١) وصورته كانت معلومة عنده قبل الابداع ، اذا زعم أنه ان لم تكن الصورة (٢) عنده معلومة فقد أبدع ما لم يعلمه ، لم يعط القياس حقه • وذلك أن الصورة المعلومة عند الصانعين قبل اظهارهم الصنعة ، انما تكون من أجل عجزهم عن اختراع صناعاتهم لا من شيء (٣) فلما كانت صناعتهم في شيء ما ، جاز أن تكون صورها معلومة عندهم ، موجودة بذاتها في أشياء أخرى غير مصنوعاتهم • فأما المبدع الذي يبدع الشيء لا من شيء ، فلا يحتاج الى علم ما يبدعه ، اذ لا شيء موجود يكون لأنية الصورة فيه بما دون علم المبدع » •

فمن ههنا قلنا : اذا أبدع هذا العالم ، فلا صورة له عنده معلومة قبل ابداعه هذا العالم لا من شيء ، وان كانت صورة العالم معلومة قبل ابداعه ، لا يخلو من أن تكون تلك الصورة شيئا أو لا شيئا ، فان كانت لا شيء ، فكيف يتصور اللاشيء لأنية شيء ما دون شيء آخر ؟ وان كانت شيئا ، فلا يخلو من أن تكون أزلية معه أو غير أزلية • وان كانت أزلية معه ، فقد أبدعها قبل أن أبدع أنية العالم • واذا أبدعها ولم تكن لتلك الصورة ، صورة معلومة عنده ، فهلا قلتم أنه أبدع العالم من صورته حين ابداعه ، ولا صورة العالم عنده معلومة ، ليصح هذا القول أنه ابداع العالم لا من شيء وهو الحق الواضح ؟

---

(١) هذا العالم : يعني العالم الروحاني ــ الينبوع الثالث والثلاثون من كتاب الينابيع .

(٢) الصورة : المراد بالصورة هنا ــ العقل والنفس والهيولي والصورة .

(٣) لا من شيء : اي من العدم .

وان اكتساب العالم للصورة المتصورة في المصنوعات آية عجز الصانع عن اظهار شيء لم يتقدم عليه صورته • فأما المبدع الحق الذي أمره ابداع ، فلا يحتاج أن يكون صورة ما يبدعه معلومة عنده ، لتكون حكمته وقدرته في غاية الكمال والهيئة • ألم تر أن أدنى المبدعات في الكلية ــ وهي الطبيعة (١) ــ كيف تظهر الاشياء الطبيعية بقوتها الموهوبة (٢) لها من علتها من غير تصوير لها صورة علمية ؟ بل قوتها الموهوبة لها تضع كل شيء موضعه وتنزله منزلته • كذلك نقول : ان المبدع الذي هو كان ولا شيء معه ، أمره ابداع محض ، وحق محض ، وعلم محض ، وكلمة محضة ، مبــدع العالمين بما فيهمــا ولا تكون صورهما معلومة عنده •

وأيضا فان صورة العالم وان كانت معلومة عند المبدع قبل ابداعه ، وصوره مختلفة متضادة ، كان الاختلاف والتضاد اذا موجودين في علم المبدع ، ونحن ننزه المبدع الاول ــ الذي هو السابق ــ عن التضاد والاختلاف ، فضلا عن الابداع المحض الذي هو علة المبدع المنزه عن كل الاختلاف والتضاد • وقــد رتب الحكماء العالمين بعضهما تحت بعض فقالوا : ان العالــم المركب (٣) وهو في أفق الطبيعة (٤) ، والطبيعة في أفق النفس ، والنفس في أفق العقــل ، والعقل لا في أفق شيء ، بــل هو

---

(١) الطبيعة : المقصود بها هنا قوة من قوى النفس الكلية ، وهي فلك فيه حس ونفس .
(٢) بقوتها الموهوبة : اي القوة التي استمدتها من علتها .
(٣) العالم المركب : العقل والنفس والهيولي والصورة .
(٤) الطبيعة : المراد بالطبيعة هنا الهيولي .

والابداع شيء واحد بعد الابداع ، وقبل الابداع لا شيء موجود ٠

فاذا استعظم الحكماء أن يستحقوا وضع العالم المركب في أفق النفس ، فضلا عن أفق العقل ، فكيف يمكن أن نقول أن صورة العالم في أفق المبدع ، لأن القول بأن صورته كانت معلومة عنده ، هو القول بأن العالم في أفقه ؟ حاشا الله عن ذلك وتعالى عنه علوا كبيرا ٠

ويقال لهم : قلتم أن صورة العالم كانت معلومة عند المبدع من أجل امتناع ابداعه العالم ان لم يكن علم صورته عنده ، أو أمكنه ابداع العالم صورة من غير علم متقدم عنده لصورته ، فان قلتم أنه ممتنع ابداعه العالم ألا يتقدم علم صورته عنده ، ولا يمتنع عليه ابداعه العالم لا من شيء ، فقد أعطيتم لابداعه القدرة على ما لم يخطر ببالكم وهو تأسيس الأيسيات لا من شيء (١) ٠ ثم نفيتم عنه ما دونه من القدرة ، وهو اختراع بما لا علم عنده لصورته ٠ وان قلتم انه يمكن ابداع العالم صورة من غير علم متقدم عنده ، فاذا وجود صورة العالم قبل ابداعه عند المبدع فضل ، والله أجل وأعز من أن يكون عنده فضل ما لا يحتاج اليه تعالى علوا كبيرا ٠

السجستاني وصاحب القيامة :

وبالاضافة الى الأمور التي عالجها السجستاني ، وقد تحدث

---

(١) لا من شيء : اي لا من ايس ، يعني صورة من غير علم متقدم اي من العدم ٠

عن ترتيب الطبيعة في اخراج الاشخاص غير المتجزئة من المعادن والنبات ، والحيوان ، من الأمهات الاربع عن طريق افاضة النفس عليها ثم يقول : « لا نجد في الأمهات التي هي أصول الأشياء ، مما نجده في الفروع التي هي متولدة من العروق والاعصاب واللحم والدم والعظم ، وهي بافاضة النفس عليها ، علمت أن النفس أقدر على اخراج الطبيعة ، التي غايتها الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، من الهيولى والصورة • بافاضة العقل عليها مع فقدان الطبائع الاربع والهيولى والصورة • وهذه حجة من حجج الله تعالى تلزم من عباده الاقرار بكون الاشياء لا يوجد في أصولها التي منها تكونت ما يوجد في المكون ، ليكون تمتمية كلمته تعالى وتقدس ، قائمة في أن بها ابداع العقل التام لا من شيء ، وليس يوجد في الليس قبل الابداع شيء من أيسية المبدع الاول •

وهكذا بهذه المنزلة تظهر فضيلة الرسل وشرفهم ، لأنهم جمعوا من كلمات معروفة مشهورة بين أقوامهم ، خالية من تلك الحكم التي أديت مع الجمع • فجمعوا بين الكلمات وألفوها تأليفا بتوفيق النفس اياهم واحتوت على جميع ما حكاه العالمان من الاقسام والحدود (١) ، فسبحان الله « لو يشاء لهدى الناس جميعا (٢) » « ولكن أكثرهم للحق كارهون (٣) » • ومن هذا

---

(١) ما مكان العالمان من الاقسام والحدود : يعني ما انطوى عليه العالم الجسماني والعالم الروحاني من الاقسام والحدود الروحانية ، وممثولاتها من الاقسام والحدود الجسمانية الدينية .

(٢) سورة الرعد الاية ١٣ .

(٣) سورة الزخرف الاية ٧٨ .

المعنى يصح في أنية القيامة التي دعا اليها المرسلون ، من أنها يوم عظيم تبعث الانفس البسيطة اللطيفـة ، وتبرز الصور الخفية بظهور القائم عليه السلام ، لأن النطقاء الذين مضوا قبله ألفوا شرائعهم وألقوها بين ظهراني أقوامهم ، لم يكن في شيء من شرائعهم ما يكون فيه بعث النفوس ، وبروز الصور ، الى ما أعده الله من الثواب الجزيل ، فلما بلغ الأمر منتهاه (١) ، وبلغ القائم الى منزلته التي أعدها (٢) الله له ، برز من الصور قادر على قبول الفوائد العقلية بلا تأليف ، ولا ترتيب الا أن الانسان يكون غافلا عما بين يديه من عظمة ذلك اليوم (٣) وسمو درجته ، ساهيا عنه ٠

وان نظرت في أحواله ، التي جرت عليه منذ أول كونه الى غايته التي يبلغها ، لتقرر أنه مبعوث لا محالة ، منتقل من حال الى حالة أخرى ، أشرف من حالاته التي هو عليها ، لأنه في أول كونه في صلب أبيه نطفة ذرية ، غير قابلة للنماء ، وان كان قبولها للنماء ، في حال آخر موهوما عند من أحاط به ، فلمـا اتصل الى بطن أمه ، اتصل النماء به ، وتصرفت به الاحوال ، حالا بعد حال ، حتى استوت أعضاؤه ، وأصلحت هيأته ودرجاته الطبيعية التي تصلح للعالم الحسي ، غير حاس في بطن أمه ، ولا واقف على كيفية اشتباك الحس به ، وان كان قبوله الحس عند وقت خروجه من بطن الأم موهوما ، متصورا عند من أحاط

---

(١) منتهاه : يعني عندما تقوم القيامة ٠
(٢) منزلته التي اعدها : اي عند ظهور القائم عليه السلام ٠
(٣) عظمة ذلك اليوم : اي يوم قيام القائم ٠

به ، فلما انتقل من بطن أمه الى جوف الفلك ، اتصل بالحسية ، وتصرفت به الاحوال ، حالا بعد حال ، الى أن استعمل حواسه في ادراك المحسوسات ، ونطق لسانه ما أدركه من المصورات ، والمسموعات ، والمشمومات ، والملموسات (١) ٠

فان ساعدته السعادة بطلب حقائق الاشياء الى الوقوف عليها، بسبب الانتقال من العالم الطبيعي الى العالم الروحاني ، انتقل مغبوطا مثابا ، قادرا على نيل فوائده من الاغتذاء من نعيمه ، والالتذاذ بلذاته (٢) الا أن رؤيته للعالم الروحاني وقت اتحاد روحه بجسده ، غير ممكنة ولا جائزة ، وان كان به قبوله ، ورؤيته الى العالم الروحاني عند مفارقة روحه جسده ، اتصل بالعالم الروحاني بغتة بلا زمان ، وتراه متأسفا ، متلهفا على ما سبق منه من التفريط ، والتقصير ٠ وان رؤية الانسان لما ذكرنا من انتقاله من هذا العالم الجسداني الى العالم الروحاني دليل واضح ، وهو انا نراه لا يعلم شيئا ، ولا يهتدي لشيء ، فلما فتح له من هذه الجهة التعليم بارقة من العلم ، نراه كأنه منتقل من حالته الى حالة أخرى ، فكيف اذا اتصل بـه نـور التأييد ، من جهة صاحب القيامة التي اليها دعا المرسلون ؟٠

فترى الناس على طبقتين : طبقة ممن آمنوا به وصدقـوه وانتظروا ظهوره (٣) فهم بذلك النور مقتبسون ، متنعمون

---

(١) هذه الاشياء المحسوسة تـدرك بواسطة الحواس التالية : البصر والسمع والشم واللمس .

(٢) المراد بها اللذات الروحية السرمدية .

(٣) انتظروا ظهوره : المراد بظهوره اي ظهور القائم .

مستبشرون ، وطبقة ممن كذبوا به وغفلوا عن حده (١) ، فهم بذلك النور أيضا متحرقون ، معاقبون (٢) ٠

ومما يلفت النظر أن السجستاني قد بحث في الينبوع السابع والثلاثون من كتابه « الينابيع » حول توهم الكثرة من علة واحدة وقال : « لقد أوجبت الحكمة أن يكون من الوالد المحض الكثير ، لأنه ان كان من الواحد الواحد ، ولا يكون الشيء علة نفسه ٠ قلنا : ان من الواحد ظهر الواحد ، والواحد ليس غير الواحد ، فهو اذا الواحد ، وما كان شيء غير نفسه ، كان الشيء اذا علة نفسه ، والشيء لا يكون علة لنفسه ٠ فاذا الواحد علة ظهور الكثرة ٠ وأيضا فان علتها ، ان لم يكن الواحد علتها ، فلا بد أن تكون الكثرة علتها وسببها التي ظهورها بظهورها ، فان كانت الكثرة علة ظهور الكثرة ، والكثرة أظهرتها الكثرة ، فان الشيء أظهر نفسه ، وقد نرى خلاف ذلك ٠ ان كل كثرة مضمومة الى شيء هو أشد توحدا منها ، أعني الكثرة المضمومة اليه ، وذلك الذي أضيفت اليه الكثرة هو أيضا كثرة ، لاشتراك أشباه له معه في الصورة والجنس ٠ ويتهيأ اضافتها جميعا الى شيء هو أشد توحيدا مما قبله الى أن ينتهي الى واحد غير منقسم ولا متجزىء ، فيقف هناك ٠ وعلى هذا دليل كثير من العالم ومن الاشخاص ٠ وذلك أن السموات ، والكواكب كلها مضافة الى تحريك النفس الكلية ، ثم السماوات ، والكواكب ، ذوات طبع

---

(١) غفلوا عن حده : أي لم يؤمنوا بحدود القائم من الائمة والابواب والحجيج والدعـــاة .

(٢) كتاب الينابيع : السجستاني ص (١٦٢ — ١٦٣) .

واحد من جهة حركاتها ، تتولد منها صور كثيرة من المواليد والمعادن والنبات والحيوان المختلفة بطبائعها ، وخواصها . وكذلك ترى الشجرة شيئا واحدا برأي العين ، تتولد منها صور الاشجار ذوات الاغصان والفواكه الكثيرة اللذيذة وكذلك النطفة شيء يتولد منها شخص واحد ، وأعضاء مختلفة ، وأمشاج ، ومزاجات متباينة (١) .

فكل كثرة ذات أجزاء وجدناها تنتهي الى شيء واحد هو علتها ، فمن هذا الوجه قلنا : ان جميع المكونات ، والمبدعات ، علتها أمر الله جل جلاله المتعالي عن جميع الاضافات الجسمانية والروحانية .

ويختم السجستاني أبحاثه العقلانية ، فيفسر معنى الكلمة للمبدع حيث يقول : « انما سميت العلة الأولة — وهي الوحدة — كلمة الله جل جلاله ، وهي أعني كلمة — أربعة أحرف عنوا بها ان حوامل الوحدة أربعة ، وهم الأصلان ، والأساسان . وأل (كاف) منها نظير العقل ، اذ هو أصل الأيسيات معدن الجواهر العلوية والسفلية ، وفيه بروز الصور الروحانية والجسمانية ، كما قيل أن جميع الخلائق ظهرت ب (كن) قبل أن تظهر ال (نون) . وهو الكفاية لمن دونه ، وليس وراءه شيء ، بل هو الكافي ، والكامل ، والتام ، الذي لا نقصان فيه ، وهو كيل الله الذي به يكيل للخلائق حظهم من وحدته على مقدار مراتبهم . وهو كلام الله بالحقيقة ، وهو

---

(١) مزاجات متباينة : اي مزاجات مختلفة وهي اربعة : الحرارة والرطوبة واليبوسة والبرودة ، ونشأ عنها الاخلاط الاربعة وهي الصفراء والسوداء والبلغم والدم

الذي قيل في القرآن (كلام الله) عني بذلك أن الاساس هو الذي اتحد بالسابق من جهة التأويل · وال (لام) نظير التالي ، اذ بالنفس لزم اللمية التي هي أصل المخاطبة ، وبه تلمع أنوار العقل في العالم الجسماني ، وفي الاشخاص المتجزئة ، وعليها يلزم اللوم ان خالفت العقل كما قال الله تعالى ذكره : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة (١) » وهو لوح الله جل جلاله الذي يلوح في أنفس النطقاء على مقدار درجاتهم · والـ (ميم) نظير الناطق عليه السلام الذي ملك الجسماني ، يقلبه كيف يشاء ، ويدبر أمر عباد الله يوحي الله كيف يريد ، وبه تصاب معرفة الله جل جلاله ، وهو المهدي بالحقيقة حقا ، اذ المهدي أحد النطقاء السبعة ، وهو « المسجد الأقصى » الذي فيه يعبد الله جل جلاله · والـ (هاء) نظير الأساس الذي هو المهدي ، وهو هدية الناطق الى أمته ·

وهذان الحرفان ـ أعني الميم والهاء ـ مضمومان ، والكاف واللام مفتوحان ، على أن السابق والتالي ، روحانيان ، والناطق والأساس ، جسمانيان · وان اللام الثاني والهاء من كلمة (الله) متفقان ، والكاف والميم مختلفان على الألف واللام الاول من كلمة (الله) ، على أن التركيب والتأويل (٢) لا اختلاف فيهما ، والتأويل والتنزيل مختلفان من جهة النطقاء · فان كل ناطق يحمل التأييد على قدر صفوته ، ويؤلف الشريعة على مقدار زمانه ودوره ، وأما التركيب فانه في وقت على نسق واحد

---

(١) سورة القيامة الايتان ١ ، ٢ .

(٢) التركيب والتأويل : يعني تركيب العالم الجسماني ، والتأويل كان من جهة النفس الكليـــة .

وترتيب واحد ، كذلك التأويل • وانما صفة الاشياء المؤلفة بالتأليف الشرعي لا تختلف باختلاف الشرائع ، بل هو علم محض لا يشوبه الاختلاف والتنازع ، وانما الاختلاف والتنازع في الظاهر وحده دون الخفي (١) •

وان جملة حروف (كلمة الله) من جهة العدد خمسة وتسعون ، على أن الذين ظهروا من كلمة الله جل جلاله انما هي الخمسة العلوية (٢) ، الأصلان والجد والفتح والخيال ، والتسعة السفلية من الاساسين والاتماء السبعة • وهكذا وقع بازاء حروف (كلمة الله) وجود الاشياء (٣) في الأربع معان ، وهي الذوات والهموم والقول والكتابة ، يوازيها التأييد ، والتركيب ، والتأليف ، والتأويل •

أما التأييد ، فانه يوازي ذوات الاشياء ، اذ للمؤيد (٤) في كل شيء مما له ذات ، دلالة وأعمال لما يدركه بالتأييد ، وان التأييد من حيز العقل ، كذلك الاشياء ذوات المعاني مما قد أخرجه العقل • وأما الهموم ، فانه يوازي التركيب ، اذ الترتيب من حيز التالي ، وأما القول فهو يوازي التاليف الذي ألفه الناطق بقوته ، اذ يوازي التاليف للأصوات التي تكون

---

(١) دون الخفي : اي دون الناطق .

(٢) الخمسة العلوية : السابق والتالي والجد والفتح والخيال .

(٣) الاشياء : الرواحانية والجسمانية ، فالمؤلف قد ادخل الكل في هذه المعاني بالذات .

(٤) للمؤيد : اي للنبي والوصي والاساس والامام وكل مؤيد . ولا بد من الاشارة الى ان التأييد اسمى مرتبة من الفوائد لان صاحب التأييد هو السابق وصاحب الفوائد هو التالي . (كتاب الينابيع ص ١٧٠) .

بالقوة ، وهو حيز الناطق عليه السلام · وأما الكتابة فانهـا توازي التأويل ، اذ التأويل انما هو البيان ونقش الصور العقلية في قلوب المرتادين · وليس في العالم شيء الا وهو يقبل الكتابة، من الخشب والمدر والأنواع والمعادن والحيوان ، على أن التأويل يستخرج من كل شيء ويستدل بكل شيء · وأما القول فانـه لا يوجد الا في المتكلم ، ويتكلم المتكلم بما لا يفهمه المخاطـب ولا يعلمه ، على أن من قبل تأليف الناطق أكثرهم لا يعلمون ولا يفقهون ·

وفي القـول يقـع الصـدق والكـذب ، على أن في حـد الناطق يقع مرتبتان : مرتبة الايمان وهو الصدق · ومرتبة النفاق · وهو الكذب · وهكذا يسمى الخلائق بأربعة أسماءهم : الملائكة والجن والشياطين والانس · فالملائكة على التأييد المتصل بالنطقاء من السابق · والجن على ما يتصل بالنطقاء ، من فوائد التالي وقواه المستجنة عن الخلائق · والشياطين على الذيـن عكفوا على ظاهر النطقاء دون الوقوف على حقائقها فبعدوا بها عن الحق ، فضلوا وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل · والانس على أهل الحق الذين أنسوا التأويل ، ونجوا مـن الشكوك والشبهات ، وصار التأويل كهفهم وملجأهم ·

الرسالة الجامعة وعلل الموجودات :

ذكرنا في غير هذا المكان أن جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء قد بحثوا الأمور العقلانية وما يتعلق منها ببدء الخليقة ونشوء الانسان الاول وتكلموا عن النفس وماهيتها (١) ، بحثا مستفيضا

(١) الرسـالة الجامعة تحقيق الدكتور مصطفى غالب صفحة رقم ٣٧٤ ·

حتى ظهرت رسالة الجامعة التي تعتبر تاج الرسائل هذه الجماعة فجسدت هذه العلوم بشكل موجز ومختصر مفيد ولم يغفلوا العلل والمعلولات التي كانت المسبب الرئيسي لوجود كافة الموجودات العلوية والسفلية فتكلموا عنها وقالوا : « اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه ان لكل واحد من الموجودات أربع علل : علة فاعلة ، وعلة مصورة ، وعلة متممة ، وعلة هيولانية ، فاذا اعتبرت جميع الموجودات كلها لا بد لها من هذه الأربع العلل : مثال ذلك الكرسي علته الفاعلة النجار ، والهيولانية الخشب ، والصورة التربيع ، والتمامية القعود عليه ، وأما الجسم المطلق فعلته الهيولانية هي الجوهر البسيط الموضوع فيه قوة القبول ، التي بها قبل الطول والعرض والعمق ، فصار بها جسما ، وعلته الفاعلة هي الباري جل وعز ، وعلته الصورية العقل ، لأن الطول والعرض والعمق ، انما هي صورة عقلية ، وعلته التمامية هي النفس ، لأن الهيولى من أجلها خلقت ، لكيما تفعل فيه ومنه ما يفعل ويصنع لتتم الهيولى وتكمل النفس ٠

وهذا يا أخي الغرض الأقصى في رباط النفس بالهيولى ٠ وأما الهيولى الأولى التي هي جوهر بسيط ، ولها ثلاث علل : الفاعلة ، وهي الباري جل وعز ، والصورية وهي العقل الاول ، والتمامية وهي النفس ٠ وأما النفس فلها علتان ، وهما الباري سبحانه ، والعقل ٠ فالباري علتها الفاعلة المخترعة لها ، والصورية هي العقل الذي يفيض عليها ما تقبله من الباري تعالى ٠ وأما العقل فله علة واحدة ، وهي الباري عز وجل الذي أفاض عليه الوجود والبقاء والتمام والكمال

دفعة واحدة ، بلا زمان • وهو العقل الذي أشار اليه بقوله في كتابه على لسان نبيه محمد (ص) فقال : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر (١) » ، « بل هو أقرب » واليه أشار بقوله : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا (٢) » • يعني ان الروح الذي راحت الأشياء كلها اليه منصرفة ، فاليه رواحها ومنه عودتها ، ومنه مبدؤها ، واليه معادها ، وقال : « الا له الخلــق والأمر (٣) » هــي الجواهر الروحانية ، وكلها لله عز وجل وبأمره قامت وبارادته كانت » •

ويبدو أن مؤلف الرسالة الجامعة قد شاء أن يتعرض لقصة آدم وحواء والشجرة المنهي عنها والخطيئة التي من أجلها أهبط آدم من الجنة (٤) فقال : « اعلم أيها الأخ الفاضل الدين العادل، أعانك الله على طاعته وجنبك معصيته وألهمك التأييد بروح القدس ، ويهديك الى جنته ، ويبعدك عن جهنم دار البوار ، ومحل الأشرار ، انا لما شرطنا في كتبنا المؤلفة ورسائلنا المصنفة في فنون العلوم وغرائب الآداب ، وطرائف الحكم ، وجعلناها بساتين العقول ، ورياضا تتنزه فيها النفوس ، وتتنسم بهــا الأرواح ، أن رسالتنا الجامعة هي الغرض الاقصى ، وانا نبين فيها بالبراهين الشافية جميع ما شرحنا بعضه في رسائلنا بطريق الاقناع ، وكان هذا الفصل الذي نذكره من العلم غامضا دقيقا ظاهره علم جليل ، وباطنه سر نبيل مستور خفي لا يصل اليه

---

(١) سورة القمر الاية ٥٠ •

(٢) سورة الاسراء الاية ٨٥ •

(٣) سورة الاعراف الاية ٥٤ •

(٤) الرسالة الجامعة ص ٦٥ •

الا أهل البصائر المرتاضون بالعلوم العقلية المؤيدة بالتأييدات الربانية مما ألقته اليهم الملائكة وما أيدوا به من روح القدس وما جاء به في الكتب المنزلة ، فاذا أنت أيها الأخ البار الرحيم وقفت على هذا العلم العظيم والبناء الكريم فكن عليه قويا أمينا وكن به ضنينا ، ولا تكن من المبذرين الذين هم اخوان الشياطين ، ومع هذا فانه لا يحل لنا ولا يسعنا في شرط حكمتنا أن نجعله بغير حجاب يحجبه ، ولا باب يغلق عليه فيستره ، ولكنا فتحنا لك فرد بابه وسهلنا عليك كشف حجابه لتطلع عليه وتقف ان وفقك الله وهداك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ٠

نقول في ذكر آدم وحواء والشجرة المنهي عنها وحيلة ابليس عليهما ووصوله بالمكر اليهما ٠ قال الحكيم : ان الله سبحانه لما خلق آدم وأسكنه الجنة التي هي دار كرامته ومحل نعمته في جواره الأمين ، وقراره المكين ، ومقر عباده المصطفين ، من الملائكة المقربين ٠ وعهد اليه أن لا يقرب شجرة عرفه بها ونهاه عن أكلها وأعلمه أنها مذخورة الى وقت معلوم ، وأن بها يكون العود الى البداية وأنها لا تبدو ثمرتها ، ولا يحل أكلها الا عند النهاية ، وأنها بقية دور الكشف الاول فتكون مدة دور الستر الذي قدر الله سبحانه أن آدم أول المستخلفين فيه ، وأن ثمر تلك الشجرة يكون مستورا في أكمامها ، مخبوءا تحت ورقها ، مكمنا في أغصانها ، مستورا مخفيا لا يكاد مخلوق في دور الستر أن يقف عليها ولا يصل اليه ، ولا يتناول شيئا منه الا في الوقت الذي قدره والزمان الذي يسره ، اذا بدا دور السعادة بظهور النفس الزكية في يوم العرض الثاني اذا تجلت النفس الكلية لفصل القضاء فعند ذلك تبدو شجرة سدرة المنتهى وبها تكون

النشأة الأخرى وعهد الله الى آدم وأطلعه على ذلك وأعلمه أنه لا يكون في وقته ولا يتهيأ له في زمانه وأباحه ما سوى ذلك من أكل الشجر والتناول من أصناف الثمر ما يكون غذاء له ولمن هو معلم له ، فلما زين له الشيطان سوء عمله ، وحمله على ارتكاب ما نهي عنه ، وأخذ ما لا يحل له ، وتناول ما حظر عليه ، ولم يمكنه ذلك منه الا بالحيلة عليه ، وللملاطفة له ولزوجته ، فكان من حاله أنه جاءه في صورة الناصح الأمين الشفيق ، يطلب منه الفائدة بالسؤال والتذلل ، فقال له : انك قد أتاك الله من العلم والحكمة والمعرفة ما لم يعرفه أحدا قبلك ، وقد فضلك الله على جميع الملائكة الذين أمرهم بالسجود لك ، والخضوع بين يديك ، وجعلك معلما لهم تعليمهم أسماء ما يكون ، ولم يبق عليك الا معرفة شيء واحد لو عرفته لكنت من الملائكة العالين الذين لم يؤمروا بالسجود لك ، ولم يدخلوا في طاعتك ، ولهم المقامات العالية ، والدرجات السامية عند الله • فقال له آدم : وما هذا العلم الذي أخفاه ولم يطلعني عليه ، وقد علم اني محتاج اليه وغير مستغن عنه ؟ فقال له عدوه ، يريه أنه له من الناصحين : هو علم القيامة ، وكون النشأة الآخرة ، والبروز لفصل القضاء ، وكيفية بروز الصور الروحانية المعراة من الأشخاص الهيولانية في دار البقاء ، ولو علمت هذا العلم أنت وزوجتك لكنتما ملكين وكنتما من الخالدين ، على أنهما لو كانا من أهل دور الكشف لكانت خلقتهما روحانية ولم تكن جسمانية ، اذ كان البقاء والخلود على الحال الأفضل بالنفس أشبه من الجسم • فعند ذلك اشتاقت نفس آدم الى ذلك ، وأراد الاطلاع عليه بالاظهار له من حد القوة الى حد الفعل ، ليرى

كيف يكون دور الكشف وكيف يكون قبول أهل ذلك الزمان واستجابتهم اليه وكيف تكون منزلة النفس الزكية في ذلك الوقت ، فأبدى شيئا مما نهى عنه الى غير أهله ، واطلع عليه غير مستحقه ، ووضع منه شيئا في غير موضعه فكان بمنزلة الأكل الذي نهى عنه فلما بدا ذلك منه اضطربت عليه أحواله واستوحشت منه عماله ، وقبحت أعماله ونفرت منه الوحوش التي كانت قد أنست به وتباعدت عنه الطيور التي كانت قد ألفت صورته ونزع عنه لباسه ، وبدت عنه سوأته ، وانكشفت عورته ، وظفر به عدوه ، وأقبل يفرق عنه جموعه ، ويبعد أهل الجنة ويدعوهم الى نفسه ، فعند ذلك ناداهما ربهما : « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة • قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا (١) » بوضعنا ما نهيتنا عنه في غير موضعه ودفعه الى من لا يستحقه ، قال : « اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو (٢) » فأهبط من دار الملائكة التي كان فيها وأخرج منها اذ كان أهل الجنة قد سئموا موضعه ، واستوحشوا من شخصه ، لما بدت سوأته وانكشفت عورته ورأوه بعين من جاءهم بما لا يعرفونه ، ربما ينكرونه من المعصية فظفر به عدوه ، وخرج آدم وزوجته من الجنة سائحين في الارض لا يدريان أين يتوجهان من بلاد الله ، وبهما من الندامة ما جاوز وصف الواصفين ، وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وقد زالت الرياسة عنهما وتدبير السياسة النبوية منهما فلما طالت المحنة بآدم استرجع القول ، وناجى ربه وتوسل اليه بالقائم في ذلك الوقت الذي فيه ظهور

(١) سورة الاعراف الاية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة الاية ٣٨ .

الحقائق ، وبأصحاب المقامات العالية في ذلك الزمان الذين هم الكلمات التامات ، والآيات الباهرات ، وأنه لم يتعمد ذلك وانما اشتاق الى تلك المنزلة الجليلة والدرجة الرفيعة بغير انكار لها ولا استكبار عن الاقرار بفضل صاحبها ، فعند ذلك تاب الله سبحانه عليهما ، ويسر لهما العيشة ، وبعث اليهما ملكا من الملائكة فعلمهما الحرث ، والنسل ، والزرع ، والبذر ، والحصاد، والغرس ، واللباس والرياش وما يحتاجان اليه في الحياة الدنيا لقوام الاجساد في محل الكون والفساد ، وتلقى آدم التأييد والالهام والوحي ، وأمر باقامة الشريعة والسجود لله ، والعمل بالجسم ، واظهار الصنائع ، وكثر أولاده ، وانتشر نسله ، واتسعت دعوته ، وعمرت داره ، وقر في قراره ، وكان على ذلك مدة ما شاء الله تعالى سبحانه أن يبقى على تلك الحال الى أن استكمل أجله فنقل الى دار كرامته ودار البقاء ، وأراه ما عجل فيه ليراه وهو في محل الاجساد ، فلم يخيب سعيه ، ولا أحبط عمله لما تاب وأناب . فخذ ما آتيناك من هذا العلم الجليل « وكن من الشاكرين (١) » « واعبد ربك حتى ياتيك اليقين (٢) » « واعبده كما أمرتك به الأنبياء والمرسلون عليهم السلام من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة واسباغ الطهارات ، والسعي الى البقاع الطاهرة ، والمساجد العامرة التي « آذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء

---

(١) سورة الاعراف الاية ١٤٣ .

(٢) سورة الحجر الاية ٩٩ .

الزكاة (١) » الى أن يأتيك اليقين الذي هو محض الدين اذا نفخ في الصور « وحصل ما في الصدور • ان ربهم بهم يومئذ لخبير (٢ » « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٣) » ولا تكن ممن قال الله سبحانه فيهم : « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٤) » وقال : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (٥) » وقال : « وجوه يومئذ خاشعة • عاملة ناصبة • تصلى نارا حامية (٦) » • أعاذك الله وايانا من أهل النار وجنبنا واياك مرافقة الأشرار بمنه وكرمه• انه ولي الاجابة برحمته •

الرسالة الجامعة والخلق الروحاني :

ولم يكتف مؤلف الرسالة الجامعة باستعراض قصة آدم وحواء ، بل نراه يتوجه الى الناحية الروحية الكامنة وراء خلق الاشياء دفعة واحدة ، بالقوة عندما جرت عملية الابداع الأول والخلق الاكمل ، ثم أخرجها المبدع من القوة الى الفعل الشيء بعد الشيء ، فكانت حسب اعتقاده البداية في العالم الروحاني العلوي ، ولا بد لنا من الاستماع الى رأيه حيث يقول : « العالي بأفضلها الذي هو أولها (٧) » وسبب وجودهما بوجوده عن

---

(١) سورة النور الايتان ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) سورة العاديات الايتان ١٠ ، ١١ .
(٣) سورة لقمان الاية ٣٣ .
(٤) سورة الفرقان الاية ٢٣ .
(٥) سورة الكهف الاية ١٠٤ .
(٦) سورة الغاشية الايات ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٧) الرسالة الجامعة تحقيق الدكتور مصطفى غالب صفحة ١٣٢ .

موجده ، فهو بدوامه يبقى فلذلك هو مبدأ الوجود وقابل الجود ، مستكمل الفضائل والخيرات ، تام الأنوار والبركات ، بجميع الفضائل والسعادات ، معرى من الشوائب والتغييرات ، مبرأ من النقص الواقع من جهة الطبائع المختلفات ، والهيولات المركبات والصور المختلفات ، فهو يرتب كل موجود في مرتبته ، وينزله في منزلته ، ويوفيه قسطه ، ويعطيه بقدر سعته وطاقته في لزوم النظام ، والبلوغ الى درجة الكمال والتمام ، ولذلك جعل فيه القوة الحافظة لسائر الموجودات وجوداتها العاقلة ، لتتم ذواتها الخاصة بواحد واحد منها مما تستحقه أو يليق بها ، فلذلك يشار الى ذاتها الخاصة باسم الفعل الصادر عنها بالفعل ، اذ فعله ذاته وصورته تأثيراته ، فهذا هو السابق البادي ، ثم يليه اللاحق التالي • وهو النفس الكلية المنبعثة منه ، المخترعة بواسطته ، المبدعة بها الذوات ، من سائر الموجودات ، وأفضل أحوالها الوجود الذي هو الحياة وهذه النفس هي التي بها وصلت الأجسام الى أفضل أحوالها ، وأجل أعمالها وأفضل صورها ، وأتم وجودها ، ولما تصورت الأجسام ، وتركبت على ما تركبت عليه منها ، وانطبعت فيها ، حصلت لها بها قوة تتعلق بها الأجسام الطبيعية ، والآلات الحسية ، على قدر قواها المجعولة لها على اختلاف صور الأجسام ، ومواد أغذيتها فجعلت صورة كل واحد منها مخالفة لصورة الآخر ، وهي الطبيعة الباقية في الأجسام فحصل بها التخلق ، والتعلق ، والتفكر ، ويحصل التصور ، والشكل بالصور الخاصة لواحد واحد منها ، كما شاء باريها ومبدعها ، ومصورها لا اله الا هو جل اسمه وتعالى ذكره • وذلك أنه جلت آلاؤه وتقدست أسماؤه وضعها في الجسم ،

وجعل قوامه بوجودها فيه ، وصيره بقوتها يتحرك الى تمام ما هو معد له ، وغاية قدر بلوغه اليها ، ووقوفه عندها ، الا أن يعوقه بعض العوائق من خارجه فيمتنع من حركته الى أن ينقطع ذلك العائق ، ويزول ذلك المانع ، فيعود الى حركته الخاصة ، ثم الهيولى التي هي ذات بالقوة ، لا موجودة بالفعل ، تخرج الى الوجود بقبول الصورة التي بها يصير الشيء هو ما هو ، ويفارقه لون العدم ، والعدم لا موجود بالفعل ولا موجود بالذات ، موجود بالعرض ، وسبحان خالق الوجود ، مفيض الجود على كل موجود، فهو معدن الجود منه بدأ واليه يعود • فلذلك قلنا في ترتيب الخلقة الروحانية من الجواهر البسيطة العالية التي هي أصول العالم الجسماني ، والخلق التركيبي ، أن العقل الاول سابق ، والنفس الكلية المنبعثة منه لاحقة ، والهيولى مشتاقة ، والطبيعة سابقة ، فالهيولى مشتاقة الى حصول الصورة فيها ، والطبيعة سابقة للنفس الى طلب الوجود بها ، اذا نزلت عليها ، فافهم يا أخي أرشدك الله هذا القول الصحيح ، وتصفح هذا العلم الجليل ، فانه يرشدك الى الله تعالى وجنته بمنه ورحمته •

ثم ينتقل صاحب الرسالة الجامعة (١) الى الخلق الجسماني ، فيرى أن ترتيب الخلق الجسماني ، أي لما تركبت الأفلاك العالية ، ودارت بالقوة الحركة المحكمة المنبعثة من النفس الكلية ، وسرت في الجسم المطلق القوي الباعثة للأشياء من حال القوة الى حال الفعل ، بالهيولى الأولى ابتدأت الاشياء تبدو من الطبيعة لما تم المركز ، واستقرت عليه الطبائع المختلفة ، وامتزجت الأمهات

(١) الرسالة الجامعة صفحة ١٣٤ تحقيق الدكتور مصطفى غالب .

بالحركة الفلكية الدورية ، وأشرقت الكواكب النورانية ، ورمت بأنوارها الى المركز ، ودارت الأفلاك ، فكانت الدورة الأولى دورة نفسانية متحركة بحركة ادارية تركب بها الفلك المحيط ، وهو أول ما ترتكب مـن القوة النفسانية ، فصار مبدأ الحركة الجسمانية ، فارتبطت به النفس الكلية ، ودارت بالشوق الى باريها سبحانه ، تطلب اللحوق بدرجة الابداع الاول الذي هو علتها ، والوصول الى درجـة الكمـال ، والبقـاء على أشرف الأحوال ، ثم دار الفلك المحيط وتركب ما دونه فتركب منه ما دونه كذلك حتى كان فلك القمر ، ثم وقف الدوران الفلكي عن أن يكون فلك دون فلك القمر الا ما دونه ، فكانت دائرة المركز وما هو محيط بها وماسك لأجزائها من الدوائر ، مثل الهواء ، والماء ، والأثير ، والزمهرير ، واتحدت القوى الطبيعية بالمركز ، وامتزجت بالدوران ، وأشرق عليها النيران الاعظمان الشمس والقمر ، ومطارح شعاعات الكواكب ، فقبل المركز التأثير العلوي فكان أول شيء بدا من الارض المعدن ، ثم صورة النبات ، وكان صورة الاشياء الحيوانية كلها فيه بالقوة لما قدر الله سبحانه فيه من أنه غذاء لكل حيوان ، الكائن بعد كون النبات ، وجعل النبات متقـدم الوجود على الحيوان لحاجـة الحيوان اليه وأنه لا غنى به عنه ، فكانت صورة النبات متقدم الوجود على الحيوان لحاجة الحيوان اليه وانه لا غنى به عنه ، فكانت صورة النبات مجموعة فيها صورة الحيوان وتركب منه الأدون ، والاقل بما هو آلة مستخدمة لمن يأتي بعده ، وهو موهوب له ، فكانت البداية في الخلق الاول بالأفضل الأعلى ، اذ كان عالم الجواهر النورانية التي لا تركيب فيها ، ولا مخالفة ، ولا تغاير ،

ولا تباين الا بشرف السبق في الرتبة ، والقرب من الباري جل جلاله ، وذلك لأنها خارجة عن الزمان ، ومستغنية عن المكان ٠ ولما كان الخلق الجسماني والعالم الطبيعي يقبل الكون ، والفساد ، والتغيير والاستحالة ، ويتكون في الزمان ، ويحتاج الى المكان ، ويغتذى ، كانت البداية في الأدون حتى تكون النهاية بالأفضل ٠ فلذلك كان ظهور الانسان بعد كون المعادن ، والنبات ، والحيوان ، لما له فيها من المنفعة والمصلحة : بوجوده له على غاية قد بلغها وانتهى اليها ، ولو كانت البداية في الخلقة الجسمانية بالانسان قبل المعادن ، والنبات والحيوان ، لكان خلقه عبثا ، لأنه لم يكن يقدر على البقاء ، ولا يتيسر له العيش ، اذ كان لا يجد الغذاء ولا ما يترفق به ، مما وجده بكون النبات والحيوان قبله فلذلك كان بالعناية الربانية الحكمة الالهية تقدم كون المعادن ، والنبات والحيوان على كون الانسان ، اذ كان محتاجا مضطرا الى الغذاء والمادة التي بها قوام جسده ، وسبب حياته ، ودوامه ٠ فلذلك كانت الخلقة الجسمانية بالعكس من حال الخلقة الروحانية ، اذ كانت البداية في تلك بالأفضل ، ثم بالأدون ، وفي هذه بالأدون ثم بالافضل ، وكذلك فعلت الحكماء فيما وضعته من العلوم واستخرجته من الصنائع ، وبسطته من الكتب ، أنها ابتدأت بأشياء جعلتها مقدمات لما يأتي بعدها ، وان صورة المتقدم جامعة لما تقدمته بالقوة ، مشيرة اليه ودالة عليه وكذلك فعلت الانبياء في موضوعات شرائعهم وأحكامهم ، وفرائضهم ، وسننهم ، وما نصبوه من أمر العبادات والطاعات ، فان أمر الشريعة مبني في ظاهرها على ترتيب الخلقة الجسمانية ، وفي باطنها على ترتيب الخلقة الروحانية ٠ وذلك أن واضع

الناموس أول ما دعا الخلق اليه ودلهم عليه ، وجاهد من خالفه فيه الى الشهادتين : الأولى لله بالوحدانية ، والثانية بالرسالة فكانت بقية الشريعة موجودة في هذه الفريضة الأولى بالقوة ، مجموعة كلها فيها · ولذلك قال رسول الله (ص) : من قال شهادة لا اله الا الله (محمد رسول الله) حقن بها ماله ودمه ، وان الرسول (ص) كان يجاهد المشركين حتى يقولوها ، ثم قال : من قالها مخلصا دخل الجنة ، فقيل له : ما اخلاصها يا رسول الله ؟ قال : معرفة حدودها واداء حقوقها ، فأشار بذلك الى أنه لا يستحق دخول الجنة الا من كملت له المعرفة بحدود الشريعة ، واقامة فروضها وأحكامها ، ولذلك كان الأمر في تنزيل الكتب النبوية والآيات العلوية ، الابتداء بالسور القصار المجموع فيها معاني ما جاء بعدها في السور الكبار والطول · وذلك لطف من الله سبحانه بخلقه وسعة رحمته ، وفضله لما علم أن الخلق يعجزون عن قبول العلوم الالهية ، والحكمة الربانية دفعة واحدة ، بل على التدريج ، بالشيء بعد الشيء وقبول القوة أولا بما جعله في وسعهم وجبلهم عليه ، فاذا جاءتهم الاشياء بالقوة ، وتصورها · جاءتهم الاشياء التي توجب اظهار ما حصل في نفوسهم بالقوة الى الفعل ، من العبادة ، والطاعة ، والاعمال : مثل الطهارة ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، وسائر مفروضات الشرائع ، وسنن الديانات · فكل هذه الأفعال تقدمتها علومها ، وسبقتها معرفتها فلما كملت لهم معرفتها ، ووقفوا على عملها وقبلوا تعليمها ، أمروا بفعلها والقيام بعملها ، وكذلك ترتبت الاشياء كلها من الموجودات التي دون فلك القمر ، ولما كان ذلك كذلك ، قدمت الحكماء والفلاسفة

العلماء العلم الرياضي التعليمي على غيره من العلوم أخرتها وجعلتها في العلم الرياضي بالقـوة • فمـن ارتاض بالعلوم الرياضية التعليمية وتهذبت نفسه بها ، وداوم على قراءتهـا وجب للحكيم أن ينقله الى غيرها ، ولا يزال حتى يبلغه الى نهاية ما تعلمه ، فيوقفه عندما وقف عنده ، ويأمره بالعمل ، ولـم ينفعه علمه ، ومن عمل ولم يعلم ، كان كالذين قال الله تعالى فيهم : « عاملة ناصبة • تصلى نارا حامية (١) » • وقـال : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (٢) » ولا يقبل الله سبحانه العمل الا من العالم العارف ، فلما كانت هذه سنة الله سبحانه في خلقه ، وسنة الحكماء من عباده ، والمصطفين من أوليائـه وأنبيائه وجب علينا أن نسير بسيرتهم ، ونتخلق بأخلاقهم ، ويكون لنا بهم أسوة حسنة ، فجعلنا ما قدمناه من الرسائـل الابتداء بالعلوم الرياضية التعليمية ، ليرتاض بها الطالبون للعلوم الشريفة ، والحكم الجلية فاذا تهذبت نفوسهم بهـا ، وتمهروا فيها وعرفوا معانيها ، ووقفوا على أسرارها ، لاحت لهم العلوم وصارت في نفوسهم بالقوة ، فاذا جاءتهم عرفوها ، وأسرعوا الى قبولها ، وترك الانكار لها ، والجهل بشيء منها ، وكذلك يجب على من وقفت في يده هذه الرسائل أن يبتدأ بما قدمناه منها لما ذكرنا في رسائلنا أن هذه الرسالة مجمع الأغراض، والمعاني ، والبراهين ، والفوائد ، وأنها تقوم بذاتها مقـام الرسائل كلها والعلوم التي فيها بأجمعها ، اذ كانت هي الخاتمة، وفيها بيان ما تقدم مما ضمناه فيها ، وجعلناه بين يديها ، دلائل

---

(١) سورة الغاشية الايتان ٣ ، ٤ .

(٢) سورة الكهف الاية ١٠٤ .

عليها ، ومنبهات لمن نظر فيها من رقدة الجهالة ونومة الغفلة ، ليرقى الى العالم الأعلى ، ويشاهد ويرى ملكوت السموات ، وقد أثبتنا فيما قدمناه من هذه الرسالة الجامعة ، بالحجج القاطعة ، والبراهين اللامعة بيان ما قصدنا اليه ، وجعلناه مستودعا في فصول الرسائل المتقدمة الرياضية التعليمية وفتحنا أبوابها ، وسهلنا على الراغبين فيها مطالبها ، وبينا أغراض الحكماء الأولين ، والعلماء الربانيين في وصفها ونصها ، وترتيبها على ما هي مرتبة عليه ، وبينا أن الفلسفة هي التشبه بالاله بحسب الطاقة الانسانية ، وأن تقدم الاشياء بالقوة أولا يوجب اظهارها فيما تأخر بالفعل ، وفيما قدمنا ما قدمناه مما ذكرناه ووصفناه وبيناه ، بموجز من اللفظ بغير اسهاب ، ولا تطويل ، بمعنى يقرب حفظه ، ويسهل مأخذه ، ويقف المتعلمون عليه ، فاذا تصفحته وتبينته ، علمت انا انما قصدنا في وصفنا له التقرب الى الله سبحانه بالدعاء اليه والدلالة على وحدانيته والزلفى لديه ومعرفته جل اسمه بما تعرف به الى خلقه وأمرهم أن يعرفوه به من الطريق القويم ، والصراط المستقيم ، فيزول الشك والتعطيل ، والتشبيه ، والالحاد في أسمائه ، وليكون من وقف على ما ذكرناه مجانبا لصفة اللذين قال الله فيهم ، وذمهم بما ارتكبوه من الشرك بالله والالحاد فقال : « ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وأن يشرك به تؤمنوا (١) » . وذلك بما تعدوا معرفة الله سبحانه وكفروا وأشركوا به ، وألحدوا في أسمائه ، واتخذوا من دونه آلهة لا تغرهم ولا تعرفهم ، فقال جل اسمه : « ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل

---

(١) سورة غافر الاية ١٢ .

الله بها من سلطان (١) » . فمن لا يتفكر في خلـق السموات والارض ، وما في الآفـاق والانفس مـن الآيـات الباهرات ، والدلالات الشاهدات على توحيد الله سبحانه ووجوده بوجود موجوداته الدالة عليه ، الداعية الى توحده ، وبازدواجها على تفرده ، وعلى دوامه بانتقالها ، وعلى بقائه بزوالها ، وعلى قدرته بعجزها ، وعلى قوته بضعفها ، وعلى احاطته باحاطـة بعضها ببعض ، وما كتبه من كتابه المبين مسطرا ، وخطه في لوحه الكريم مخبرا ، فقال : « سنريهم آياتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (٢) » وقال : « وكل شيء أحصيناه في امام مبين (٣) » فكل العلوم الحقيقية ، والعبارات اللغوية ، على تباين اختلاف ألسنتها ، وتغاير أشخاصها وافتراق أنبيائها وأشكال كيفياتها ، ناطقة بتوحيد مبدعها ، ومقـرة باثبات خالقها ، وذلك موجود في جبلتها فطرة الله التي فطـر الناس عليها ، وانما وقع الاختلاف والتباين بما اتحدت به النفوس من شوائب التكدير ، وأوساخ التغيير ، وميل النفوس اللاهية ، والأرواح الساهية ، في الأمور المحسوسة والاشخاص المنكوسة ، فخرجت من التكليف الشرعي والمنهاج الناموسي الى القول بقدم العالم ، وانكار الوجود ، والتخلي عن عبادة السيد المعبود ، والاستكبار على الحدود ، وشبه ابليس اللعين ومن اتبعه من الشياطين ، لتصح له الشركة فيما ينسب اليه مـن الولادة الخبيثة ، وهي النفوس النجسة ، والارواح الرجسة ،

---

(١) سورة النجم ٢٣ .
(٢) سورة فصلت ٥٣ .
(٣) سورة يس ١٢ .

المتخلفة عن الاجابة في وقت النداء ، اذ قال لهم : « ألست بربكم قالوا بلى (١) » فوقفوا عن الاجابة ، والاذعان بالطاعة لمستوجبها ، والعبادة لمستحقها فشوه خلقهم ، وعكس صورهم ، ومسخ أشخاصهم ، فهم في سكرتهم يعمهون ، فقال سبحانه : « وجعل منهم قردة خاسئين (٢) » . وقال : « كونوا حجارة أو حديدا (٣) » وكذلك قال لابليس لما أباحه القدرة لمعيهم اذ كانوا من حزبه : « واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا (٤) » ولم يجبه ذلك منهم ، ويحثه على الاحتواء عليهم الا لما انحرفوا عن الطاعة ، ووقفوا عن الاجابة كبرا وعلوا ، وهم أصحاب الفتن ، الموقدون نار الفتنة ، قتلة الانبياء والمرسلين والأئمة ، أتباع الشيطان وذرية ابليس اللعين ، وهم الاشرار من الأمم الطاغية والاحزاب الباغية الذين لا يزدادون الا ضلالة وعمى ، فهم في طغيانهم يعمهون ، وفي جهالتهم يترددون ، لا يؤمنون ولا يذكرون فهم الذين قال الله سبحانه فيهم : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون (٥) » وقال لما ضرب ابن مريم مثلا للذين نهاهم عن مثل حالهم ، وأن يعملوا مثل أعمالهم : « مثلهم كمثل الذين استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

---

(١) سورة الاعراف الاية ١٧٢ .
(٢) سورة البقرة الاية ٦٥ .
(٣) سورة الاسراء الاية ٥٠ .
(٤) سورة الاسراء الاية ٦٤ .
(٥) سورة يس الاية ٩ .

صم بكم عمي فهم لا يرجعون (١) » الى الذكرى اذا ذكروا ، ولا يتفكرون ، فلهم قلوب لا يعقلون بها ، وآذان لا يسمعون بها ، وأعين لا يبصرون بها ، أف لهم ولما يعبدون من دون الله « أولئك أصحاب النار (٢) » « ولا يخفف عنهم العذاب (٣) » « وما هم منها بمخرجين (٤) » « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب (٥) » بالكون والفساد ، في الاشخاص المظلمة ، والاجساد المشوهة ، فلا يزال ذلك دأبهم وأنبياء الله تذمهم ، ورسله تلعنهم ، وكتبهم المنزلة بأقبح الصفات تصفهم ، ما دام دور الستر جاريا على سنته ، متماديا على عادته فاذا آن زواله وتغيره ، وانتقاله أذهب الله سبحانه بالصور المظلمة ، والنفوس الظالمة الخالية من نور الحكمة ، المفرطة في جحود باريها ، وهي النفوس العاصية التي بدت منها الزلة الأولى ، التي من أجلها كان هبوط آدم الى الارض ، وكون دور الستر ، الى جهنم الكبرى الخالدة ٠

ويستمر مؤلف الرسالة الجامعة (٦) بالتحدث عن الهبوط فيقول : « اعلم يا أخي أيدك الله وايانا بروح منه أن القوى السارية النفسانية أول ما بدت وسرت لما أهبطت الى الاجسام ، من أعلى سطح الفلك المحيط الى نحو مركز الارض ، مرت

---

(١) سورة البقرة الاية ١٨ .
(٢) سورة يونس الاية ٢٧ .
(٣) سورة البقرة الاية ١٦٢ .
(٤) سورة الحجر الاية ٤٨ .
(٥) سورة النساء الاية ٦٥ .
(٦) الرسالة الجامعة تحقيق الدكتور مصطفى غالب صفحة ١٧٥ .

أولا بالكواكب والافلاك والاجرام ، والاركان والأمهات وبلغت الى آخر مركز الارض الذي هو أقصى مدى غاياتها في هبوطها ومنتهى نهاياتها في حقيقتها • فمنها ما تابت وأنابت ، وتذكرت، فرجعت من قريب ، واتحدت بالكواكب النيرة والأجرام الصافية، ولذلك قيل لها النفس المطمئنة الراجعة عن قريب ، ولم يطل بها الأمد في جهالتها وطغيانها ، ثم كانت كذلك تتفرق وتتحد بالشيء بعد الشيء على التدريج على قدر الصفاء والرجوع الى الاقرار ، والاعتراف بالخطأ الى أن بلغت الى فلك القمر آخر أبواب العالم العلوي ، ثم هبطت المتخلفة عن الاجابة نحو المركز • واتحدت بعالم الأمهات ، وسرت قواها في المعادن ، والنبات ، والحيوان ، والانسان ، وعطفت عليها النفوس الناجية المتحدة بالكواكب وحنت عليها ورحمتها ، فلذلك أخبر الله سبحانه عن أهل السماوات ، الحافين من حول العرش انهم يستغفرون لمن في الارض • فقد صح بالبرهان الصادق أن كل شيء يحن الى جنسه ، ويرحم بعضه بعضا فدارت الأفلاك وسارت الكواكب النيرات ، وترتبت الأمهات ، وظهرت الاشخاص من المعادن ، والنبات والحيوان ، وبرزت صورة الانسان ، وامتلأ العالم من الاشخاص ، ونزلت النفس القدسية بالروح من أمر ربها على من يشاء من عباده بالدعاء اليه والدلالة عليه ، فمن أجاب لحق بعالمه ، ومن أبى واستكبر وخالف وترك في هوانه ، فانظر الآن يا أخي كيف يكون انصرافك ورواحك من هذا العالم الى هنالك ، فان نفسك هي احدى تلك النفوس الهابطة المنبثة من النفس الكلية السارية في العالم ، وانك قد بلغت الى المركز ، وانصرفت ، ونجوت من الكون في المعادن ، والنبات ، والحيوان ،

وقد جاوزت الصراط المنكوس ، والصراط المعوج ، والصراط المقدس ، وأنت الآن على صراط مستقيم ، منتصب بين الجنة والنار ، وهي صورة الانسانية ، فان جاوزت وسلمت من هذه دخلت الجنة من أحد أبوابها ، وهي الصورة الملكية التي تكتسبها بأعمالك الصالحة ، والمتاجر الرابحة ، وأخلاقك الجميلة ، وآرائك الصحيحة ، ومعارفك الحقيقية •

فاجتهد يا أخي قبل فوات الأمل ، وحلول الأجل ، واركب مع اخوانك في سفينة النجاة ، كما ركبوا لتصل الى ما وصلوا ، وتنزل حيث نزلوا ، ولا تكن من المفرقين الذين هم اخوان الشياطين ، ولا تأوي الى جبل يعصمك من الماء ، فانه لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم •

ويستمر مؤلف الرسالة الجامعة في بحثه واثباتاته عن هبوط النفس من العالم العلوي الى العالم السفلي : ولما كان المقدر بوجوب الحكمة الالهية ، والعناية الربانية ، مكث الجنين في الرحم تسعة أشهر ، وتقلب حالاته في تلك المدة حالا بعد حال ، في شهر بعد شهر ، كما قال الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين • ثم جعلناه نطفة في قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما (١) » ثم كان مقدار مكث الجنين بحسب ما ينبغي في أحكام الجسد من المزاج والتركيب بأفعال روحانيات الكواكب أربعة أشهر بقدر مسير الشمس ثلث الفلك ، واستيفائها طبائع

---

(١) سورة المؤمنون الايات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ •

البروج من النارية ، والترابية ، والهوائية ، والمائية ، ثم كيفية تأثيراتها ، وأفعالها في أحكام النفس أربعة أشهر أخر ، وما ينطبع فيها من التهيؤ والاستعداد الذي هو الصورة الأولى بالقوة ، لتصير صورة بالفعل عند التهيؤ لقبول الاخلاق ، والعلوم ، والاعمال ، والآداب ، والحكمة ، والآراء ، في مستقبل الزمان ، ومستأنف العمر بعد الولادة ، وفي الشهر التاسع ، عند دخول الشمس بيت التاسع من موضعها يوم مسقط النطفة، بيت الحركة والسفر ، والنقلة ، والتصور ، والعلم ، والفطنة ، يكون الوضع • والذي حثنا على وضع هذه الرسالة في مسقط النطفة هو تنبيه نفوس الغافلين الساهين اللاهين عما أرشدوا اليه ، ودلوا بالحكمة الالهية عليه ، لينتبهوا من نوم الغفلة ، وليصحوا من سكرة الجهالة ، ويعلموا علما يقينا ، ويتحققوا تحقيقا صادقا ، انهم غير مخلدين في هذه الدار الفانية ، ولا دائمين في صحبة هذه الاجسام البالية ، وان كل نفس وردت الى هذا العالم فمنقلبة الى ما أعد لها من عملها ، واكتسبته بفعلها ، كما قال الله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه (١) » • وان الاعمال والافعال التي تكتسبها النفوس في هذا العالم انما هي أمكنة ومساكن ، لها غرف من فوقها ، غرف في جنات النعيم ، والملك القديم ، في عالم الافلاك ومحل السموات ، وهي مساكن تسكن اليها نفوس العارفين ، وتأنس بها أرواح المؤمنين ، مبنية بالحكمة الالهية ، فيها من

---

(١) سورة آل عمران الاية ٣٠ •

كل الثمرات ما لا عين رأت،ولا أذن سمعت(١)،وكذلك الأفعال القبيحة ، والاخلاق السيئة هي أيضا مساكن وحشة ، وبيوت مظلمة ، وجهالة متراكمة ، وظلمات من فوقها ظلمات ، ومن تحتها بحر مظلمة أمواجه ، ومن فوقها قطع من النار ، وهم فيها مبلسون ، وفي عذابها مشركون ، لا يخفف عنهم العذاب ، « وما هم بمخرجين (٢) » ، ذلك جزاؤهم بما اكتسبوا ، انهم كانوا لا يذكرون ٠

ويرى مؤلف الرسالة الجامعة أن الغرض الاقصى هو الاخبار عن حال الانفس البسيطة قبل تشخصها واتصالها بالأجسام الجزئية ، المحصورة ، المحدودة ، بواسطة الألوان والاشكال ، والاعراض الأخر ، وأن المكث في الرحم هذه المدة لتتميم البنية ، وتكميل الصورة ، وهو الكمال الجسماني الاول لاستكمال الآلة ، واستعمال الأدوات ، وتمكينها من الجملة ، لتحصل كامل الآلة ، مستعدة لقبول ما يلقي اليها ، ويتصل بها من العلوم العقلية ، فاذا كان في الشهر الرابع من مسقط النطفة وصار التدبير للشمس ، واستولت على المضغة قوى روحانياتها نفخت فيها روح الحياة ، وسرت فيها النفس الحيوانية ٠ وذلك لأن الشمس رئيسة الكواكب في الفلك ، ونفسها هي روح العالم بأسره ، وهي المستولية على الكائنات التي دون فلك القمر وخاصة على مواليد الانس ، وذلك أن جرمها بمنزلة جرم القلب في البدن ، وسائر أجرام الكواكب والأفلاك بمنزلة أعضاء البدن ومفاصل

---

(١) الرسالة الجامعة ـ اخوان الصفاء صفحة ٣٣٣ تحقيق الدكتور مصطفى غالب .

(٢) سورة الحجر الاية ٤٨ .

الجسد وسريان قوى روحانياتها في العالم كسريان حرارته الغريزية ، المنبثة من القلب ، السارية في جميع الاعضاء ، وأما سائر قوى روحانيات الكوكب منتهى لها كالجنود ، والأعوان ، والخدم ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم ، فتبارك الله أحسن الخالقين •

واعلم يا أخي أنها بمسيرها في حدود الكواكب والبروج ، وشدة اشراق نورها ، وسريان قوى روحانياتها تحط من الفلك الى عالم الكون والفساد الذي تحت فلك القمر ، من قوى روحانيات الكواكب والأفلاك والبروج ، في كل يوم وساعة ، وفي كل درجة ودقيقة ، ألوانا من التدابير ، غير ما في يوم آخر وساعة أخرى لا يبلغ منهم البشر كنه معرفتها ، الا من أطلعه الله عليها من رسله وأنبيائه ، وملائكته ، أولي العزم القائمين لله بالقسط •

الابداع الروحاني عند علي بن الوليد (١) :

بعد كل الآراء والأفكار التي استعرضناها حول بدء الخليقة أو بالأحرى تكوين الانسان الاول لا بد لنا من التعرض الى آراء الفيلسوف الحقاني الكبير الذي ساهم مساهمة فعالة في جلاء بعض الغوامض التي تحيط بنشوء الانسان الاول معتمدا على آراء وأفكار جديدة لا نلاحظها عند غيره من الفلاسفة والعلماء ، فهو يرى أن غيب الغيوب أبدع عالم الابداع دفعة واحدة بلا مكان ولا زمان صورا نورانية كثيرة لا يحصيها العدد ، متساوين

(١) كتاب المبدأ والمعاد للداعي الحقاني علي بن الوليد . مخطوطة في مكتبة الدكتور مصطفى غالب الخاصة رقم ١١٥ •

في الكمال الاول والوجود الاول ، الذي هو الحياة والقـدرة والقوة ، وكان ذلك بموجب عدله تعالى أن جعلهم سواء لا فضل لأحد منهم على الآخر • وكانوا في الكثرة على حال لا يحصى عددها دليلا على أن العقول لا تحيط بمبلغ فضله وجوده تعالى• فهم يسمون « عالم الابداع » و « العالم الروحاني » لكونهـم أرواحا نورانية لا كثافة فيها ولا تجسيم ، ولا يحويها مكان ولا احتاج مبدعها الى زمان • ودليل ذلك انا نجد نفوسنا وهي من ذلك كالجزء الحقير من الكل العظيم الخطير ، تقطع مسافة الشرق والغرب بجولان الخواطر في أقل من لمح البصر ، وتقـدر على تصور ما غاب عنها وادراكه من غير أن يحويها عن ذلك مكان ، أو تحتاج فيه الى زمان ، بل تحصر في فكرتها الجهات البعيدة ، بل السماوات والارض وما بينهما في أقل من لحظة • فاذا كان ذلك منا مع عجزنا وقصورنا وكون نفوسنا مرتبطة بأجسامنا ، فكيف بمن هو كامل متجرد عـن الاتحاد بالأجسام ؟ فهـي اذا – أعني صور عالم الابداع – على حالة من الجلالة والشرف والفضل والكمال تعجز عقول البشر عن ادراك مبدعها ، بل هو متعال عن ذلك علوا كبيرا • ثم أن صورة من تلك الصور المبدعة نظر الى ذاته والى أبناء جنسه وتفكر فيهم ، فهجم بفكرته من ذاته بغير معلم ولا ملهم ، وعلم أن له ولهم مبدعا هو بخلافهم يعجز عن ادراكه ، فنفى الالهية عنه وعن أبناء جنسه وشهد بها لمبدعه ، واستحق بهذا الفعل أن يسمى « أولا » و « سابقا » وهو المسمى بـ « العقل الاول » و « المبدع الاول » و « القلم » •

ثم طرقته من مبدعه جل وعلا مادة خصته دون سائر أبناء جنسه مجاراة له على ما كان من توحيده وتسبيحه واعترافـه

بالالهية لمبدعه ، اطلع بتلك المادة على علم ما كان وما سيكون ، وامتاز بالشرف بها والجلالة والعظمة على جميع عالم الابداع ، واستحق بذلك أن يقع عليه اسم الالهية لوجهين : أحدهما أنه « وَلَهَ » وتحير في ادراك مبدعه وعجز عن ذلك ، والوجه الثاني أن جميع عالم الابداع « ولهوا » فيه ، وتحيروا في جلالته وعظمته التي خص بها لما كان من فعله . ويسمى أيضا بالالهية لـ « الهانيته » واشتياقه الى ادراك جلالة مبدعه والعجز عن ذلك يرده . فجميع ما ذكرناه وقع عليه اسم الالهية ، وهو أزلي الغاية لا أزلي الاول . ثم انه فطن لما فطن له هذا الحد العظيم صورتان من تلك الصور ، فنظر كنظره ونفيا الالهية عن ذاتهما وعن أبناء جنسهما واعترفا بها لمبدعهما ، وشهدا له بذلك ، واعترفا للسابق عليهما بالفضل وشرف السبق ، وسمي بفعلهما ذلك « منبعثين » لأنهما انبعثا مقتدين بالأول وفعله .

وكان أحدهما أسبق من الآخر الى ذلك التسبيح والتقديس والتوحيد ، واستحق لسبقه أن اتخذه العقل الاول السابق له بابا وحجابا يخاطب منه من دونه ، وأمده من المادة التي طرقته من مبدعه ، بما شرف به على المنبعث الثاني وعلى كافة أبناء جنسه ، وعلم بذلك ما كان وما سيكون ، وهو المسمى بـ « النفس الكلية » وبـ « الانبعاث الأول » وبـ « اللوح » . ولم يعترف المنبعث الثاني بفضل السبق للمنبعث الاول ، وتوهم أنه مساو له . فكان ذلك التوهم خطأ أكسبه تأخرا عن مرتبته وانحطاطا عن منزلته ، ثم ان العقل الاول الذي قد صار حجابا له وبابا . فأجابه من تلك الصور المبدعة سبعة عقول كل واحد منهم بعد الثاني ، وفي ضمن كل عقل منهم من تلك الصور المبدعة عالم

لا يحصيها العدد ، هو لهم ـ ذلك العقل ـ كالرئيس والامـام والقدوة لسبقه عليهم ، وهم له كالأتباع والمقتدين به • فصارت مراتب عالم الابداع تسعـة : العقـل الاول والانبعاث الاول والسبعة العقول المجيبة للدعوة • ثم ان المنبعث الثاني لما سقط عن مرتبته بما كان من توهمه وسبقه العقول باجابتها واعتراف كل مسبوق منهم بفضل سابقه ، لاذ المنبعث الثاني بآخر تلك العقول ـ وهو التاسع ـ مستخبرا له عن حالته وما الذي حطه عن رتبته • فاعلمه أن الذي حطه عن رتبته هو توهمه المساواة لسابقه • فتشفع به الى من هو فوقه ، وشفع له من فوقه الى من فوقه ، حتى انتهت الشفاعة الى العقل الثاني الذي هو المنبعث الاول • فعلم أن المنبعث الثاني قد ندم على ما سبق منه ، وان لم يتعمد ذلك ولا أصر • فتاب عليه من زلته وغفر له خطئه ، وأمده من فيض المادة الأزلية التي اتصلت به من سابقه ، التي أمد بها جميع تلك العقول عند اجابتها • فزالت به عن المنبعث الثاني تلك الظلمة الحادثة عن ذلك الوهم الفاسد وفارقته • وعلم بتلك المادة ما كان وما سيكون ، وترتب في المرتبة العاشرة، فصار بعد أن كان ثانيا في الانبعاث ثالثا في العدد ، عاشرا في الرتبة • وحصل له بتلك المادة ولجميع العقول السابقـة عليه الكمال الثاني والوجود الثاني الذي به تأزلوا وعصموا وأمنوا من الاستحالة والفناء •

وكان قد بقي من تلك الصور الابداعية عالم لا يحصيهم العدد تأخروا عن الاجابة للدعوة مع تلك العقول ، وتخلفوا مقتدين في تخلفهم بالعاشر • فلما تاب واتصلت به المادة كما قلنا بشفاعة تلك العقول ـ وهي الكلمات التي تلقاها آدم من

ربه ـ لأنه آدم الروحاني الذي قال الله فيه « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم (١) » • قيل له حينئذ : « اقبل على المقتدين بك في التخلف ، فادعهم وخلصهم عما وقعوا فيه ، فانه من كسر عظما ، فعليه جبره » • فعطف على أولئك المتخلفين وقال لهم : « انا قد زللنا وأخطأنا في تركنا الاعتراف بفضل السابق علينا » وقد تبت عما سلف مني فتوبوا أنتم تسعدوا وتفوزوا ، فقالوا بأجمعهم « لا فضل لهم علينا ولا لك ، لأننا كلنا ابداع المبدع تعالى ، أبدعنا سواء » • فلما قالوا ذلك ، أظلمت ذواتهم بعد انارتها • فلما نظروا الى ما أصابهم من الظلمة ، أنكروها واستوحشوا منها ، والتأم بعضهم الى بعض ، وهم المكنى عنهم بـ « الهيولى الأولى ـ » •

فتحركوا معا حركة يريدون بها التلافي مما وقعوا فيه • فحدث من حركتهم تلك في ذواتهم الطول الاول • فأنكروه واستوحشوا منه أعظم مما سلف ، فتحركوا حركة ثالثة حدث منها العرض الاول ، فصاروا جسما واحدا ممتزجا بعضه ببعض ، فكانت تلك الحركات من حكمة العاشر المتولي لتدبيرهم ، لأنه علم بما ظهر له منهم من العصيان ، أنه لا خلاص لهم في عالم الصفاء لأنه عالم منزه عن المخالفة والعصيان • فحركهم حتى صاروا جسما كليا ليجعل منه لهم ادارات وآلات يستخلصهم بها ، ودعوة يقيمها للنجاة من يقبل منهم أولا فأولا ، كما سنبينه بعد ذلك ان شاء الله • وذلك انهم كانوا في عصيانهم للعاشر متفاوتين في الضمائر فمنهم النادم المستغفر ، ومنهم الشاك المتحير ، ومنهم المصر المستكبر ، فلما صار الكل جسما

---

(١) سورة البقرة الاية ٣٧ •

واحدا وهبط عن عالم الصفاء للكثافة التي أصابته ، لأنه من شأن كل كثيف الهبوط ومن شأن اللطيف إلصعود والعلو ، فجعل الحكيم المدبر أصفى الهابط أفلاكا وكواكب ، وأوسطه أمهات ، وأكثفه صخرة تسمى المركز ، وهي بأسفل الارض ، وكان ذلك من العدل والحكمة ان جعل كل فريق حيث يستحقه لسابق نيته وضميره • فلما هوت الكثافة ساقطة ، وقد كان عند تلك الحركات الأولى من المتحرك أوتاد الفلك وهي الطالع — وهو الذي يكون في أفق المشرق — والغارب — وهو البرج الذي يكون في أفق المغرب — والعاشر — وهو البرج الذي يكون تحت الارض — فلما هوت تلك الكثافة ، وتجاذبتها تلك الأوتاد من جهاتها ، وقطبا الفلك من جهة الشمال والجنوب ، فوقفت في وسط الفلك وصار الفلك المحيط بها من جميع جهاتها ، والارض وما عليها واقفة في وسطه كمثل مح البيضة الاصفر المحيط به البياض والقشر من جميع جهاته •

ثم انفتق الجو وترتبت الأفلاك تسعة أفلاك ، كل فلك منها في ضمن الآخر • والفلك المحيط يحيط بالجميع ، ويحرك جميع الأفلاك في كل يوم وليلة حركة كلية الهية بقوة المدبر ومادته من المشرق الى المغرب • وترتبت الافلاك السبعة السيارة كل كوكب منها في فلك • وصارت جميع النجوم في الفلك الثامن المسمى « فلك الروح » مقسمة اثني عشرة قسما ، كل قسم منها برج ، وصار الفلك التاسع خاليا لا شيء فيه من البروج والكواكب للطافته وشرفه • فلما تحرك الفلك الحركة الأولية ، رمت الكواكب بأشعتها نحو الارض ، وقد كان بقي على وجهها شيء من جنس الفلك ، فجذبته الكواكب الى ذواتها ، وصيرته

لها أصدافا مشرقة وهو النور الذي يدركه البصر من النجوم ، والا فهي كانت قبل وهمية كالأفلاك لا تراها الابصار ، فجعل المدبر تلك الاصداف بحكمته لانارة العالم الظلماني الجسماني ولأن تدرك حواس البشر ذلك ، فيحق عندهم قدرة المدبر تعالى من أقدره • وصحة وجود العالم الفلكي • ولما تحرك الفلك ، صار ما يليه من الجو المنفتق ــ الذي في ضمن فلك القمر ــ في نهاية الحرارة واليبس ، وذلك طبع النار ، فسمي « الأثير » وهو احدى الأمهات الاربع وأولها ، وهو مركز النار ومعدنها ، الا أنها فيه غير مرئية بالأبصار ، ولو ظهر ضوؤها لمنع الابصار عن ادراك عالم الأفلاك • فكان احتجاب ضوءها حكمة من المدبر تعالى من أقدره لذلك • ثم صار ما يلي الأثير من الجو حارا رطبا لبعده عن الحركة الفلكية فاعتدل ، فسمي الهواء الذي هو ثاني الأمهات الاربع • ثم صار ما يلي ذلك من الجو باردا رطبا سيالا ، هو مركز الماء وهو ثالث الأمهات الاربع • ثم كانت الارض وما يليها من الجو في نهاية البرد واليبس لشدة بعدهما عن الفلك ، وهو رابع الأمهات • فلما أراد المدبر أن يجعل الارض مقرا لظهور ما يظهره من المواليد ــ التي هي المعدن والنبات والحيوان ــ وكانت وما يليها من الجو ــ في نهاية الافراط في البرد واليبس ، فحرك الفلك ، فرمت الكواكب بأشعتها نحو الارض ، وقد كانت صخرة صلدة لشدة بردها ويبسها • فلم تجد الأشعة فيها منفذا لصلابتها ، فرجعت منعكسة ، فسخنت وجه الارض وما يليها من الهواء ، وصيرته معتدلا ، بين الحر والبرد واليبوسة والرطوبة ، وسمي ذلك « كرة النسيم » وهو بالحقيقة مركز الماء الذي عنه يحدث ، كما سنذكره فيما بعد ، ان شاء الله • وكان انعكاس

الأشعة الى حد ما سخن من الهواء ، وبقي ذلك الهواء الذي لم تبلغه أشعة الكواكب راجعة على طبعه الاول باردا يابسا ، وهو أعلى مركز النسيم ، ويسمى « الزمهرير » ثم ان المدبر تعالى من أقدره • صرف تدبير العالم الى زحل بمادته في تحريكه الفلك، فدبر العالم ألف سنة • فامتزجت الطبائع المذكورة بعضها ببعض ، وحدثت البخارات والضباب والامطار المتواترة الغير النافعة ، وصارت الارض بحرا مواجا ، وتمخر في ذلك الألف ما يشاكل طبع زحل من الحديد والاحجار ، وصارت الارض مغمورة بالمياه ، وميز كل جنس من الاشياء الى جنسه ، وخمر خمائر السودان والوزاع وأهل الشقاء والنكال أجمع •

ثم ان المشتري رافد زحل في التدبير ألف سنة ثانية • فجفف بحرارته أكثر الرطوبات ، وميز ما يشاكل طبعه من الأشياء المحمودة عما مازجها من المذموم ، وخمر الخمائر التي تشاكل طبيعته الشريفة من أهل الدين والعفاف ، ونبت في دوره أول النبات ، ودب الدبيب ، وحدث النمل والوزع وبنات وردان •

ثم ان المريخ رافد زحل في التدبير ألف سنة ثالثة • وهما نحسا الفلك ــ أعني زحل والمريخ ــ فجفف المريخ بحرارته أكثر تلك الرطوبات ونشفها ، وفتت الجبال المنعقدة في ألف زحل وصيرها رملا ، وظهر في وقته صغار الحيوانات الشريرة كالفأر والسنانير وما يشاكل ذلك من السباع والهوام وذوات السموم ، وخمر خمائر القواد والأجناس والشجعان ، ومن المعدن والنبات وما يشاكل طبعهما • ثم ان الشمس رافدت زحل في التدبير ألف سنة رابعة • فأزالت تلك الظلم والضباب من وجه الارض ، وعدلت الأمطار بعض الاعتدال وخمرت خمائر الملوك والعظماء

وما يجانسها من الاشياء الشريفة كالياقوت والذهب وما يجانسها من الحيوانات ، واعتدل الجو بعض الاعتدال • ثم ان الزهرة رافدت زحل ألف سنة خامسة • فخمرت خمائر العرب والنساء وأهل اللهو والطرب ، ونبعت العيون العذبة ، فنزلت الامطار معتدلة ، وظهر في تدبيرها الاشجار المثمرة الطيبة الروايح ، وظهرت الطير وانتشرت في الهواء ، وتكونت الحيوانات المعتدلة النافعة وكل ذلك مقدمة لظهور الشخص البشري • ثم ان عطارد رافد زحل في التدبير ألف سنة سادسة ، فزادت الامطار اعتدالا والطبائع تهذيبا ، فخمرت خُمائر الكتاب والوزراء والحساب ، وكثرت في ألفه النباتات المعتدلة المغذية والحيوانات المحللة ، ثم كان في آخر تدبيره ، وأول تدبير القمر ظهور الشخص البشري نباتا من الارض كما قال الله « والله أنبتكم من الأرض نباتا (١) » •

بدء الخلق الجسماني عند علي بن الوليد :

ونرى المؤلف يصف ما دبره المدبر تعالى في الخلق الجسماني فيقول : « ان المدبر تعالى حرك الفلك ، فصعدت البخارات الحادثة من صفو المعدن والنبات والحيوان ، فصارت غيوما ، ثم انهملت على وجه الارض أمطارا صافية معتدلة ، وخددت الأرض خددا غير عميقة ، وقد صفا ذلك الماء في عمقها ، ثم بخارا على ألطف وأشرف وأصفى من الاول ، فانهمل مطرا كثيرا نظير منى الرجل • فوقع في تلك المغارات والخدد التي

(١) سورة نوح الاية ١٧ •

شبيهة بارحام النساء ، فمازج الماء الكائن فيها المشاكل لماء المرأة ، فصار شيئا واحدا ٠

ثم أسخنته حرارة الارض فصعد هاربا من الحر ، فلحقه برد النسيم من خارج الخدد ٠ فهبط منه هاربا ٠ ثم لم يزل يهبط تارة ويصعد تارة ، وهو يقتصر ويتلطف وينعقد ويتكون في مراتب الخلقة مدة تسعة أشهر بتدبير المدبر ، وتأثير قوى الكواكب والأفلاك فيه الى أن كملت له المدة ٠ ثم فتح عينه وحواسه ، واستنشق النسيم ، واتصلت به الحياة المحيية الحسية بواسطة النسيم ، فتمدد تارة وقعد تارة ، وجعل يتمرغ ببدنه في ذلك الماء الذي تكون منه ، ويجتذبه بمسام بدنه وقد صار دهنا ٠ ثم طلب الغذاء من فمه ، وقد كان أولا يغتذي من صفو ذلك الدهن ، فجعل يمتص اصبعه الابهام ، فأجرى الله له فيها لبنا خالصا سائغا للشاربين ، فاغتذى به ، فجعل ينام تارة ويقعد تارة الى أن كمل له سنة ٠ ثم قام وهو يومئذ في كبر جثته كمثل ابن أربع سنين ٠ وذلك لكبر الأبوين اللذين هما السماء والأرض ٠ فمشي وتناول بما قرب من التين والعنب والفواكه التي قد كان قدمها له المدبر سبحانه وكان هذا النشوء الحادث في جميع جزائر الارض الاثنتا عشرة ٠ وتكون من فضلات تلك المياه اناث ، وكان النشوء الاول كلهم ذكورا ، وكان المدبر تعالى قد ميز من تلك المياه أصفاها وأشرفها وأفضلها ، وساقه الى أشرف البقاع في أول الكون ، وهي جزيرة (سرنديب) لأنها موضع الاعتدال من الأرض يومئذ ، في تلك الخدد ٠ وفي تلك الخدد ثمانية وعشرون شخصا هم في الشرف والفضل على سائر البشر بمنزلة الياقوت الاحمر في شرفه على الاحجار ، وفيهم

ـ أعني الثمانية والعشرون شخصا ـ شخص واحد عليهم من الشرف والفضل ما للياقوت الاحمر على الاحجار وهو زبدة العالم وصفوته وخلاصه . وهذا الشرف الحاصل لهذه الثمانية والعشرين شخصا على سائر البشر . وللواحد على السبعة والعشرين ، هو من أجل صفاء النية وكثرة الندم على الخطيئة عند دعوة العاشر لهم ، فكان هذا الوجود من صفوة العالم وزبدته وخلاصته وأشرفه . فلما ظهر من تلك الخدد كظهور أبناء جنسه ، نظر من ذاته بذاته من غير معلم ولا ملهم الى العالم . فرأى سماء مبنية وأرضا مدحية وأصنافا من الخلائق مختلفة ، فعلم بفكرته وهجم بذاته على الحق . فعلم أن له ولأبناء جنسه وللعالم كافة مبدعا هو بخلافهم . فنفى الالهية عنه وعنهم وأقر بها لمبدعهم وشهد بها لخالقهم . فقام في العالم الداني مقام السابق الاول في العالم الروحاني . فاتصل به قسطه من المادة والتأييد عن السابق الاول بوساطة سائر العقول الابداعية بواسطة حده الموجد له المستخرج من عالم الطبيعة ، الذي هو العاشر مدبر عالم الطبيعة . فشرف بتلك المادة التي واصلته على أبناء جنسه ، وعلم بها ما كان وما سيكون . ثم أقبل على السبعة والعشرين من الشخص الذين كانوا معه ، فدعاهم الى الاقرار لله بالوحدانية والاعتراف له تعالى بالالهية ونفيها عنهم جميعا . فأجابوا الى ذلك ؟ فكان جميع ذلك حقيقة قول الله « شهد الله أن لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط اله الا هو العزيز الحكيم (١) » فكان اسم الله واقعا على العقل الأول السابق في عالم الابداع ، والملائكة تلك العقول المبادرة

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٨

الى الاجابة للدعوة الشاهدة بما شهد به · وكان أولوا العلم هو هذا الشخص الفاضل صاحب الجنة الابداعية وحدوده السبعة والعشرون المجيبون لدعوته الشاهدون بما شهد به · وكني عنهم بأولي العلم ، لأنهم محل التأييد والمادة التي هو العلم الحقيقي الذي أمد به واحدهم وأمنهم به على قدر مراتبهم في الصفاء والاجابة · فاعلم ذلك · ثم ان القمر رافد زحل في التدبير ألف سنة ، وهي ألف السعادة وقيام الدعوة الشريفة واجتماع قوى الكواكب جميعا · ثم ان هذا الشخص الفاضل فرق من السبعة والعشرين اثني عشر في جزائر الارض الاثنتا عشرة يدعوهم الى عبادة الله وطاعته ، ويعلمونهم علم المعاش والمعاد · وعلم كل واحد منهم لغة أرسل اليهم ، لأن لأهل كل جزيرة لغة · وهو معنى قوله « ما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه (١) » · ولولا الوحي والتأييد المتصل بذلك الشخص الفاضل واطلاعه به على كل ما في العالم مما كان وما سيكون ، ما قدر أحد من البشر أن يعلم من تلقاء نفسه خواص المعادن والنبات والحيوان ومنافع ذلك ومضاره وأدويته النافعة ، وسمومه القاتلة ، وهذا تحقيق ما أخبر به بقوله تعالى « علم آدم الأسماء كلها (٢) » · لأن هذا الشخص الفاضل هو آدم الاول وهو أبو البشر من حيث أنه معلمهم أو معاشهم وأمر معادهم ، فهو سبب حياتهم في الدنيا والآخرة ·

فلولا فضل الله عليهم بامدادهم بما أمده مما استحقه

---

(١) سورة : ابراهيم الاية ٤.
(٢) سورة : البقرة الاية ٢٩ .

لتسبيحه وتقديسه له تعالى ، لهلكوا • فتقدم كل داع الى جزيرته • فعلمهم أولا كيف يتخذون من الشجرة الثياب ، وكيف يتناولون منها ومن المعادن والحيوان الغذاء ، وعلمهم طريق النجاة بعبادة الله وطاعته وطاعة وليه المصطفى في أرضه صلوات الله عليه •

وأقام هذا الشخص الفاضل بحضرته اثني عشر شخصا (حجج الليل) وهم أفضل السبعة والعشرين ، منهم أربعة يسمون (الحرم) هم أفضل من الثمانية • ومن الأربعة واحد هو أفضلهم ، وهو الباب لذلك المقام الكريم ، ونصب مع داعيه في جزيرته مكاسرا ومأذونا مطلقا وداعيا محصورا • وهذه المراتب محفوظة لا تنقطع مع كل ناطق في دوره ووصي في عصره وامام في زمانه • ثم ان كل داع أمر أهل جزيرته بأن يتزوج كل واحد منهم بالأنثى التي تكونت في مغارة غيره ، ولا يتزوج بالأنثى التي تكونت معه في مغارته وظهرت منها عن فضلة ماءه ؟ فهي له كالأخت لا يحل له نكاحها ، فهذه طريقة أهل الحق الطاهرة المنزه عليها ، (لا ما يعتقده الجهلة من أهل الظاهر من أن آدم زوج أولاده البطن الاول بالبطن الثاني فيكون أهل النشوء سفاها) ، نعوذ بالله من ذلك ، وانما سمعوا ما لم يعلموا حقيقته • والصحيح ما قد ذكرناه • والحمد لله الذي هو أنا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله • وكانت هذه الولادة من الارض تلك الدفعة الواحدة الأولة لا غير ، ورجعت من التناسل بين الرجال والنساء الى الآن • ثم جرت الدعوة الى أن استخرج ذلك الشخص الفاضل ولده الكريم الذي يخلفه في مقامه من حدوده وأهل دعوته •

فهذه حقيقة الابتداء مصرحة بغير رمز ولا اشارة فخذ ما آتيناك وكن من الشاكرين لموالينا على ما أنعموا به علينا ، كافأهم الله بالحسنى ، والحمد لله رب العالمين ٠

رأينا في مجمل الأفكار التي استعرضناها

نحن وتطورية داروين :

الأفكار والآراء التي استعرضناها حول بدء الانسان الاول ونشوء الحياة في هذا الكون المترامي الاطراف ، لا بد لنا من مناقشتها وابداء الرأي في منطلقاتها ليتسنى لنا اظهار الحقيقة الجوهرية الناصعة التي تنسجم مع ما يتفاعل في أعماقنا ووجداننا من ايمان عميق في الأديان السماوية كلها ، باعتبارها طرقات وان تفرعت مسالكها فهي توصل بما لا شك فيه الى القدرة الالهية السرمدية التي أبدعت هذا الكون بحدوده العلوية والسفلية ٠ وأول رأي قد استعرضناه كان نظرية التطور التي أوجدها « تشارلز داروين » الذي يلخص نظريته القائلة بأن جميع أشكال الحياة المتمثلة في الانواع المتعددة الموجودة فعلا ، تعود الى أصل واحد أو أصول متعددة ٠ ذلك لأنه يرى أن الاصل الواحد هو الذي تطورت منه هذه الأنواع خلال ملايين السنين الى أن اتخذت أشكالها التي نراها عليها الآن ٠ ولربما دار في مخيلتنا السؤال عن كيفية امكان تفسير هذا التنوع والاختلاف مع وجوب وحدة الأصل ، ولكن داروين يرى أن تفسير ذلك يكون بقانون أساسي سماه « قانون تنازع البقاء » ولم يقف داروين في تحليله لهذه الأمور عند حد اظهار هذا القانون ، بل أوجد نظرية أخرى تعرف بالملائمة بين الحي والبيئة الخارجية ،

بالاضافة الى قانون استعمال الاعضاء أو عدم استعمالها تحت تأثير هذه البيئة ، كما قال بقانون الوراثة • وفي ضوء هذه المنطلقات الداروينية التي نعلن عن شجبها واستهجانها للأسباب التالية :

١ ـ ان دعوته التشابه بين نوع ونوع آخر في سلسلة من الانواع قد كشفت عنه مراحل تطور الجنس البشري والحيوانات وعلم التشريح ، والتحليلات المخبرية ، فليس من المعقول بعد هذه الاكتشافات أن نوافق داروين رأيه في وجود أصل مشترك بين الانواع المختلفة ، لأن مجرد التوافق في الشكل بين بعض أعضاء الجسم الانساني ، وبعض أنواع القرود لا يمكن أن يكون دليلا بينا على أن الانسان يمت بأية صلة لتلك الانواع ، أو بالأحرى أن تلك الانواع أصل لذلك الانسان • فداروين برأينا لا يمسك بالأدلة المباشرة التي تدعم ما ذهب اليه ، لأن الاشكال الموجودة فعلا قد طرأت عليها تعديلات متعددة منذ وجودها حتى وصلت الى الحالة التي نراها عليها الآن ، فهذا الأمر من الصعب اثبات حدوثه ، وخاصة التعديلات التي حدثت عليه ، اذ كيف نؤمن بتعديلات طرأت على نوع من الانواع دون أن نلمس حدوث هذا التعديل في أي شكل من أشكال الحياة • أما الفوارق والمزايا التي قد توجد في فرد من أفراد النوع ولا توجد في آخر فيها ، كقابلية الوراثة ليس بمقدور أي عالم أن يقدم الدليل الواضح لوجود مثل هذه الفوارق والتنوعات بين أفراد نـوع واحد • نحن لا ننكر أن هناك ثغرات واسعة في سلسلة النمو التدريجي المزعوم ، فلو أخذنا مثلا الانسان الذي يحاول هؤلاء أن يؤكدوا صلة القرابة بينه وبين القرد باعتباره النوع الأرقى

في سلسلة نوع هذا الحيوان المتدرج ، ولكننا ليس بمقدورنا أن نلمس هذا الانسجام بين سلسلة كاملة من الاشكال التي تبدأ من أحسن الاشكال في المخلوقات حتى تصل الى الانسان الذي يعتبر أرقاها لأننا سندخل في دوامة معقدة لا تمكننا من اثبات أي تغيير بوجود مثل هذه الثغرات • فاذا كان الانسان قد وجد كما يزعمون نتيجة تعديل تم على مراحل في أشكال سابقة من القردة ، فلا ندري كيف تحول القرد في مرحلته الاخيرة ، من حيوان الى انسان ولا أدري اذا كان بمقدور أصحاب التطور أن يفسروا لنا هذه النقلة • ولو فرضنا أن قانون التطور والارتقاء صحيحا كما قال به داروين لوجب أن تكون الحيوانات البحرية الدنيا المعروفة في زمننا مختلفة تماما عنها في العصور القديمة مع أن العلم أثبت أنها بقيت محتفظة بأشكالها وخصائصها التي كانت عليها منذ أول تكوينها • ورأينا الأخير ان الانسان باعتباره خليفة الله في أرضه ، له ميزات ومناقب سامية يتميز بها عن غيره من المخلوقات وليس من المعقول مهما حللنا وذهبنا بعيدا في مناقشاتنا لهذه الأمور ، أن يجعل الله القرد انسانا أو الانسان قردا ، لأنه عندما أوجد موجوداته نوعها وخصص لكل نوع خصائص يمتاز بها عن الأخرى •

فنظرية التطور اذا مرفوضة بالنسبة الينا على ضوء ما ورد في الأديان السماوية ، فهي لا تعد أن تكون سخافة لا يؤيدها المنطق ولا العلم • فالانسان سيظل أبدا ذلك الانسان الكائن المتفرد من بين موجودات الله سبحانه وتعالى يتربع منذ أول وجوده على القمة باعتباره خليفة الخالق على الارض ، يطور الأفكار ويبلورها متزودا بالمعارف العقلية التي توفر له السعادة والكمال المطلق •

رأينا في المذاهب القديمة :

مما لا شك فيه ان آراء حكماء المذاهب القديمة على مختلف أنواعها قد تطرقت عند معالجتها للأفكار النشوئية المتصلة بوجود الانسان الاول ، أو بالأحرى وجود الموجودات قد ربطوا تأثير الكواكب واشتراكها بعضها مع بعض في أسباب العلة الأولى التي نشأت بموجبها الكائنات الحية على كوكبا الارضين معتبرين أن هذه الكائنات قد وجدت عن طريق تفاعل الكواكب السيارة مع عناصر الارض ، لتستمر الحياة فيها · ومن هؤلاء الحكماء ، حكماء بابل وأشور ومصر · والجدير بالملاحظة أن هؤلاء لم يغفلوا عن وسم هذه التفاعلات ومزجها بالمعجزة الالهية التي كان لها الفضل في خلق الانسان مع المادة التي صنع منها باعتبارها نفخة الباري التي نفخها في الانسان ، ولما كملت عملية النفخ هذه في رأيهم ، أثَّرت الطبيعة في تلك المادة فتقلبت في أطوار النشوء حتى بلغت في النهاية الصورة البشرية انطلاقا من هذه الافكار التي قد تكون بالنسبة للعصور التي وجدت فيها والتي كانت مليئة بالأساطير والخرافات والمعاجز ، قريبة نوعا ما من الافكار العقلانية التي بلورت في عملية النشوء بشكلها المعروف لدى حكماء اليونان وبعض فلاسفة المسلمين ، الا أننا قبل أن نقر تأثير الكواكب السيارة في عملية النشوء ، لا بد لنا من التطلع الى عملية الابداع الروحانية ومدى تأثير هذه العملية على الكواكب وبنفس الوقت على الكرة الارضية وما عليها من موجودات ·

ونحن لا ننكر أن المبدع الذي أبدع كافة الموجودات العلوية

والسفلية وحتى الفلكية ، قد أبدع من ذاته عقولا نورانية وصورا روحانية لتتحكم في كافة موجوداته وفق نظام دقيق يشرف على تنظيمها وترتيبها وتفاعلاتها • وعن طريق عملية الابداع وجدت الصورة والهيولى التي تشكل منها الانسان الأول ، وازداد عدده عن طريق التناسل •

ماذا يقول المسيحية :

يبدو أن المسيحية قد تأثروا بما ورد في التوراة حول عملية نشوء الخليقة ، ولكنهم يردون نشوء الجنس البشري الى الخطيئة التي ارتكبت وأدت الى هبوط آدم وحواء الى العالم الارضي ، حيث تزوجا وأنجبا البنين والبنات • ولما كنا نؤمن بما ورد في الكتب المقدسة ، لا بد لنا من أن نتسائل عن ماهية تلك الخطيئة التي ارتكبت ؟ ومن هو الذي ارتكبها ؟ لأن الآراء المسيحية لا تساعدنا على الرد على كل هذه التساؤلات • ومأخذنا الوحيد على الولادة الجسمانية التي ذكروها ، أي أن آدم وحواء هما أساس الصورة البشرية • فقضية الجنس البشري من ذكر واحد وامرأة واحدة مشكوك فيه ، ولا نعتقد بأن الله سبحانه وتعالى يشبه مربِّي الأغنام حتى يغفلوا عن عملية التكاثر من ذكر واحد وأنثى واحدة • ولا ندري ما هو المانع اذا كانت عملية الخلق قد تمت بواسطة مجموعة من الذكور والاناث عن طريق التناسل ؟!!•

النشوء الاسلامي :

ان المسلمين يرون بدء نشوء الخلق كما يرى أصحاب الأديان

السماوية الأخرى بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم وأسكنه الجنة وعهد اليه أن لا يقرب شجرة عرفه بها ونهاه عن أكلها ، ثم خلق من ضلعه حواء · فسول لهما الشيطان أن ياكلا من أثمار تلك الشجرة التي نهيا عن أكلها · فهبطا الى العالم الارضي جزاء ما اقترفت أيديهما من مخالفة صريحة لأوامره تعالى ، فتزوجا وأنجبا البنين والبنات مستدلين على الآيات القرآنية التالية « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا » · أما تفسيرهم لكيفية وجود الانسان الاول فيعتمد على قوله تعالى « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج » و « فلينظر الانسان مما خلق ، خلق من ماء دافق » · واذا كنا لسنا في مجال نقد الآراء الدينية باعتبارها مقدسة وهذه القدسية تحول بيننا وبين الاقتراب منها ولكننا لا بد لنا من الاستفسار عن كيفية ظهور العالم الطبيعي بما فيه من سماوات وأرض ونجوم وبروج دفعة واحدة ، وكيف لا تظهر المتولدات الطبيعية معه دفعة واحدة أيضا حتى لا تتعرض هذه الآراء المقدسة الى الوقوع في الشك ؟· واذا ذهبنا مع أصحاب الآراء السماوية المقدسة وأقرينا بامكانية وجود البشرية من ذكر واحد وأنثى واحدة عن طريق التناسل نكون قد وصفنا الخالق سبحانه وتعالى في مركز العجز ، وقد يرى البعض أننا ربما نلاحظ فيما نشاهده أنه بالامكان أن يتولد من انسان واحد الى ألف انسان على التناسل حتى يملأ العالم من ذريته ، ويهلك نشوئه ويخلف غيره ، فلا يبقى له ذكر فيجب أن يكون حسب هذا الرأي جميع الناس من رجل واحد ، كما ينهي أمر جميع الناس الى رجل واحد مثلا ، فيكون الواحد من الكثير ، كما كان الكثير من الواحد · فأما أن يكون واحد

لم يتقدمه كثير ، فلا يمكن أن يكون منه كثير هو متقدمه ، ولا بد لنا هنا أيضا من التساؤل اذا كان الانسان الذي يملأ العالم من نسله قد سبقه الخلق الكثير من نوعين ، فيمكن أن يتأخر الكثير من نسله ونوعه • والنوع باعتقادنا هنا لا يساوي الجنس المطلق عليه حركات الوحدانية ، لأن النوع أشد توحيدا من الشخص ، والجنس أشد توحيدا من النوع • ولما كان الشخص لا يساوي النوع ، والنوع أشد توحيدا من الشخص قلنا أن أمر نوع الانسان قد يقع على شخص واحد لا نظير له ، فقد وقع التساوي بين هذا الشخص وبين نوعه ، ثم يبطل النوع عن الفعل اذا قام الشخص مقامه • ولكن عندما تكثرت الاشخاص وجب نوع مبني على الكثرة • فاذا الاشخاص المنطقية اذ ليس الشخص بمتقدم على النوع ، وليس النوع بمتقدم على الجنس • وفي رأينا أن من يقول أن الله سبحانه وتعالى خلق أول انسان واحدا ، وخلق منه الخلق على التناسل ، فقد جعل منزلة الله ، منزلة مربي الماشية ، اذ تعمد مثلا الى شراء حيوانا ، فاذا أتى على هذا الحيوان سنون كثيرة حصل منه حيوانات كثيرة من ذلك النوع ، وبذلك يكون قد خدش قدرة الخالق ووصفها بالعجز ، فالله سبحانه وتعالى له القدرة على خلق الكثير دفعة واحدة ، كما خلق السموات والكواكب والأفلاك ؟!! •

أفكار النشوء الهندي :

نلاحظ ونحن نطالع الافكار الهندية حول خلق العالم المتنوع من الروح الواحدة أنها منطلقة على الغالب من الاساطير والخرافات التي تفشت بين الشعوب الهندية منذ القدم • وليست

هذه الافكار رغم أنها تعبر عن فلسفة خاصة بهم تنسجم مـع المنطلقات المعروفة لدى الأديان السماوية • واذا أردنا تحليلها عقلانيا وعرفانيا لاستغرق منا ذلك مجالا أوسع من مجال هذا الكتاب • لذلك نرى أن هذه الأفكار قد لاقت بعض الاستحسان في ظروف معينة ، وفي بيئات محددة ، وهي برأينا تختلف عن مجمل الآراء العرفانية المعروفة لدى كبار العلماء والفلاسفة الذين لا يؤمنون بالخرافات والأساطير ، بل يتمسكون بالحكمة الواقعية التي يتقبلها العقل والمنطق السليم • وعلى العموم يمكننا أن نستخلص من الافكار الهنديـة بعض الحكم الهادفـة الى خير الانسان وحضه على تجنب كل ما يسيء اليه من مساوىء وشرور •

الروح الاغريقية والرومانية :

مما لا شك فيه بأن علماء الاغريق وحكماء الرومان قـد اهتموا بأصل الانواع ووجودها في عالم الكون ، معتمدين على العوالم الماورائية والروحانية وما تتضمنه هذه العوالم مـن الأسرار والخفايا التي يردونها الى عدد كبير من الآلهة ، وزعوا اختصاصاتهم على نواحي متعددة من العوالم المؤثرة في عالـم الكون والفساد • ولم يغفل بعض الفلاسفـة الاغريقيين مـن التحدث عن الوجود النفسي وتعلـق الجسـد بالنفس والموت والحياة • ونلاحظ بأن سقراط كان من الحكماء الذين رسموا صورة واضحة لعالم الأرواح ، وذهب الى أن الجسد ليس سوى قميصا تسجن فيه الروح ، ولن يتيسر لهذه الروح الانطلاق من سجنها الا بعد أن تتزود بالفضائل والاعمال الخيرة التي تفيد مجتمعها • وفي عرفنا أن الآراء التي قال بها أرسطو وكانـت

أساسا ومنطلقا للفلسفة اليونانية بكاملها بالاضافة الى أنهـا أصبحت فيما بعد من مرتكزات الفلسفة الاسلامية التي طورت بعض العقول وشمخت بها الى عالم المعرفة الحقة ، لذلك نرى من الحكمة أن نقر بعض الآراء الفلسفية الرومانية والاغريقية المتعلقة بالخيرات والشرور ونستهجن بعض ما تخللها من خرافات وأساطير لا تمت الى الحقيقة بصلة نظرا لتعدد الآلهة وتنـوع أفعالها ، وفي بعض الأحيان تعارض مصالح الآلهة بعضها مـع بعض وحدوث الاقتتال والحروب لتعارض المهمات والمصالح الخاصة بكل اله من هذه الآلهة • وليست الروح عند الفراعنة في بعثها ونشورها وثوابها وعقابها وحياتها سوى نموذج من نماذج الخرافات والأساطير التي عرفت عند قدماء الهند والفرس وغيرهم من الشعوب القديمة مبنية على الوهم والخيال بدون أن يشتم منها أي منطلق عقلاني عرفاني واضح •

نحن والفلاسفة :

الآراء والافكار الفلسفية التي قدمناها في هذا الكتاب لا بد لنا من مناقشة بعضها وابداء الرأي فيه علنا نتمكن من القاء ضوء على المسالك العرفانية والدروب العقلانية التي سلكوها لايصالنا حسب وجهات نظر كل منهم الى الطريق الصحيح • ففلسفة « باسكال » التي تنطلق من نظرته الى حركات الكواكب والطيور في الهواء للتأكد على وجود الله ، غير أنه يضعها في مكان العجز عن ازالة الافكار الاساسية لوجود الله ، ومع ذلك فمحاولة باسكال الفلسفية قد تتسلل الى عقول بعض الملحدين المبتعدين عن حقيقة الدين فتنور قلوبهم بالايمان كون أفكاره

ليست سوى منطلقات يشع منها الايمان العميق بوجود الله وقدرته على الخلق والابداع فنحن مع باسكال في آرائه الايمانية ولكننا نقف موقف المعارض تجاه منطلقاته التحليلية لبعض القدرات الالهية ٠

أما ما يراه الفيلسوف « فيشته » من فروقات بين العلم والايمان مبني على تمايز حقيقي واقعي قائم على القلب للعقل، فرأيه قريبا من الحقيقة ومؤسس على الضمير الاخلاقي وكل ما يتفاعل في ذلك الضمير من احساسات وانفعالات عقلية ٠

ولا نخالف الآراء التي قال بها الفيلسوف « سبنسر » الذي حاول التوفيق بين العلم والدين لما تتمتع به أفكاره من جدية للتوفيق بين هاتين الهاميتين بالنسبة للانسان العارف المؤمن وخاصة ما يتعلق منها بانتقاده لبعض الخرافات والطقوس التي لا تنسجم مع العلم ، أو من ناحية انتقاده للمادية على أساس أنها قضية مسلمة بها ٠ فالعقل والمادة ظواهر نسبية برأيه وهما معلول مزدوج لعلة نهائية ينبغي أن تظل طبيعية مجهولة ٠ أما ما يذهب اليه الفيلسوف « جورج سانتيانا » من فذلكات وتبريرات لمذهب الطبيعيين فلا نقول عنه الا أنه في طليعة أولئك الملحدين الذين يبدون آرائهم انطلاقا من الشك والتردد بين الانكار والايمان ٠ ولنا حول آراء الفيلسوف « راسل » موقف يختلف عن مواقفنا من الفلاسفة الآخرين وخاصة أولئك الذين وقفوا فلسفتهم على التنكر للأديان ومحاولة طمس معالمها باعتبارها ليست سوى مخدرات لأبناء البشر ٠

وليست نظرته والحاحه أن تكون الفلسفة علمية المنهج بحيث

تقلع عما تعودته من ضرب في التأملات التي ترتكز على الخيال والوهم تنطبق مع الحقيقة والواقع ، لأن الفلسفة بمفهومها الديني الحقاني بعيدة تمام البعد عن الخيال والتأملات الوهمية لأنها تنطلق من العقل وتغوص في جوهر النفس والروح فلا مجال للوهم والخيال في جوهرها العرفاني ٠ أما ما يذهب اليه راسل في فلسفته من أن الانسان لم يعد لا روح ولا مادة ، لأن ليس هناك ما يدل على الروح وما يدل على مادة الانسان أو بالأحرى شكله المادي ، فمحض انحراف عن القواعد الدينية والعقلانية وانكار لوجود الخالق الذي أبدع الروح والمادة ، فالنظريات الوهمية التي بنى عليها راسل فلسفته المنطقية الذرية لن يتسع هذا المقام لمناقشتها مع اعترافنا بأنه ربما كانت هناك بعض جوانب الصدق المرتكزة على معادلات المادة والطاقة ٠

والذي يعجبنا في قول الفيلسوف « ديكارت » أن الله هو القدرة الفاعلة في الوجود والموجودات أن هذا الرأي ينسجم مع تطلعاتنا الحقانية التي ترى أن الله المبدع هو الذي أوجد الموجودات العلوية والسفلية وحرك الكواكب والافلاك لتدل بحركتها وانفعالاتها على قدرته السامية المقدسة ٠ وليس غريبا عن ديكارت الذي شك أنه في جسم أو في وجود عالم مادي يعيش فيه ولكنه مع هذا الشك ظل معترفا بوجود الله الذي يمد الانسان بالخير والسعادة والهناء باعتباره الكائن الكامل اللامتناهي علة لوجود كافة المخلوقات ، ولا نستغرب بعد أن يثبت « ديكارت » ان الله موجود علما يقينا أنه هو موجود أيضا بمعنى أن له نفس متميزة عن بدنه وهي قادرة أن تبقى بدونه

كونها خالدة لا تموت • وطالما أن الله موجود بكماله وعظمته فلا بد أن يضمن هذا الكامل التام ، وجود العالم الخارجي ، غير أن ديكارت يلاحظ أن حواسنا التي أمكننا عن طريقها اثبات وجود هذا الموجود ليست سوى أفكار غامضة مبهمة لا تؤدي الى اليقين ، واليقين برأيه يأتي عن طريق معرفتنا لأنفسنا وما يتفاعل فيها من خلجات عرفانية ووعي مباشر بالوجود الزمني وهذه هي ظاهرة الوجود الزمني النفساني التي تأكد وجود الله • ومن هنا كانت نظريته في الخلق المستمر التي شرحها ووسطها وطابقها على كافة المخلوقات ، فجاءت منسجمة مع الاقرار بوجود صانع مبدع لهذا العالم يخلقه في أية لحظة من الامتداد والحركة الهندسية •

كيف نفهم فلسفة أرسطو :

ايماننا بآراء أرسطو العرفانية ينطلق من أفكاره المبنية على ضرورة معرفة جوهر النفس الانسانية وذاتها ، والاقرار بوجود علة محركة لهذه النفس نحو الانفعالات الخيرة ، والاستجابات الذاتية التي تؤهلها للانتقال من حد القوة الى حد الفعل حيث التمام والكمال والسعادة •

وربما التقينا معه أيضا في أفكاره المتصلة بتحديد العلة الأولى وماهيتها باعتبارها الحركة الأولى المسببة لوجود كافة الموجودات العلوية والسفلية ، وأن هذه العلة قديمة قدم الوجود وانفعالاته وحركاته • وفي رأينا أن ما ذهب اليه أرسطو في تحديد العلة الأولى يدل على ايمانه العميق بوجود المبدع علة العلل وموجد الموجودات ، وهذا أسمى معاني التوحيد والتجريد

والتنزيه الذي ينسجم مع حقيقة ايماننا وما يشع من أعماقنا من منطلقات توحيدية حقانية •

ونحن لا ننكر أن آراء أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان قد أثرت تأثيرا فعالا في نواحي الفلسفة الاسلامية ، وساعدت على بلورة بعض المعتقدات التوحيدية وخاصة ما يتعلق منها بالعلل والمعلولات وعودة هذه العلل الى العلة الكبرى التي تسببت في وجودها • أما ما يراه أرسطو حول النفس وانها صورة الجسد ومبدأ الحياة فيه وأنها غير خالدة لأن العقل السامي يمكن أن يتسرمد • فنقول : ان النفس التي عرفت ذاتها وسبرت أعماق الموجودات عن طريق العلم والمعرفة تنتقل الى الكل الذي انبعثت منه ، وهذا الكل هو النفس الكلية أو العلة الأولى الابدية ، وطالما أن هذه النفس الكلية أبدية سرمدية فسيكون الجزء الذي عاد اليها سرمديا يبقى ما بقي الكل • وان كنا ننكر على أرسطو عدم اعترافه بسرمدية النفس فلا نخالفه فيما ذهب اليه حول سرمدية العقل باعتباره من العقول الابداعية التي تمد كافة الموجودات العلوية والسفلية بالتأييد العقلاني الواصل اليها ابداعا أو انبعاثا أو فيضا عن طريق المبدع سبحانه وتعالى ، وطالما أن المبدع خالد فمن البديهي أن تكون تلك العقول خالدة لا تبيد لأنها قائمة بالفعل عارفة بالذات •

موقفنا تجاه أفلاطون :

اذا قلنا بأن أفلاطون يعتبر شيخ الفلاسفة الذين تسربت فلسفتهم الروحانية الى صلب المعتقدات الفلسفية الاسلامية وخاصة تلك التي يقول بها جماعة أهل الحق ، نكون قد أعطينا

فكرة عن مدى قناعتنا بالآراء الأفلاطونية التي ذكرها حول الوجود والمعرفة الصاعدة من المحسوس الى المعقول والتي تخضع الاول للثاني • وليس أعظم من طريقة استخدام أفلاطون للحركة والنظام للاثبات على وجود الله باعتباره روح عاقل محرك جميل خيِّر عادل كامل ثابت لا يتغير ، صادق لا يكذب • وعنايتـه تشمل الكليات والجزئيات بالقدر الذي يتفق مع الكليـات • وربما اتفقنا مع أفلاطون في نظرته الى تكوين العالم الذي يرى حدوثه من علة ، والعالم حدوثه قد بدا من طرف أول لأنـه محسوس ، وكل ما هو محسوس فهو خاضع للتغيير والحدوث ، وله صانع •

ولما كان الصانع خيرا والخير بطبيعته بريئا من الحسد ، فقد أراد أن تحدث الاشياء شبيهة به على قدر الامكان وهذا القول ينسجم مع ما نذهب اليه لأن الله قد خلق الانسان على صورته • ومع كل هذا فنحن لا نقر الأسلوب الاسطوري الخرافي الـذي أورده وهو يتحدث عن كيفية تركيب العالم وحدوثه ، لكوننا على ثقة بأن الله ليس بحاجة الى أخذ النار والتراب والمـاء والهواء وتركيبهم ليخلق منهم الصور التي ذكرها أفلاطون ، بل له القدرة التامة على ايجاد كافة الموجودات بكلمة (كن) دفعة واحدة • هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لا ندري كيف عرف أفلاطون أن النفوس الانسانية كانت مخزونة في عالم الكواكب قبل أن توضع في الأجساد الحية بعد أن هبطت من علوها • واذا ما وافقناه على أن النفوس الانسانية قد هبطت من عالم الكواكب لجناية ارتكبتها فيه نكون قد خالفنا أفكارنا الحقانية التي تقول بأن النفوس البشرية ليست سوى أجزاء من النفس الكلية هبطت

الى العالم السفلي نتيجة سهو ارتكبه العقل الثالث عندما لم يعترف للسابق عليه بالأفضلية وهو العقل الثاني ۰ كما وأننا نؤيد ما ذهب اليه أفلاطون حول خلود النفس وأفعالها الثلاثة التي هي الادراك والغضب والشهوة ، وأنها تنقسم الى جزء ناطق وجزء غير ناطق لما نحسه فينا من صراع بين الشهوة التي تدفع الى موضوعها والعقل الذي ينهي عنه ۰

لماذا نطرح أفكار نيتشه :

أشرنا في ما تقدم من فصول هذا الكتاب الى بعض آراء الفيلسوف نيتشه حول العود الأبدي وما يتصل بهذا العود من أفكار تحركية أكسبها صفة الوجود وعدم الاقرار بالتحول الدائم ، لأن التغيير برأيه يعود الى ذاته على الدوام لأنه تحول خالد تصطبغ كل مراحله بصبغة الابدية ، ويشتم من فلسفة نيتشه ونظرياته السخرية من أفكار ونظريات الحكماء الذين غاصوا في أعماق الحكمة الماورائية عبر القرون والأجيال ، وهذا مما لا يتفق مع مكانة نيتشه العلمية الرفيعة وما يتصل بها من أفكار الحادية لا بد من نبذها وطرحها لأنها تنطلق من عقلية هستيرية أقل ما يقال فيها أنها جنون العظمة وحب الذات والشهرة والنبوغ۰والذي يدهشنا في فلسفة نيتشه رأيه الصريح في أصل المعرفة التي يردها الى العقل ۰ ثم يستنكر بدوره أنه قد تولد عن العقل خلال الأزمان الماضية سوى الاخطاء وهذا الرأي بعرفنا لا يتفق مع النضوج العرفاني للحياة الروحية وما انبثق عنها من اشعاعات واشراقات وما ابتدعت من مناهج في التفكير العقلاني ، والتأمل ، الذي نما وتطور وواكب سير

الحياة التصاعدي . وأعطى العقل القدرة التامة على العصمة وعدم الوقوع في الاخطاء . وهذا العقل الذي نتحدث عنه ليس العقل الذي يرمي اليه نيتشه من وراء فلسفته الهستيرية كونه عقل ابداعي روحاني علوي يمد كافة الانفس البشرية بالتأييدات العلوية الربانية وليست له أية علاقة بحفظ النوع والذرية كما يزعم نيتشه .

وعلى ذلك فالمعرفة لا تكون في جوهرها سوى نوع من الانبثاق الفكري بعد أن يتلقح الفكر عن طريق الاكتساب بالعلوم والمعارف والحكمة ، فالحكيم برأينا هو الانسان الذي يجسد بحكمته ودرايته وخبرته الانفعالات والأحاسيس العقلانية المنطلقة من عالم الروح قد استمدها من صفاء ذهنه وتعمقه في الأصول والاحكام الاساسية المنبعثة من الوجود والموجودات ، ونحن لا نفرق بين الروح العلمية والروح الدينية اذا كانتا تقدما للانسانية الخير والكمال المطلق . ولا نرى مع نيتشه أن القوى الكونية متناهية لأن الزمان غير متناهي ولا بد لهذه القوى من أن تظل تمارس أفعالها وانفعالاتها واستجاباتها بلا انقطاع . والحكمة التي سخر منها نيتشه برأينا تفجر ينابيع العلوم والمعارف لتنير البصائر بشمس البراهين الحقانية وتستقي من نهر الديمومة الذي يشع نوره فيضيء وجوده الحقاني ويشعر بالسعادة القصوى عندما يرتشف من رحيق العشق الالهي حتى تذوب نفسه بالنور العقلاني وتستمد امدادات القبس الرباني الذي يعرفه من صفت نفسه ، وذابت ذاته بالتجريد الوحداني والبهاء العرفاني ، فعندما تغمر نفسه الثقة والاطمئنان فتحس بأنها سبحت نحو الافضل والأكمل واجتازت المفارق والمسالك ،

فاضطلعت على مكنون خفيات غيبه،ولحقت بالنفس الكلية وهي مرتاضة بالعلوم العرفانية والتجليات الصفاتية تشرق في أرجائها أشعة الحقيقة بحللها الكمالية الذاتية ، الناهدة الى المثالية الأحدية · وبذلك يكتمل الانسان في ذاته عن طريق اكتساب الفضيلة الانسانية ويتنزه عن تعاطي الأوزار والفواحش والمآثم ويلزم العدل والانصاف · وعندها نسميه حكيما أو فيلسوفا عرفانيا ·

« انتهى »

الفهرس

الكتاب القادم

فلسفة العقول

٢

أصل الإنسان وسر الوجود